د. محمد العبد
استاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية
كلية الألسن - جامعة عين شمس

العبارة والإشارة

دراسة في نظرية الاتصال

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة ت: ٣٩٠٠٨٦٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العبارة والإشارة

دراسة في نظرية الاتصال

دكتور

محمد العبد

أستاذ العلوم اللغوية ورئيس قسم اللغة العربية

كلية الألسن – جامعة عين شمس

الناشر – مكتبة الآداب

42 ميدان الأوبرا ت: 23900868

ALADAB Editions

42 Opera Square Cairo Egypt

T.: (202) 3900868

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

مكتبة الآداب

كافة حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الرابعة : ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة

لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

العبد ، محمد

العبارة والإشارة : دراسة في نظرية الاتصال /

محمد العبد - ط٤ - القاهرة : مكتبة الآداب ٢٠١٠

٢٢٤ص ، ٢٤سم

تدمك ٠ ١٩٢ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

ا- اللغة العربية

أ- العنوان

٤١٠

عنوان الكتاب : العبارة والإشارة (دراسة في نظرية الاتصال)

الدكتور : محمد العبد

رقم الإيداع : ٥٨٥١ لسنة ٢٠١٠

الترقيم الدولي : 0 192 468 977 978

الناشر

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

هاتف ٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)

e-mail: adabook_a hotmail.com

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفهرس

بين يدي الطبعة الثانية 6

مقدمة 7

* مدخل : الاتصال: مفهومه وأشكاله وقنواته ..... (9-14)

(1) مفهوم الاتصال 11

(2) أشكال الاتصال 12

(3) قنوات الاتصال 14

*** الفصل الأول : الاتصال اللفظي ..... (15-98)**

(1) الاتصال اللفظي : مفهومه وخصائصه وأشكاله 15

(أ) مفهوم الاتصال اللفظي 15

(ب) خصائص الاتصال اللفظي 21

(جـ) أشكال الاتصال اللفظي 25

(2) تصنيفات الوظائف ومخططات الاتصال 30

(أ) تصنيف مالينوفسكي 33

(ب) تصنيف بولر 33

(جـ) تصنيف شانون/ ويفر 34

(د) تصنيف ياكوبسون 35

(هـ) تصنيف موريس 36

(و) تصنيف بريتون 37

(ز) تصنيف ليتش 39

(ح) تصنيف هاليداى 42

(3) إثنوجرافيا الاتصال 47

(أ) الموقف الكلامي 55

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

(ب) الواقعة الكلامية.....56
(جـ) الحدث الكلامي.....57
(4) الاتصال والتداولية.....60
(أ) التداولية وقوانين التفاعل.....61
(ب) التداولية وقوانين التفسير.....65
(جـ) التداولية والمقصدية.....66
(د) التداولية والموقفية.....75
(5) النص الأدبي بوصفه اتصالا.....89
***الفصل الثاني: الاتصال غير اللفظي (السلوك الحركي)** ..... (99-134)
(1) الاتصال غير اللفظي : مفهومه وحدوده.....99
(2) السلوك الحركي وأصل اللغة.....105
(3) السلوك الحركي والسياق الثقافي.....107
(4) السلوك الحركي ووظائفه العامة.....109
(5) السلوك الحركي ووظائفه الخطابية.....116
***الفصل الثالث: العبارة والإشارة وموقف التراث العربي**.....(135-154)
(1) العوامل والمحددات الموقفية الاتصالية.....135
(أ) محدد الرؤية.....136
(ب) محدد النظر والإصغاء.....136
(جـ) محدد مقام الصوت.....137
(د) محدد الحركات والتصويتات السلبية.....137
(هـ) محدد العرف والعادة.....138
(و) محدد دلالة الحال.....139
(ز) محدد الإبقاء على إقامة الاتصال.....140
(ح) محدد السكوت.....140

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

(2) هل عرف القدماء السلوكيات الحركية قناةً للاتصال؟ 141
(أ) الإشارة ونظرية الجاحظ البيانية..... 143
(ب) ابن جني ومشاهدة الأحوال..... 149
*** الفصل الرابع : السلوك الحركي من اللغة المكتوبة ..... (155-214)**
(1) تعبيرات الوجه والعينين..... 157
(2) الإشارات والحركات 171
(3) الهيئات والأوضاع الجسمية 193
نتائج التحليل للتنظير 204
قائمة المراجع 213
(أ) المراجع العربية والمترجمة 213
(ب) المراجع الأجنبية 217

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين يدي الطبعة الثانية

شهدت العقود الثلاثة الأخيرة من تاريخ اللسانيات نموًا وازدهارًا هائلين لنظريات وُضعت بذورها في حقل البحث اللساني في فترات سابقة وأنتجت علومًا من علوم؛ كالتداولية، وعلوم الاتصال، وإثنوجرافيا الاتصال، واللسانيات الإثنوميثودولوجية، وعلم الكينات (أو السلوك الحركي)، وغيرها. كان هذا الكتاب: العبارة والإشارة، عند صدوره في طبعته الأولى عام 1995 - ومازال - رغبة في أن يكون همزة وصل بين القارئ العربي المهتم وتلك العلوم جميعًا في نطاقاتٍ تعريفية مناسبة.

وتشهد الحال بين أهل الاختصاص اللغوي على أن علومًا كالمذكورة آنفًا مازالت تعاني فقرًا مدقعًا في التعريف بها والإفادة منها، على رغم ما تكتسب وتبرهن عليه يومًا بعد يوم من أهمية بالغة.

أما الآن، فهذه هي الطبعة الجديدة المنقحة والمزيدة من ذلك الكتاب، قامت على رعايتها مكتبة الآداب، فأتاحت من ثم انتشارًا أوسع لأفكار عرضتها منذ أكثر من عقد من الزمان، ولكنها ما زالت حية، ومازلنا بحاجة ماسة إلى الخوض في أعماقها وسبر أغوارها.

كان أخي الكريم الأستاذ أحمد علي حسن صاحب مكتبة الآداب قد أكرمني بإصدار طبعة جديدة أنيقة من كتابي «المفارقة القرآنية». وها هو ذا يجود ثانية بحماسته وترحيبه بإصدار هذه الطبعة الجديدة من الكتاب الذي بين أيدينا. جزاه الله خيرًا ودام عليه نعمة السداد.

المؤلف

القاهرة الجديدة / يناير 2007 م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

الاتصال اللفظي هو الأساس الذي يبنى عليه التفاعل اللغوي بين الناس. إنه الوسيلة التي نكتسب بها – منذ الصغر – المعرفة والقيم في مجتمعنا، كما أنه دعامة التطور المعرفي في تاريخ الإنسان ودليله، ومن هنا كان اللسان دليلا على الإنسان. ويوصف الاتصال الإنساني – في الجانب الأعظم منه – بأنه عمل متعدد القنوات. وهو يمارس على المستويين: اللفظي وغير اللفظي، بما لكل مستوى منهما من أنماط أخرى فرعية. ولا تكتمل نظرية الاتصال إلا بهذين المستويين الرئيسين معًا. ووضع الاتصال عبر اللفظي مع الاتصال اللفظي – في تلك النظرية – لا يعني جعله ندًا له، بقدر ما يعني أننا لا نتصل بعلامات لغوية فحسب، بل نتصل بالحركات والإشارات أيضًا. وهي علامات بصرية لا ينبغي لنا أن نبخسها حقها فيما تشغله في عملية التخاطب بين أفراد الجماعة الكلامية.

إن الكلام وسيلة واحدة فقط من وسائل متعددة يتصل بها الناس، ولكنه أكثر هذه الوسائل شيوعًا وفعالية. إلى جانب القناة السمعية المستخدمة في التكلم، يستخدم الناس قنوات أخرى، لا سيما القناة البصرية، وذلك عندما يجعلون الحركات الجسمية وتعبيرات الوجه ونحوها وسائط اتصالية مرئية في ضوء ما اعتادته الجماعة الكلامية التي ينتمون إليها. ولكن تظل العلامات اللغوية أهم وسائل الاتصال. بهذه العلامات نعرض لأنفسنا المعرفة، فنحن لا نستطيع – مثلاً – أن نعرض نظرية فلسفية أو واقعة تاريخية، دون مقدرة على الكلام عنها.

وقد شغل الاتصال بال الباحثين في ميادين معرفية مختلفة، باعتباره أساس الحضارة والثقافة على الجملة. شغل الاتصال اللغويين، والسيميائيين، وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، وعلماء النفس والتربية وغيرهم. ولعل اللغويين والسيميائيين أشد الناس انشغالاً ببنية الاتصال ووسائطه. ولا تنكر العلوم اللغوية والسيميائية ما قدمته بين يديها العلومُ الاجتماعية جميعًا بفروعها المختلفة لا سيما الأنثروبولوجيا والإثنوجرافيا والإثنوميثودولوجيا من مناهج ونظريات فتحت للبحث اللغوي والسيميائي في الاتصال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آفاقًا جديدة، وجعلته أقدر على استكناه الواقعة الاتصالية في حيويتها وفاعليتها التبليغية بين المتخاطبين. وكان لا بد – والأمر هكذا – أن يمتد النظر اللغوي في البحث الذي بين أيدينا، إلى الإفادة من معطيات تلك العلوم الاجتماعية إحاطةً بمسالك الاتصال المشعبة!.

وقد فصّلت هذا العمل إلى أربعة فصول: عرضت في أولها للاتصال اللفظي ومفهومه وأشكاله ومسائله الجوهرية؛ كوظائف الاتصال، وإثنوجرافيا الاتصال، وتداولية الاتصال، والنص الأدبي بوصفه اتصالا. وفي الفصل الثاني عرضت للاتصال غير اللفظي؛ فألممت بأشكاله المختلفة، وأعضضت القول فيما تلا للإشارة أو السلوكيات الحركية بأنماطها وطبقاتها المتعددة، مفيدًا في ذلك مما قدمته أحدث الأعمال العلمية في هذا الميدان من مفاهيم وآراء ونتائج. أما الفصل الثالث، فقد سعيت فيه إلى استكشاف موقف التراث العربي من الاتصال غير اللفظي، من جهة توظيف السلوكيات الحركية في عملية التخاطب المباشر. وقد حدا بنا إلى هذه المحاولة علمنا وثقتنا الكاملة بحقول مستثيرة، يزهو بها التراث العربي، ولا يكاد يدانيها من المحدثين من امتلأت حوصلتهم الضيقة بما ظنوه جديدًا كليةً، فسكتوا عن معرفة قديمه الأصيل.

أما الفصل الأخير، فقد جعلته تحليلاً للسلوكيات الحركية من اللغة المكتوبة – بمفهومها العلمي الدقيق – ممثلة في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي: المشرقي والأندلسي. وقد قصدت بذلك إلى تأسيس بناءٍ معرفيٍّ للسلوك الاتصالي الحركي الخاص عند العرب، بما يعرضه من عادات اتصالية مختلفة عرفتها الجماعة الكلامية في البيئة العربية، حتى إذا رغبنا في بحث السلوك الاتصالي الحركي في اللغة المنطوقة الآن، كانت إجراءات المقارنة والربط سهلة ميسورة.

وبعد، فحديث الثمرة عن نفسها خيرٌ من حديثي عنها. وليس لي الآن – وقد نضجت – إلا الدعاء أن تنال القبول والرضاء وأن ينفع الله تعالى بها قدر ما وهب لها من رعاية وما بُذل فيها من جهد.

المؤلف

غرة المحرم 1428 هـ/ يناير 2007 م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدخل

الاتصال: مفهومه وأشكاله وقنواته

(1) مفهوم الاتصال

يعرّف سوونسكى Sowinski الاتصال بأنه نقل المعلومات بين الأفراد نقلاً مقيدًا بقناة محددة. ويعرّف الاتصال أيضًا بأنه نظم صناعة الأخبار بواسطة العلامات[1]. ويعرف هوكيت Hockett الاتصال بأنه المؤشر على إحداث استجابة[2]. ويقره على هذا التعريف كلاكهون Kluckhohn[3].

ويبنى تعريف سوونسكى الأول – كما هو واضح – على أهم مكونات الحدث الاتصالى: المحتوى (وجود معلومة)، والمشاركين (ينقلها مرسل إلى مستقبل)، والقناة (من قناة اتصال بعينها: سمعية أو بصرية... إلخ). ونحسب أن تعريفه الثانى لا يختلف كثيرًا عن الأول؛ فالأخبار هنا (مكون المحتوى) تضاهى المعلومات هناك، والعلامات هنا (مكون الوسيط أو القناة) تضاهى القناة هناك، وغالبًا ما تكون العلامات سمعية (فى الاتصال اللفظى المنطوق) أو بصرية (فى الاتصال اللفظى المكتوب والاتصال الحركى بالطبع). ولعل التعريف الأول أكثر وضوحًا وإبرازًا لمكونات الاتصال الرئيسة من التعريف الثانى الذى نزعت صياغته إلى التعميم والتجريد.

والوظيفة التى يبرزها هذان التعريفان – شأنهما شأن تعريفات أخرى عدة – هى الوظيفة الغالبة أو المهيمنة فى كل حدث اتصالى. بيد أننا نلاحظ أن وظيفة

---

(1) Sowinski, Bernhard : Textlinguistik, Eine Einfuehrung, Verlag W. Kohlhammer, Stuttgart – Berlin – Koeln – Mainz (1983) S. 67

(2)Hockett, C., F., : A Course in Modern Linguistics, Macmillan Co., (1958) P. 573

(3) Kluckhohn, C., : Notes on some Anthropological Aspects of Communication, Amer. Anthrop. (1961) Vol. 63, pp. 895 – 910, p. 895.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاتصال، ليست دائمًا نقل المعلومة أو صناعة الخبر ونحوهما؛ فربما اقتصرت وظيفة الاتصال على عمل جوٍّ من المؤالفة الاجتماعية التي تعد مؤثرًا عاطفيًا، يبدو معادلا للتسليم الحار أو الاحتضان.

ومهما يكن من أمر، فإننا نحسب أن تعريف سوونسكي الأول، هو أفضل التعريفات المتاحة للاتصال، لاسيما أن تعريف هوكيت يفتح بابًا للنقاش الطويل، فقد يُفهم منه ضمنًا أن كينونة الاتصال بالتفاعل : هناك الفعل (مرسل يوجه رسالة)، ورد الفعل (مستقبل يستجيب لتلك الرسالة على نحو أو آخر). ولا شك أن توفر عنصر التفاعل يحقق للاتصال غايته كاملة، ويجعله قائمًا على مشاركة متكافئة بين طرفيه. لكننا لا نرتضي أن يكون الاتصال معادلاً للتفاعل، فأنا أحسبه نقلي إليك معلومةً عبر قناةٍ ما اتصالاً، سواء أصدر عنك رد فعل نحوها أم لم يصدر، وربما جعلنا من رد الفعل أيضًا السكوت عن التعليق على المنقول.

(2) أشكال الاتصال

بالنظر إلى عدد الأشخاص المشاركين في الحدث الاتصالي، يمكن التمييز – من ناحية – بين الاتصال القائم على الحوار الداخلي، والاتصال القائم على الحوار الخارجي (وجرت عادة الباحثين على تعريبهما إلى الاتصال المونولوجي والاتصال الديالوجي). كما يمكن – من ناحية أخرى – التمييز بين الاتصال الفردي، والاتصال الجماهيري.

في الاتصال المونولوجي، يوجد مرسل واحد فقط، هو الذي يعطي المعلومة. وينقسم هذا الاتصال بدوره إلى:

(أ) اتصال الشخص بذاته intrapersonal.

(ب) اتصال الشخص بآخرين interpersonal.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبدو الأول إذن فى اتصال المرسل بذاته، كما هى الحال فى حديث الذات (التفكير بصوت مسموع). أما الثانى، فهو حديث المرسل إلى أشخاص آخرين، دون أن يجيبه هؤلاء، كما هى الحال فى الخطبة، والمحاضرة... إلخ.

أما الاتصال الديالوجى، فهو يعرف – إلى جانب المرسل – مشاركًا فى الاتصال واحدًا على الأقل؛ هو المستقبل الذى يستطيع – فى أحداث اتصالية ممتدة (كالحوار، والاستجواب ونحوهما) – أن يقوم هو نفسه بدور المرسل. وقد يتعدد المشاركون فى الاتصال، كأن يكون لأشخاص عدة إسهامهم فى اتصال ديالوجى، على نحو ما نجد – مثلاً – فى المناقشات، والمحادثات الإذاعية وغيرها.

وفى الاتصال النصى المكتوب، يبقى الاتصال الديالوجى – غالبًا – محصورًا فى مشاركَيْن اثنين (كما هى الحال فى تبادل الرسائل).

ويمكننا أن ننظر إلى أنواع الاتصال السابقة جميعها، على أنها اتصالات فردية Einzekcommunikationen، من حيث إن المرسل فى تلك الاتصالات ، يتجه إليه أشخاص معروفون مفردون: قلوا أو كثروا.

أما الاتصال الجماهيرى، فتمثله وسائل الإعلام التى تتجه إلى مجال واسع جدًا من الأشخاص (إلى الجمهور)، والتى لا يكون المرسل فيها عادة معروفًا. ويقع هذا الاتصال – فى معظم الحالات – عبر وسائل الاتصال الجماهيرى (كالصحف، والمنشورات، والإعلانات، والأدب، والإذاعة، والاسطوانات، والأفلام، والتليفزيون) ويتجنب فيها اللقاء وجهًا لوجه (اتصال المراجهة Face–to–Face kommunikation). ولا تتاح – فى مثل هذا الشكل – إمكانية إجابة المخاطبين.

وهناك أشكال للاتصال الجماهيرى، تتيح فى حرية تصرف، كما تتيح فى قابلية إعادة استقاء المعلومات منها (كالأدب، والنصوص الصحفية، والأفلام). مثل هذا الاتصال غير المباشر، مما يمكن تجديده، تبعًا للرغبة[4].

من ناحية أخرى، ينقسم الاتصال – وفقًا لأنماط العلامات المستخدمة فيه – إلى الاتصال اللفظى Verbal Communication والاتصال غير اللفظى Non-verbal communication. ولكل منهما أنواعه الفرعية المختلفة على نحو ما نبين فيما يلى.

---

(4) Sowinski, SS. 68-69

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

(3) قنوات الاتصال

للاتصال مكونات عدة، من أهمها القناة Channel. أما المكونات الأخرى، فهى: المشاركون Participants، والوضعSetting، والغرضPurpose، والشفرات Codes، ومضمون الرسالة وشكلهاMessage content and form.

ونمحض كلامنا هنا للقناة، تاركين المكونات الأخرى لموضع آخر (راجع مبحث إثنوجرافيا الاتصال).

ويمكن – وفقًا لجهاز الاستقبال – التمييز بين عدة قنوات للاتصال، هى:

(أ) القناة اللمسية Tactile channel : التى تعتمد على اللمس جهازًا للاستقبال. ويعد نظام الكتابة عند المكفوفين – المعروف بطريقة برايل Braille – مثالاً على هذه القناة؛ لأنه يستخدم حروفًا مكونة من نقط بارزة، تُستقبل عن طريق حاسة اللمس.

(ب) القناة الشمّية Olfactory channel : ويختار الإنسان هذه القناة عندما يود أن يتصل عن طريق حاسة الشم : فالناس يستخدمون معطر الغرفة قبل استقبالهم ضيوفهم، ويضعون العطر، ويزيلون ما قد يكون من روائح كريهة، عندما يأملون قضاء وقت مع أفراد آخرين فى ودّ. وللقناة الشمية أهمية خاصة بين القنات الاجتماعية التى تقيم اتصالها كثيرًا عن طريق الروائح.

(ج) القناة البصرية Optical channel : أى هذا النوع من الاتصال الذى يرتبط بالرؤية، والذى يعتمد اعتمادًا أساسيًا على ما يعرف بالاتصال غير اللفظى، وعلاماته الحركات الجسمية، والأوضاع الجسمية، وتعبيرات الوجه والعينين ونحوهما (انظر تفصيل ذلك فى الفصل الثانى). ويمكن أن ندرج الاتصال اللفظى المكتوب فى القناة البصرية أيضًا.

(د) القناة السمعية Acoustic channel : وهى التى تقوم على كلام الناس بعضهم إلى بعض؛ أى أنها تعتمد على الاتصال اللفظى، وقوامه الأصوات

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

اللغوية. ومن أجل ذلك، عُدَّ السمع جهاز الاستقبال فى هذه القناة.

وعلى رغم أن القناة السمعية يمكن أن تضم أشكالاً أخرى؛ كلغة الطبول، drum language ، ولغة الصفير whistle speech ونحوها، فإن العلامات اللفظية التى نعرفها فى هذه الأداة التى ندرك بها العالم؛ وهى اللغة الإنسانية، تظل أشيع الوسائط المستخدمة للاتصال فى هذه القناة. اللغة الإنسانية شبكة من العلامات الدالة. وامتلاك المعنى – كما يقول زايدلر Seidler – هو العلم بالعلامة[5].

ويشير توماس سيبيوك Thomas Sebeok إلى أن الاتصال السمعى عند الإنسان، يمكن أن يكون اتصالا عضويًا Somatic (كالطنين أو الدندنة)، أو اتصالا من صنعه art factual (كالضرب على الطبول). أما الاتصال السمعى العضوى، فإما أن يكون صوتيًا vocal (كالصياح بالنادل)، أو غير صوتى non-vocal (كفرقعة الأصابع عند استدعائك إياه).

من جهة أخرى، فإن الاتصال السمعى العضوى الصوتى، قد يكون لفظيًا (كلاميًا) Verbal (speech) ، أو غير لفظى Non-verbal[6].

وكان ويسكوت Wescott قد ميّز – فى القناة السمعية – بين ثلاثة أنظمة اتصالية، يسميها – على التوالى – باسم : اللغة Language ، والهيئة phasis ، والصخب strepitus. أما اللغة والهيئة، فكلاهما صوتى: الأولى ملفوظ بها، والأخرى مكوّنة فقط من النخير أو النعير. وقد يضاف إليها تلفظات أخرى، يُضم بعضها إلى بعض دون حس. بناء على ذلك، فإن الصخب يختلف عن النوعين

---

(5) Seidler, Herbert: Allgemeine Stilistik, 2., neubearbeitete Auflage, Vandenboeck und Ruprecht – Goettingen (1963) S. 12.

وانظر فى تفصيل القول فى القنوات السابقة :

Salzman, Zdenek: Language, Culture and Society, An Introduction to linguistic Anthropology, West View press, Oxford (1993) pp. 14-15.

(6) Sebeok, Thomas, A.: Zoosemiotic Components of human Communication, in: Marcel Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing Semiotics, Canadian Scholars Press – Toronto (1992) pp. 153 – 184, p. 162.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

السابقين كليهما، وهو غير صوتى nonvocal، ومنه: تصفيق الأيدى، وضرب الأرض بالأقدام[7].

ومهما يكن من أمر، فإن الاتصال بين الناس – بناء على ما تقدم – ليس مقتصرًا على أصوات الكلام أو العلامات البصرية المتنوعة، ولكن هاتين القناتين – فى الوقت ذاته – هما أشيع وسائط الاتصال المختارة عند الإنسان وأكثرها تأثيرًا. ويُعد الاتصال اللفظى فى القناة السمعية الأشيع والأهم والأكثر تأثيرًا على الإطلاق.

* * *

(7) Pike, Kenneth: Phonetics, A Critical Analysis of phonetic Theory and Technical for the Practical Description of Sound, Ann. Arbor, Uni. Of Michigan Press (1943) pp. 32-41. Sebeok, ibid, P. 164.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

الاتصال اللفظي

(1) الاتصال اللفظي : مفهومه وخصائصه وأشكاله

(أ) مفهوم الاتصال اللفظي

الاتصال اللفظي هو الاتصال الذي يستخدم العلامات اللغوية وسيطًا له. ويجعل سورونسكي من العلامات اللفظية : نظم العلامات التي تمكن من نقل المعلومات بمساعدة علامات لفظية؛ كالقوالب الحسابية أو الرياضية، وعلامات الأعلام، ولغة الصم[8]. وهي علامات تستثمر اللغة اللفظية الإنسانية. وربما بدت هذه المسألة خلافية؛ لأن العلامات المستخدمة في القوالب الرياضية – مثلاً – ليست كتلك العلامات اللغوية ذات الوحدات والأنماط البنائية التي تعرفها، بما فيها من ميزات اشتقاقية وتركيبية. ولعل قبولنا ما يذهب إليه سورونسكي – متجاوزين الخاصية الجوهرية السابقة – يرجع إلى أن القوالب الرياضية ونحوها، لا تدخل في نوع آخر من أنواع العلامات التي تعرفها قنوات الاتصال الأخرى المختلفة.

وإذا كنا قد رأينا سابقًا أن الاتصال ليس كله اتصالاً لغويًا، فإن العلامات اللغوية هي وسيط الاتصال الأقوى فعالية، والأشد طواعية وتأثيرًا في نقل التراث والثقافة.

إن النظام اللفظي verbal system – على خلاف نظم العلامات الأخرى – يمكنه – من خلال التمحيص الدقيق لبنيته النحوية والدلالية – أن يشير إلى تنوع واسع للمقاصد والمفاهيم. في الوقت ذاته، فإن التفاعل اللفظي verbal interaction، يعد – كما يقول جامبرز Gumperz- نسقًا اجتماعيًا، تختار فيه المنطوقات وفقًا للمعايير والتوقعات المعترف بها اجتماعيًا. ويستتبع ذلك قابلية الظواهر اللغوية للتحليل، سواء أكان هذا داخل سياق اللغة ذاتها، أم داخل السياق الأوسع للسلوك الاجتماعي[9].

---

(8) Sowinski, S. 67

(9) Gumperz, J. : The Speech Community, in Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context, Selected Readings, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990) pp. 219-231, p. 219.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعلنا نلاحظ فى حالات كثيرة، إمكانية جمع الموقف الاتصالى الواحد بين الاتصال اللفظى والاتصال غير اللفظى. ولا غرو، فالإنسان مزود بالنمطين معًا. وتُبين تجارب خبراء الذاكرة – على نحو مقنع – أن التفكير قد اتخذ له مكونين اثنين، يتصل أحدهما بالآخر اتصالاً وثيقًا عند الإنسان: أحدهما لفظى، والآخر غير لفظى. ولكل منهما خصائصه المميزة. إن المؤثرات التخيلية imaginal effects فى هذا النظام الشفرى الثانى، تعد مؤثرات سيميائية حيوانية zoo semiotic . وتُظهر الدراسات المختصة بالجهاز العصبى – فى صورة نهائية – فاصلاً وظيفيًا بين الأنظمة الواسعة: اللفظية وغير اللفظية[10].

ويؤكد سلوبين Slobin – أحد علماء اللغة النفسيين – أن نصف كرة الدماغ الأيسر هو الذى يختزن الضبط الأعظم للغة[11]. أما القشرة غير اللغوية عند الإنسان، فيمكن أن يمثلها نصف الدماغ الأيمن بعامة[12].

وهناك تعامل عظيم مع حقل بحوث المخ، يختص بمسألة الجانبية lateralization لاثنين – على الأقل – من صيغ التفكير عند الإنسان. هناك – على سبيل المثال – بحوث عمًا يسمى asemasia أى تعطيل الوظائف الاتصالية غير اللفظية[13]. وقد استهدفت تلك الجهود – لاسيما فى بداياتها – السعى تجاه التركيب الحقيقى للبيولوجيا والثقافة فى عملية العقول الإنسانية.

إن الصورة البارزة – كما يقول سيبيوك – تدل على أن الجانب الأيسر من المخ،

---

(10) Sebeok, Zoosemiotic Components, p. 160.

(11) Slobin, Dan Isaac: Psycholinguistics, Scott, Foresman and Company, 2 nd. Edition (1979) p. 121.

(12) المرجع السابق ص 125.

(13) راجع فى ذلك :

Zangwill, Oliver, L.,: The Relation of Nonverbal Cognitive Functions to Aphasia, in: Eric H. Lenneberg and Elizabeth lenneberg (eds.): Foundations of Language development, 2. Chap., 6, Academic Press, New York (1975) pp. 95 – 106.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

ينسّق الواجبات أو المهام اللفظية verbal tasks على نحو افضل، بينما يتعامل الجانب الأيمن – في مهارة أعظم – مع واجبات الفراغ البصرى visual – spatial tasks . وينقل سيبوك عن بوجن Bogen قوله بأن نصف كرة الدماغ الأيسر، أفضل من الأيمن بالنسبة إلى اللغة وإلى ما يسمى – أحيانًا – باسم النشاط اللفظى verbal activity ' او باسم الفكر اللغوى linguistic thought '. ويتفوق نصف كرة الدماغ الأيمن في الوظيفة غير اللغوية أو غير اللفظية.

إن الاختبارات النفسية، تميل إلى تدعيم وجهة النظر التى تأخذ بأن نصف كرة الدماغ الأيمن، يبدو – على نحو ما – أعظم مهارة من الأيسر فى التعقل أو التفكير غير اللفظى، وفى القدرات الفراغية، وإن كان نصفا كرة الدماغ كلاهما مجهز – بلا شك – للحضور اللغوى language representation بطرق بعينها وإلى حد بعينه. ويبدو أن السيطرة المخية مزودة بما يسميه كينسبورن Kinsbourne باسم المنافسة النشطة active competition بين الاثنين، بيد أن نصف الدماغ الأيسر مقضىّ له – وراثيًا – بالفوز[14].

وتشير السيطرة إلى تنسيق المعلومة عن طريق أحد نصفَي الدماغ، وإلى قدرته على ضبط الاستجابة. ويبدو هذا التنوع غير مرتبط بالكفاءة أو بأداء واجب بعينه، تقتضيه عوارض سياقية فى نصف كرة الدماغ[15].

وتبرهن بحوث لغة الطفل عمليًا على اجتماع نمطَي الاتصال عند الإنسان منذ ميلاده. كما تحاول أن تقدم تفسيرًا علميًا لتطور اللغة اللفظية قياسًا على نموذج الطفل؛ فالطفل منذ ميلاده يبدأ فى الاتصال كثيرًا أو قليلاً. ويستطيع الطفل حديث الميلاد، أن يعبر بالفعل انتباهًا: فعندما تتحدث إليه أمه ينصت. وفى خلال ثلاثة

---

(14) Kinsbourne, Marcel: Minor Hemisphere Language and Cerebral Maturation, in: Eric, H., Lenneberg and Elizabeth Lunenburg (eds.): Foundations, op. cit., p.114.

(15) Sebeok, p. 170 .

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

أسابيع أو أربعة، يسهم بمشاركته الخاصة في النقاش، مستجيبًا بحركات جسمه النشطة: بذراعيه وساقيه، وبلسانه وشفتيه أيضًا[16].

ويرى بعض الباحثين أن هذا النشاط الجسدي، ليس له بَعدُ أن يُعد لغة. ويسمي كولوين تريفارثن Colwyn Trevarthen – وهو من أوائل دارسي هذه العملية – بعض حركات اللسان والشفة باسم "ما قبل الكلام Pre - speech"، وذلك أن الطفل يكرر النشاط العضلي الذي سوف يستخدمه بعد ذلك في إنتاج الكلام[17].

ولا شك أن تريفارثن على حق، وذلك أن النشاط الجسدي الذي يصدر عن الطفل في هذه المرحلة، لا يصدر عن فطنة بالوظائف الدلالية التي حددتها البيئة الصغرى أو الجماعة الكلامية لذلك النشاط، إنما هي الآلية الحركية التي تنمو شيئًا فشيئًا، حتى تصير في مراحل تالية علامات وظيفية محددة المعاني.

ومهما يكن من أمر، فإنه من المرجح أن اللغة – بالقياس على نموذج الطفل – قد بدأت بعدد صغير من العلامات التي تعبّر عن معانٍ عامة مرتبطة بحاجات الكائنات الإنسانية، في علاقة بعضها ببعض. ويضرب هاليداي Halliday أمثلة على تلك المعاني العامة، يستنبط منها تنوع الحاجات والأغراض، بما لا يخرج – في تلك الأطوار الأولى من اللغة – عمّا نلحظه في تطور الطفل لغويًا. إنها معان نحو: "أعطني (شيئًا ما)" و "افعل (خدمةً لي) من أجلي"، و"تصرّف (بطريقة ما) معي"، و "كونوا (سويًا) معي"، و"تعال، انظر (إلى هذا) معي"، و "أحب (ذلك)"، و "أنا متعجب (من ذلك)" و "لا أحب (ذلك)" .. إلخ[18].

وإذا كانت تلك المعاني العامة، تُظهر – كما أراد لها هاليداي بالطبع – وظائف فرعية مختلفة للتخاطب والاتصال، كالوظيفة التوجيهية، والوظيفة التعبيرية أو النزوعية

---

(16) Halliday, M.A..K.: Spoken and Written Language, 2 ed. Impression, Oxford Uni. Press (1990) pp. 2-3.

(17) Halliday, op. cit., p. 3.

(18) المرجع السابق ص 8.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونحوهما، فإن وظيفة جوهرية تنتظمها جميعًا؛ هى وظيفة المشاركة: الفعل المشترك، أو الانعكاس المشترك.

وليس هناك من الشواهد، ما يكفى لبحث كيفية تطور اللغة الأولية، إلى اللغة ذات النمط الذى تعرفه سائر اللغات الآن. من أجل ذلك، يصرف الباحثون أنظارهم إلى طبيعة الانتقال من اللغة الأولية إلى اللغة، لا إلى كيفية حدوث هذا الانتقال.

يحدّد هاليداى – وهو من أهم اللغويين المعنيين بهذه المسألة – يحدد الاختلاف الجوهرى بين اللغة واللغة الأولية؛ فى أن اللغة ذات نظام ثلاثى المستوى: إنها تبنى من المعانى التى تُشفر فى هيئة كلمات منظومة، والتى تُفك شفرتها – من ثم – إلى أصوات. إنها – بالمصطلح اللغوى – تتكون من ثلاث طبقات هى : المستوى الدلالى، والمستوى النحوى (وعلى وجه التحديد المستوى النحوى المعجمى – lexico grammatical level) والمستوى الفونولوجى. وهذا يعنى أنها لا تشفر المعنى إلى صوتٍ تشفيرًا مباشرًا.

أما اللغة الأولية، فتمتلك نظامًا ثنائى المستوى: إنها تتكون من المعانى التى تشفر مباشرة إلى أصوات، أو تشفر – كما يقول هاليداى – فى هيئة تعبيرات expressions؛ وذلك أن العلامات اللغوية الأولية protolanguage signs، يمكنها أن تعبر بالصوت أو بالحركة الجسمية. اللغة الأولية إذن مكونة – ببساطة – من المعانى meanings والتعبيرات expressions[19]. وقد عرض هاليداى الاختلاف بين اللغة الأولية واللغة من خلال الشكل التالى (الشكل رقم 1):

---

(19) المرجع السابق ص 10.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(أ) اللغة الأولية :

(ب) اللغة :

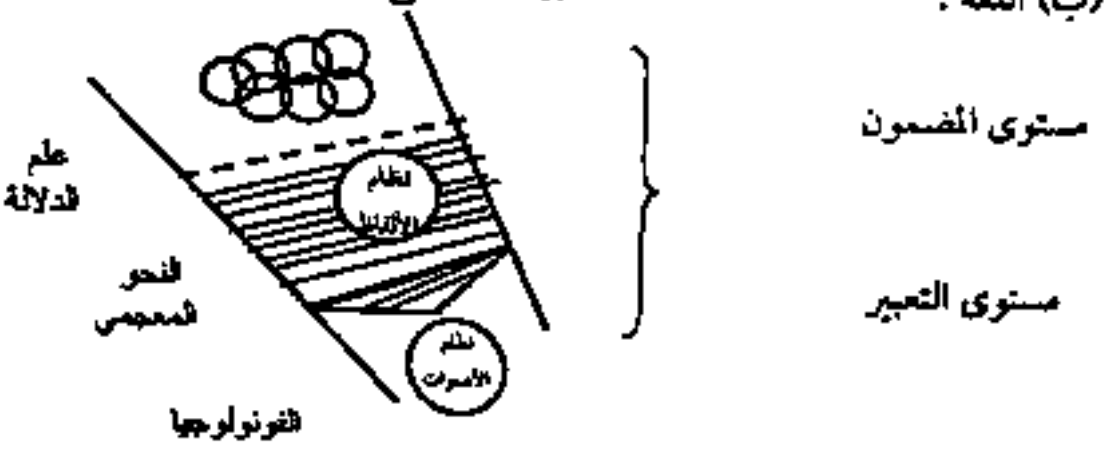

الشكل رقم (1)

ويرى هاليداى، فيما قدمته اللغة من الصوت، وسيطًا أوليًا للتعبير، ميزة واضحة، وذلك أنها تجعل المستقبل فى غير حاجة إلى مراقبة ما يفعله المرسل، وفى غير حاجة إلى رؤية المرسل على الإطلاق[20].

ولا شك أن هاليداى يريد هنا أن يبرز الخاصية الأولية للغة اللفظية، وهى الصوت، فى مقابل لغات أخرى غير لفظية، يلزم فيها أن يراقب المستقبل ما يفعله المرسل؛ كاللغة السلوكية الحركية. فى اللغة اللفظية يستطيع جهاز الاستقبال (الأذن) نقل الشفرة، ويكون الاتصال هنا صوتيًا سمعيًا. ولا يغيب – بالطبع – عن باحث مثل هاليداى، دور الرؤية – أثناء الاتصال اللغوى السمعى ذاته – فى تفاوت درجة التفاعل، وفى استبيان المقاصد الكلامية استبيانًا دقيقًا.

وغنى عن البيان، أن جميع أنظمة الاتصال عند الأجناس المختلفة – ما خلا

---

(20) المرجع نفسه ص 10.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنسان – تعد لغات أولية. وفي الوقت ذاته، ينبغي لنا أن نلاحظ أن ملامح اللغة الأولى عند الطفل، تتلبّس بملامح من اللغة الأولية، بل إن كلام البالغين يعرف آثارا من اللغة الأولية، كالأصوات المعبّرة عن التعجب والدهشة والألم ونحوها

(ب) خصائص الاتصال اللفظي :

ومهما يكن من أمر، فإن اللغة الإنسانية تبدو فريدة بين أنظمة الاتصال المتعددة المعروفة. وينبغي لهذه اللغة أن تحوز ملامح تمييزية design features لا نجدها بحالها في نظام آخر. ولعل أولى المحاولات الحديثة في تطوير قائمة الملامح التمييزية التي تسم الكلام (أي هذا النسق الفيزيقي المحسوس من اللغة الحاصل بإنتاج أصوات لغوية) هي محاولة هوكيت Hockett (1958)، التي وصلت بتلك الملامح إلى ستة عشر ملمحًا. وقد أحسن سالزمان Salzman عرضها على النحو التالي:

1- القناة الصوتية السمعية Vocal – auditory channel

وذلك أن بعض الأصوات التي تنتجها الحيوانات ليست صوتية (نحو صرير الصراصير)، أو لا تستقبل استقبالاً سمعيًا (فليس للنحل آذان). وتستثنى الكتابة – بالطبع – من هذا الملمح؛ وذلك أن القناة المستخدمة في الرسائل المكتوبة قناة بصرية قبل أن تكون قناة صوتية سمعية. ويشيع تمامًا بين الثدييات استعمال القناة الصوتية السمعية في الاتصال. ولاستعمال الجهاز الصوتي في الاتصال ميزة هامة؛ هي أن بقية الجسم تتمتع بحرية التخلي عن ممارسة النشاطات الجماعية المتعددة الأخرى.

2- النقل المذاع والاستقبال الموجّه .

: Broadcast transition and directional reception

وذلك أن أصوات الكلام تتحرك خارجة من مصدرها الأصلي في جميع الاتجاهات. ولا يحتاج المرسل أو المستقبل إلى أن يرى أحدهما الآخر، من أجل الاتصال. ويمكن الاستقبال بالأذنين دون حاجة إلى تحديد مصدر الأصوات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3- الزوال السريع Rapid fading :

وذلك ان اصوات الكلام تسمع فى مدى محدَّد جدًا. وهى تسمع فقط فى الوقت الذى تنتج فيه. وبعد ذلك، تفقد على نحو لا يمكن ردُّه. (على العكس من ذلك، تبقى الكتابة نسبيًا؛ فبعض المدونات المكتوبة قد احتفظ بها لعدة آلاف من السنين).

4- قابلية التغير Interchange ability :

وذلك أن للكائنات الإنسانية – من الناحية النظرية على الأقل – مقدرة على نطق ما يقوله الآخرون (إذا كانت اللغة المستخدمة مألوفة بالطبع). ولا يقع هذا عند أنواع عدة من الحيوان، حيثما تنوع الرسائل بين الذكور والإناث، أو تبعًا لتقسيمات طبيعية أخرى.

5- الاسترجاع الكامل Complete feedback :

وذلك أن متكلمى أية لغة يسمعون – هم أنفسهم – ما يقولون. ومن أجل ذلك، فهم قادرون على مراجعة رسائلهم، وإدخال أية تصويبات يرونها ضرورية أو مناسبة، على التو. وعلى العكس من ذلك، فإن أبا شوكة أو الزقزوق (نوع من السمك) لا يقدر أن يراقب تغير لون عينيه وانتفاضة بطنه، عند إثارة إناث السمك!.

6- التخصيص Specialization :

وذلك أن الكلام الإنسانى، لا يؤدى وظيفةً أخرى غير الاتصال. وعلى العكس من ذلك، فإن الغرض الرئيس للهاث الكلب – مثلاً – هو تهدئة الجسم، من خلال تصعيد النفس، بالرغم من أن اللهاث ينتج أصواتًا تحمل إعلامًا (هو – مثلاً – إعلام بمكان الكلب، أو بدرجة تعبه).

7- الدلالية Semanticity :

وذلك أن أنظمة اتصالية عدة فى مملكة الحيوان، تمتلك مكونات دلالية. على سبيل المثال، تدل بعض ملامح لغة الرقص عند النحل، تدل على بُعد مصدر الطعام من الخلية. وتحدد بعض الملامح الأخرى الاتجاهَ الذى يوجد فيه الطعام. وعلى أى حال، فليس هناك من نظام – إلا اللغة الإنسانية – يعرف مثل تلك الصلة المحكَمة بين

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

التعدد الوفير من المفردات والجمل الممكنة، وبين المحاور المختلفة اختلافًا واسعًا، والتي يتحدث حولها الناس

8- الاعتباطية Arbitrariness :

ليست هناك علاقة داخلية أصلية بين شكل وحدة من اللغة ذات معنى (الكلمة مثلاً) وبين المفهوم الذي تحمله هذه الوحدة. الحيوان المتأنس الذي يسمح يسمى في العربية "كلبًا"، ولكنه يسمى في الانجليزية 'dog' ، وفي الألمانية 'Hund' ، وفي الفرنسية 'chien' ، وفي الإسبانية 'perro'، إلخ. وتشير هذه الأسماء جميعًا إلى حيوان واحد، بالرغم من أن نباح الكلب (bowwou) يُسمع – بأنحاء مختلفة – عند مختلف الناس: فهو 'wanwan' عند اليابانيين، و 'haf-haf' عند التشيك، و 'wauwau' عند الألمان ... وهكذا !

9- التمايز الفردي Discreteness:

وذلك أن الرسائل في اللغات الإنسانية، لا تتكون من أصوات متصلة متداخلة (كالنغير)، ولكنها جعلت في حصافة وتمايز فرديّ، من حيث إنها شرائح متمايزٌ بعضها من بعض تمايزًا فرديًا؛ فالفرق بين الجملتين الاستفهاميتين:

– هل معك قطعة من اللحم؟ – هل معك قطعة من الفحم؟

يقتضي صوتين متمايزين في موضع بعينه من الجملتين، أحدهما يُكتب وينطق (ل) والآخر (ف). وعلى العكس من ذلك، فإن لغة الرقص عند النحل ملتبسة متداخلة؛ لأنها لا تستعمل مثل تلك العناصر المتمايزة.

10- الإزاحة Displacement:

وذلك أن الناس يستطيعون أن يتكلموا (أو يكتبوا) عن شيء ما بعيد في زمانه ومكانه عن الوضع الذي يحدث فيه الاتصال. يستطيع المرء – مثلاً – أن يصف في جلاء وحماس وشيء من التفصيل – الحملة العسكرية التي شنّها الجنرال القرطاجي هانيبال على الرومان القدماء، بالرغم من أن تلك الحرب قد وقعت منذ أكثر من ألفي عام في قارة أخرى. ويستطيع الناس أيضًا الحديث عما يخططون له في حياتهم، بعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإحالة إلى التقاعد، بنحو عشرين سنة قادمة أو ثلاثين. والإزاحة من هذا النوع، لا توجد فى مملكة الحيوان.

11- الانفتاحية (أو الإنتاجية) Openness (or Productivity) :

وذلك أن الناس قادرون على عمل تقريرات وإخباريات كاملة جديدة، يفهمها عنهم سامعوهم. وإذا كنا لا نلحظ مثل ذلك كثيرًا فى حياتنا اليومية، فليس عسيرًا أن نفكر فى جملة روائية (نحو: تتجادل قطتانا فى منامع الأنثروبولوجيا اللغوية، كلما تركتا فى البيت وحيدتين!). ويستعمل المجيدون اللغة – على نحو ابتكارى – استعمالا قياسيًا تمامًا.

12- ثنائية النمط Duality of (Patterning):

وذلك أن أصغر الوحدات الدالة من اللغة؛ كالوحدات فى العبارة: است – شرى الـ – فساد، التى تصنع من أصوات مميزة للغة، تدخل فى عديد من الكلمات التى لا تقبل أن تنقسم إلى أجزاء أصغر، نحو: سقف، رأى، فرق ... إلخ. ويعنى هذا أن عددًا محددًا من الوحدات اللغوية من نوع بعينه، يمكنه أن يصنع عددًا واسعًا من الوحدات على مستوى آخر، كأنها الذرّات تمامًا؛ فالذرات تتكون من عناصر ثمانين تقريبًا، لكنها تصنع جزيئات من ملايين المكونات الأخرى.

13- البثّ الثقافى (أو نقل التقاليد المرعيّة) Cultural (or traditional) transmission :

وذلك أن المرء لا يرث لغة بذاتها إرثا تكوينيا genetically ؛ فالأطفال يتعلمون اللغة من الوالدين أو من الآخرين الذين يتحدثون إليهم أو معهم. والتكلم بلغة بعينها، هو – من أجل ذلك – جزء من السلوك الثقافى الشامل عند الإنسان؛ فالسلوك يُكتسب من خلال التعلم.

14- المراوغة Prevarication:

وذلك أن ما يمكن أن يقوله المرء، قد يبدو خطأ تمامًا (كأن يؤكد أحدهم أن القمر من جبن الخضر!). وقد يتصنع هذا الحيوان المتماوت (حيوان يشبه السنجاب) الموت، إذا أُخذ – على الأرض – على غرة. ويمكن للعصفور أن يتظاهر بانكسار جناحه؛ حتى

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

يقود الحيوانات المفترسة بعيدًا عن عشه. بوجه عام، فإن محاولات التظاهر أو التمويه أو المراوغة، ليست – على كل حال – عامة بين الحيوان.

15- الانعكاسية Reflexiveness :

وذلك أن الناس يستعملون اللغة – أو يمكنهم ذلك – لمناقشة اللغة أو الاتصال بوجه عام، على نحو ما يفعل المرء في الفصل أو في مقهى فاخر. أما الحيوان غير الإنساني، فإنه لا يظهر قدرة على نقل المعلومة عن نظمه الاتصالية الخاصة أو النظم الاتصالية الأخرى.

16- إمكانية التعلم Learnability :

وذلك أن المتكلمين بأية لغة، يمكنهم تعلم لغة ثانية أو لغات متعددة، بالإضافة إلى لغتهم الأم. ومن السلوك الاتصالي بين الحيوان غير الإنساني ما يكون نتيجة تعلم أيضًا، إما بالتجربة أو عن طريق الإنسان. على أية حال، فلا توجد حيوانات أخرى تقدر على تعلم نظام اتصالي أو نظم اتصالية متعددة معقدة كاللغة.

تمتلك اللغات الإنسانية تلك الملامح المميزة جميعًا، بينما لا تعرف نظم الاتصال عند الحيوانات الأخرى إلا بعضًا منها فحسب. وتتطلب تلك الملامح استخدام الأطر الخمسة التي تختص بملامح الوضع الاجتماعي social setting ، وبالسوابق السلوكية، ونتائج الأحداث الاتصالية، وبالقناة أو القنوات المستخدمة، واستمرارية النظم الاتصالية أو تغيرها، وببنية الرسائل وسجلاتها repertories في نظم معنية[21].

(جـ) أشكال الاتصال اللفظي :

يمكننا التمييز بين شكلين رئيسين للاتصال اللفظي: أحدهما الاتصال اللفظي المنطوق، والآخر الاتصال اللفظي المكتوب. ويبني هذا التقسيم على أساس انقسام اللغة ذاتها إلى لغة منطوقة spoken language ولغة مكتوبة written language.

---

(21) انظر:

Salzman. pp.21-24

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باعتبار الرموز الصوتية، والقناة بصرية إذا نظرنا إلى اللغة مكتوبة، باعتبار الرموز الكتابية. وما دمنا نتكلم أكثر مما نكتب، فإن الاتصال اللفظي المنطوق – في الحياة اليومية – أعمّ وأهمّ من الاتصال اللفظي المكتوب، وهو – بذلك – أعمّ أنواع الاتصال وأهمها على الإطلاق. يقول سالزمان : "اللغة المنطوقة – الكلام – هي أعمّ الوسائل التي يتصل بها البشر أحدهم بالآخر، وأهمها. ولكن هذه اللغة ليست الوسيلة الوحيدة. إن أنظمة الكتابة المتعددة المختلفة المستعملة في العالم، ذات أهمية عظيمة في الاتصال. وهي – لاعتبارات مختلفة – تمتاز على اللغة المنطوقة ببقائها النسبي خاصة"[22].

ويمكننا أن نضيف إلى الميزة السابقة، ميزات أخرى تتمتع بها اللغة المكتوبة؛ كالإعداد، والتصويب، وإعادة النظر. تقول براون Brown ويول Yule : "يستطيع الكاتب أن ينظر فيما كتب، كما يستطيع أن يتوقف بين كلمة وأخرى، دون أن يخشى مقاطعة محاوره. ويأخذ الكاتب حقه في اختيار كلمة بعينها، وربما استعان بالمعجم إذا اقتضى الأمر. ويمكنه أيضًا أن يفحص ما وصل إليه في ضوء ملحوظاته، ويعيد تنظيم ما كتب، بل ربما تبدل رأيه فيما يودّ قوله. وبينما قد يحجب المتكلم عن الكلام تحت وطأة ظروف معينة وقت الحديث، فإن الكاتب لا يخضع لضغط مثل هذه الظروف"[23].

ونلاحظ أن كلاً من نوعي الاتصال اللفظي: المنطوق والمكتوب، يخضع لمقتضيات أخرى عامة، تنعكس في بنيته انعكاسًا مباشرا. ويستنبط ذلك من بيان براون / يول؛ فالمتكلم يدرك أن أية كلمات تنطق من شفتيه، سوف يسمعها محاوره؛ ولذلك يأخذ على عاتقه إصلاح كلامه إصلاحًا نشطًا شاملاً. أما الكاتب، فيستطيع أن يشطب ما كتب ويعيد كتابته. ويحظى المتكلم بمزايا أخرى: فهو يستطيع أن يلاحظ

(22) Salzman, pp.

(23) Brown, Gillian and Yule, George: Discourse Analysis, Cambridge Uni. Press (1984). p. 5.(3).

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

محاوره، وأن يكيّف كلامه – إن أراد – ليجعله في متناول سامعه وأكثر قبولاً عنده. أما الكاتب، فليس له من سبيل إلى الاسترجاع المباشر، وليس له إلا تخيل رد فعل القارئ. وبينما يحظى المتكلم – في التفاعل المنطوق – بميزة القدرة على التحكم في رد فعل سامعه على كلامه دقيقة بدقيقة، فإنه يعاني أيضًا من مشكلة الإفصاح عن مشاعره، وينبغي له أن يتحدث إلى محاوره في وضوح ودقة، وأن يضع استجابته المباشرة وفقًا لطريقة محاوره في التعبير عن رد فعله[24].

من ناحية أخرى، تتمتع اللغة المنطوقة – والاتصال اللفظي المنطوق بالتبعية – بميزات عدة، ترتبط بكيفيات أداء العلامات اللغوية المستخدمة، وهي كيفيات لا قيم لها في الاتصال اللفظي المكتوب. ويشار إلى هذا في مباحث الخصائص المميزة للاتصال الصوتي vocal communication ، والتي تعد هامشية marginal أو اختيارية optional. ويطلق على تلك الخصائص اسم الخصائص الخارجة عن نطاق اللغةparalinguistic features . وهي تحتوى على نغمة الصوت، وسرعة الكلام، والنبرات الملحوظة في مقام الصوت، وسرعة الأداء، والإيقاع، وتحقيق النطق بالصوت، وشدته. وترتبط تلك الخصائص المختلفة، باختلاف الوظائف في الأحداث الاتصالية. ويمكننا أن نتبيّن ذلك فيما يقدمه سالزمان من أمثلة: فالتحقيق أو التلفظ عالي الضبط ينتج الإنعاش. ونتوقع مع التلفظ المحكم أو المدقق تلفظات شكلية موجهة إلى جماعات واسعة من المستمعين. وعلى النقيض من هذا، فإن الكلام المنطوق في هدوء إلى حد الخفاء، يُسمع من أولئك المتقين جدًا. ويميل المتكلمون إلى ربط التنوع الأقصى في مقام الصوت بالسعادة والدهشة. كما يربطون المستوى العالي من مقام الصوت أو الأداء السريع، يربطونها بالخوف أو المباغتة أو الغيظ. كذلك، فإنهم يربطون مستوى مقام الصوت المنخفض والأداء البطئ بالضجر والكدر. وتكسب

(24) Brown / Yule, op. cit, p. 5

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استدارة الشفتين لنغمة الصوت نوع المناغاة التى يستخدمها الكبار فى حديثهم إلى رضيع[25].

تعد الملامح الخارجة عن نطاق اللغة إذن، تنويعات إضافية، يشير بها المتكلم إلى أهمية ما يقوله. وما يمكن أن يضاف إلى اللغة المكتوبة من علامات، على نحو ما نجد فى الحوار الدرامى بتوجيهاته المسرحية stage directions، مثل (فى غضب) أو (فى تلطف جم) ونحوها، لا يعد – بعامة – سمة للغة المكتوبة[26].

إن مثل هذه التوجيهات المسرحية، إنما تعنى الرغبة فى حكاية الشفرة المنطوقة، من حيث توظيفها – فى الحدث الاتصالى – مؤثرات صوتية وأدائية نوعية، تصحبها – فى حالات كثيرة – أوضاع جسمية متعددة وتعبيرات سلوكية حركية مختلفة. وربما طغت هذه الأوضاع والتعبيرات على العلامات اللفظية ذاتها، فى إنتاج الاتصال اللفظى المنطوق. ويمكن أن يعد ذلك درجة من تخفيف قناة سمعية وتدعيم قناة بصرية، أو هو نوع اتكاء من قناة سمعية على قناة بصرية بدرجة أشد.

وقد عنى هايمس Hymes – أحد مؤسسى الأنثروبولوجيا اللغوية – بما يسمى بالمفتاح، وجعله من مكونات الاتصال. ويشير المفتاح إلى النغمة tone أو الطريقة manner أو النفس spirit الذى يؤدى به أحد الأحداث الاتصالية. ويلاحظ هايمس أن هذه الأحداث تتنوع فى المفتاح؛ كأن تكون هازئة أو جادة، منطوقة فى عدم اكتراث أو فى كد واجتهاد[27]. ويلفت هايمس النظر إلى أن الأحداث المتطابقة فى الوضع، والمشاركين، والرسالة، والصيغة... إلخ، يمكن أن تختلف فى المفتاح أيضًا على نحو ما نجد بين الأداء الساخر والأداء الجاد، أو بين الأداء غير المبالى والأداء فى

(25) Salzman, p. 214.

(26) Halliday, Spoken and Written Language, ibid, p. 31

(27) Hymes, Dell, H: Models of the interaction of Language and Social life, in: John J. Gumperz and Dell Hymes (eds).: Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, Basil Blackwell, New York (1989). pp. 35 – 71, p. 62.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اهتمام. ويؤكد هايمس أهمية المفتاح؛ فالمفتاح عندما يقع في صراع مع المحتوى الصريح لحدث معين، فإنه يبطله غالبًا. وبناء على ذلك، فإذا نطقنا بالعبارة (كم هو مذهل!) – في نغمة استهزائية – فإنها سوف تعني الضد تمامًا. وقد يقع التأثير على المفتاح عن طريق وحدات كلامية عرضية؛ نحو نطق الصوت من الصدر والحلق aspiration ، أو مَطْل الحركة الذي يستخدم في الإنجليزية علامةً على التوكيد[28].

ويشير سالزمان – متأثرًا فيما يبدو لنا بكلام هايمس السابق عن المفتاح – إلى أن المفتاح قد يبطل مكونًا ما من مكونات الاتصال؛ وذلك عندما يصبح المتكلم – الذي يفترض أنه يثني على شخص بعينه – يصبح على مهل وفي ازدياد – هازئًا، بحيث يجرح مشاعر هذا الشخص الذي يتحدث عنه ويجعله أضحوكة. وربما استخدم مفتاح – بين جماعة بعينها – حتى بدا فاقدًا كثيرًا من تأثيره. وربما استخدم مفتاح آخر – في ندرة – فاستلزم شيئًا من الجهد، عند جانب من المستمعين؛ لإدراكه وفهم معناه الاجتماعي[29].

بالإضافة إلى المحددات النوعية السابقة، التي تكسب الصوت اللغوي الصفة التي تؤهله لأداء وظيفته الاتصالية المناسبة، فإن هناك علامات صوتية أخرى تتخلل كلامنا. وتنتظم هذه العلامات الصوتية أنماطًا مختلفة؛ كالضحك، والصياح، والهمس، والصراخ، والتأوه، والنحيب. ولتلك العلامات – في تخللها كلامنا – دلالات مختلفة. ويمكن أن تعد مؤشرات على درجة التفاعل مع الحدث الاتصالي.

من ناحية أخرى، يمكننا أن ندخل في سمات الاتصال اللفظي المنطوق ما يدعى المقطعات الصوتية vocal segregates . وتبدو هذه المقطعات في الجانب الأعظم من الأصوات غير اللغوية، على نحو ما نجد في الإنجليزية مثلا: هناك uh – uh التي تعني الموافقة والرضا و ah التي تدل على نوع من الانفعالات من الابتهاج حتى

---

(28) المرجع السابق ص 62.

(29) Salzman, p. 200.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأسف، و tut – tut أو tsk – tsk التى تعبر عن استهجان رقيق. وتختلف هذه المؤثرات الصوتية الاختيارية فى معانيها من لغة إلى أخرى: فنغمة الصوت الخافتة أو الخشنة، التى ترتبط فى بعض اللغات بانفعال حاد، نجدها فى لغات أخرى كاليابانية (وتشترك معها العربية) تنقل احترامًا أو سلوكًا إذعانيًا[30].

فضلاً عما سبق، فإن الاتصال اللفظى المنطوق، يستعين ببعض العلامات التى ترتبط بكيفيات تجزئة المعلومة. وكان تشيف Chafe ينظر إلى الوقفة الطويلة مثلاً، على أنها إشارة إلى تجزئة المعلومات فى الكلام المنطوق، تشبه تجزئة الكلام المكتوب إلى فقرات[31].

وتتفرع أشكال الاتصال اللفظى إلى فروع عدة؛ ففى الاتصال اللفظى المنطوق هناك مثلاً: الحوار الذاتى، والمحادثة. وفى الاتصال اللفظى المكتوب نجد: قائمة المراجع، والمقال الإخبارى الصحفى. وهناك وسائط أخرى تجمع بين الكلام والكتابة؛ ومثال ذلك: ما كُتب ليُنطق به (نحو نشرة الأخبار)، وما كُتب محاكيًا المنطوق به (نحو الحوار فى الرواية)، والنطق بما هو مكتوب (نحو قراءة قصة على طفل)، والتكلم بما هو مكتوب ليكون منطوقًا به كأنه غير مكتوب (نحو المسرحية) .

(2) تصنيفات الوظائف ومخططات الاتصال :

اللغة نظام من العلامات التى تعبر عن الأفكار. وتعبيرية العلامة هى – فى يسر – قيمتها الدلالية المعقودة بها فى مواضعة الجماعة الكلامية واستعمالها. ويعنى هذا أن هناك علاقة حتمية دائمة بين وظيفة العلامة وقيمتها التعبيرية والمضمونية. وإذا لم

---

(30) انظر فى تفصيل ذلك :

Salzman, p. 215.

(31) Chafe, W.L. : The Flow of Thought and the Flow of Language, in : T. Givon (ed.): Syntax and Semantics. Vol. 12: Discourse and Syntax. Academic Press, New York (1979) p. 176

(32) راجع فى ذلك :

Morley, G., D.: An Introduction to Systemic Grammar, Macmillan, London (1985) p.5

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوجد التعبير والمضمون في آن معًا، فلا تعرف العلامة أية وظيفة. كذلك، فإنه لا يمكن – كما يقول بركله Brekle– أن يوجد تعبيرٌ مضمونٍ ما، أو مضمونٌ تعبيرٍ ما، دون قيام وظيفة علامية بينهما Zeichenfunktion: ليس هناك من تعبير إلا أن يكون تعبيرًا عن مضمون بعينه، وليس هناك مضمون إلا أن يكون مضمونَ تعبيرٍ بذاته[33].

ومن البديهي أن العلامة لا تتم عن وظيفة لها إلا إذا استحالت إلى حدث لفظي؛ فالتفكير الصامت فارغ من مضمون لغوي. وبالمثل، فإن حدثًا لفظيًا خاليًا من تفكير، ليس إلا سلسلة صوتية أو سمعية خالية من أية قيمة توصيلية بالمعنى المألوف. إننا إذا فكرنا دون أن نتكلم، فلن تكون لأفكارنا – إذ ذاك – أية مضامين لغوية، ومن ثم لن تكون لها أية قيمة محددة بالنظر إلى وظيفة العلامة. وإذا ما تكلمنا دون أن نفكر؛ أي إذا أصدرنا سلسلة صوتية بعينها على نحو ما، لا يمكن معه توصيل مضمون بذاته إلى المستمع، فإن تلك السلسلة تعد – في هذه الحال – نوعًا من التعويذة abracadabra، وليست تعبيرًا لغويًا. من ثم، لن تحمل أية قيمة بالنسبة إلى وظيفة العلامة[34].

(33) Breckle, Hebert, T. Semantik; Eine Einguehrung in die sprachwissenschaftliche Bedeutungslehre, 2., verbesserte Auflage. Wilhelm Fink Verlag – Muenchen (1972).

(34) المرجع السابق ص 67.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويبين الجدول التالي (الجدول رقم 1) العلاقة بين الجوهر والشكل على مستوى المضمون من ناحية، وعلى مستوى التعبير من ناحية أخرى:

	التعبير	المضمون
الشكل	العلاقات الاستبدالية والتركيبية بين الفونيمات والرسم الإملائي (وكذلك العلاقات الثانوية بين الوحدات الصرفية والوحدات التركيبية النحوية).	العلاقات الاستبدالية والتركيبية بين مضامين الألفاظ (وكذلك العلاقات الثانوية بين أبنية المضمون العليا، مثل: الجملة).
الجوهر	الجوهر الصرفي والرسمي (المثيرات السمعية والبصرية الملحوظة).	جوهر الأفكار (جملة العلاقات والسمات المميزة للمفاهيم).

الجدول رقم (1)[35]

إن اللغة في جوهرها عملية اتصالية. ومنذ فترة طويلة، وجه علم اللغة اهتمامه إلى الجانبين: التاريخي والوصفي، ولكنه – فيما نلاحظ – لم يكد يعنى إلا بالأنظمة والعناصر اللغوية، في حقيقتها اللغوية الداخلية غير الاتصالية. وقد نتج عن ذلك، أن ظلت ظروف الاستخدام اللغوي وحالاته الموقفية الاجتماعية منزوية – في البحث اللغوي – بعناية ضئيلة.

وإذا كانت الإسهامات الكبرى في نظرية الاتصال، ترجع إلى السيبرنيات، فإن هناك تصنيفات ومخططات مبكرة لميادين الاتصال المتباينة، كانت قد أنجزت – كما أشرنا – من قبل. ويمكننا أن نعرض أهم تلك التصنيفات والمخططات – على نحو تاريخي – فيما يلي:

---

(35) المرجع السابق ص 67.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

(أ) تصنيف مالينوفسكى Malinowski (1923) :

لم يكن مالينوفسكى لغويًا فى حقيقة الأمر. إنه لم يكن – فى الأصل – معنيًا بتفسير اللغة، ولكنه قدم بعض الأشياء المميزة جدًا عن القول فى اللغة. كان مالينوفسكى من علماء الإثنوجرافيا ethnography، أى أنه كان معنيًا بشرح الثقافة ولكنه – فى مجرى عمله – صار مهتمًا اهتمامًا عميقًا باللغة، من حيث إنها موضوع دراسة فى حد ذاتها.

وضع مالينوفسكى تصنيفًا للوظائف اللغوية مرتبطًا بعمله عن الموقف والمعنى (1923). وقد جعل وظائف اللغة – فى هذا التصنيف – فى مقولتين اثنين واسعتين، هما: الوظيفة التداولية Pragmatic function، والوظيفة السحرية magical function. ولما كان مالينوفسكى انثروبولوجيا، فقد عنى بالاستعمالات العملية او التداولية للغة من ناحية (وهى التى فرّعها – بعد ذلك – إلى الاستعمالات الفاعلة active والاستعمالات السردية narrative). ومن ناحية أخرى، عنى بما للغة من استعمالات طقوسية ritual او سحرية magical uses. وهى تلك الاستعمالات التى ترتبط بالنشاطات الاحتفالية الرسمية ceremonial activities أو الدينية فى ثقافة بعينها[36].

(ب) تصنيف بولر Buehler (1934) :

قدم عالم النفس النمساوى كارل بولر (1934) تصنيفًا آخر مختلفًا. كان بولر مهتمًا بوظائف اللغة من وجهة النظر الفردية لا الثقافية[37]. وقد جعل للعلامة اللغوية وظائف كبرى ثلاث هى: وظيفة التعبير Ausdruck، والوظيفة النزوعية Appell، ووظيفة العرض Darstellung: فالمرسل يقوم بوظيفة التعبير، وتقع النزوعية على

---

(36) Halliday, M.A.,K.: and Hasan, Ruqaiya: Language, Context and Text, Aspects of Language in a Social – Semoitic perspective, Oxford Uni. Press (1990) p. 15.

(37) المرجع السابق ص 15

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

المستقبل، ويحصل من هذا مبادلة بين المرسل والمستقبل. وفى أثناء ذلك، تعرض العلامة اللغوية – على نحو رمزى – الأشياء والأوضاع[38].

ولما كانت الوظيفة الأولى تتجه إلى الذات؛ أى إلى المتكلم، والثانية إلى المخاطب، والثالثة إلى أى شئ آخر سواهما، فقد لفت هاليداى النظر إلى أن بولر كان مطبقًا لإطار تصورى موروث عن بلاتو؛ أى التمييز بين المتكلم والمخاطب والغائب. وهذا بدوره مستمد من النحو (كان مصدره النحو البلاغى الذى عرف قبل بلاتو) إنه يعتمد على كون النظم اللفظية فى لغات أوربية عدة (بما فى ذلك الإغريقية القديمة)، مصنفة وفقًا لمقولة الشخص المتضمنة الشخص الأول (أى المتكلم)، والثانى (أى المخاطب)، والثالث (أى أى شئ سواهما). بناء على ذلك، عرف بولر ثلاث وظائف فقط للغة، وفقًا لتوجهها إلى شخص أو آخر من تلك الأشخاص الثلاثة[39].

(جـ) تصنيف شانون Shannon/ وبفر Weaver (1946):

وضع الأمريكيان شانون وويفر نموذجًا مؤسسًا على النظرية الإعلامية ومكونًا من: المرسل، والخبر، والشفرة، والقناة، والمستقبل. ويسحب هذا النموذج على المعالجة التوضيحية لتوصيل النصوص أيضًا:

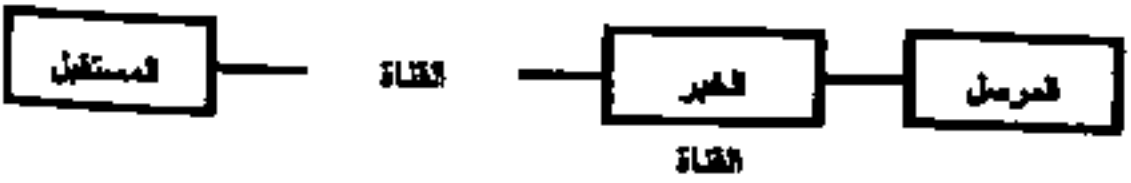

وقد راق لسوونسكى أن يربط هذا النموذج بالاتصال النصى؛ فمع حدث الاتصال – حيثما يكون نقل الأخبار فى هيئة نصية – يؤدى المؤلف دور المرسل ويوضع النص ذاته فى شفرة؛ أى فى صيغة لغوية، يطمئن إليها المرسل والمستقبل وتناسب النقل عبر قناة (سمعية أو بصرية) مختارة. وقد تستلزم خصوصيات المقصد

---

(38) Sowinski, S. 65.
(39) Halliday / Hasan, o. cit., pp. 15 – 16

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Intention والموقف Situation تغيرات فى مكونات الشفرة Code والصيغة النصية Textform[40].

(د) تصنيف ياكوبسون Jakobson (1960) :

يبدأ رومان ياكوبسون (1960) تصنيفه الوظائف اللغوية، بتحديد العوامل التى تشكل حدث الاتصال اللفظى : ففى أى حدث للاتصال اللفظى، يبث المرسل addresser رسالة message إلى المرسل إليه addressee. وتحتاج هذه الرسالة – من أجل أن تصبح فعالة – إلى سياق تشير إليه Context. ويقبل هذا السياق أن يضع المرسل إليه عليه يده. وهو إما سياق لفظى، أو مهيأ لأن يكون لفظيًا verbalized. وتحتاج الرسالة إلى الشفرة المشتركة كليًا – أو جزئيًا على الأقل – بين المرسل والمرسل إليه (أو بعبارة اخرى: تحتاج إلى مشفّر الرسالة وفاكّ شفرتها encoder and decoder of the message). وهى تحتاج أخيرًا إلى الاتصال؛ أى إلى القناة الفيزيائية والارتباط النفسى بين المرسل والمرسل إليه. وهذان الأمران يجعلان المرسل والمرسل إليه قادرين على الدخول فى الاتصال.

ويبين ياكوبسون تلك العوامل التى يضمها الاتصال اللفظى جميعًا، على النحو التالى (الشكل رقم 2) :

الشكل رقم (2)

ويلاحظ أن كل عامل من هذه العوامل الستة يكون وظيفة لغوية بعينها. ويشير ياكوبسون إلى أنه بالرغم من التمييز بين مظاهر رئيسة ستة للغة، فربما أمكننا العثور

(40) Sowinski, S. 65

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على رسائل لفظية، لا تحقق إلا وظيفة واحدة فقط؛ فالتعددية لا تكمن في احتكار وظيفة ما من تلك الوظائف المتعددة، إنما تكمن في نظام الترتيب الهرمي المتباين للوظائف. إن البنية اللفظية لرسالة بعينها، تعتمد اعتمادًا أساسيًا على الوظيفة السائدة[41].

ويتضح لنا أن مخطط ياكوبسون ليس إلا توسيعًا لمخطط بولر. بيد أن ياكوبسون قد استطاع أن يضيف إلى تلك الوظائف الثلاث التي حددها بولر ثلاث وظائف أخرى جديدة، هي: الوظيفة الشعرية poetic function، التي تتجه إلى الرسالة ذاتها، والوظيفة التعاملية transactional function التي تتجه إلى القناة المستخدمة، ووظيفة ما وراء اللغة meta linguistic function التي تتجه إلى الشفرة المختارة[42].

(هـ) تصنيف موريس Morris (1967) :

أقدم ديسموند موريس Desmond Morris (1967) – في دراسة له عن الأجناس البشرية من وجهة النظر إلى سلوكية الحيوان – أقدم على تصنيف آخر لوظائف اللغة، فيما أسماه بـ "الحديث الإعلامي information talking" و "الحديث المزاجي mood talking"، و"الحديث الراوي (الثرثرة) grooming talking":

أما الأول، فهو تبادل المعلومات تبادلاً مشتركًا. وكأن موريس يرمي إلى إظهار هذا النوع أولاً، بالرغم من أن تاريخ حياة الإنسان والطفل – كما يقول هاليداي – يبين أنه يأتي في آخر ما حدده من أنواع[43].

---

(41) Jakobson, Roman: Linguistics and Poetics, in: Marcel Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing Semiotics, ibid, pp. 47 – 72, pp. 49 – 50.

(42) المرجع السابق ص 50 وما بعدها.

وانظر عرضًا لتلك الوظائف في :

بيار غيرو : السيمياء، ترجمة أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات، بيروت (باريس 1984) ص 9 وما بعدها.

(43) Halliday / Hasan, Language, Context and Text, ibid, p.16.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأما الثانى، فيشبه الوظيفة التعبيرية عند بولر، وبالتالى عند ياكوبسون.

وقد عرّف النوع الثالث بأنه حديث من أجل الحديث؛ كأن له وظيفة جمالية ووظيفة التلاعب.

كذلك، فقد عرّف النوع الأخير بأنه الثرثرة المهذّبة التى لا معنى لها فى مناسبات اجتماعية. وهذا ما أشار إليه مالينوفسكى (1934) فى حديثه عن المخالطة الاجتماعية phatic communion؛ أى الاشتراك فى المعنى أثناء الحديث، على نحو ما نجد فى استعمال الناس تعبيرات مثل: "يوم جميل، أليس كذلك؟"؛ فمثل هذه التعبيرات، تعد – بعبارة هاليداى – طريقة لتزييت التفاعل الاجتماعى![44]

(و) تصنيف بريتون Britton (1970) :

قام رجل التعليم الإنجليزى جيمس بريتون James Britton (1970) بتعديل نموذج بولر وتطويره فى اتجاه مختلف. اقترح بريتون إطارًا للوظائف اللغوية التعاملية والتعبيرية والشعرية. وكان مهتمًا بتطوير القدرات الكتابية عند تلاميذ المدارس. واخذ بوجهة النظر التى ترى أن الكتابة تطوّر أولاً عن طريق سياق تعبيرى، ومن ثمّ توسّع المقدرة خارج الكتابة التعاملية من ناحية، والكتابة الشعرية من ناحية أخرى. واللغة التعاملية هى التى تؤكد دور المشارك، بينما يبدو دور الكاتب فى اللغة الشعرية أكبر من دور المشاهد .

ومن اليسير أن نلحظ – فى التصنيفات السابقة جميعًا – مشابهات واضحة، وإن كانت قد استخدمت اصطلاحات متباينة. وقد اجتهد هاليداى فى وضع جدول جامع لتلك المشابهات (انظر الجدول رقم 2). ويبيّن هذا الجدول تطابقا رأسيًا، فكل بند يطابق – كثيرًا أو قليلاً – ما هو أعلاه أو أسفل منه. وهذه التصنيفات جميعًا تظهر أن اللغة تستخدم فى الكلام عن الأشياء (الإعلامية، أو السردية، او العرضية). إنها جميعًا

---

(44) المرجع السابق ص 16

(45) المرجع نفسه ص 16

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تبين أن اللغة تستخدم من اجل أغراضك وأغراضك، معبّرة عن الذات ومؤثرة في الآخرين (المزاجية أو التعبيرية أو النزوعية أو الفاعلية). فضلاً عن ذلك، فإن هناك ملمح ثالث بارز للغة، هو الوظيفة التخيلية imaginative function أو الجمالية aesthetic .

مالينوفسكي (1923م)	سحرية		تداولية		
			فاعلة		سردية
بولر (1934م)		تعبيرية {المتكلم}	نزوعية {المخاطب}		عرضية {الغائب}
بريتون (1967م)	شعرية	تعبيرية	تعاملية		
			نزوعية		إعلامية
موريس (1967م)	الكلام المستكشف	الكلام المزاجي	الكلام الراوي أو الشرّة		الكلام الإعلامي
	الاستعمالات التخيلية	الاستعمالات التفاعلية (التوجه إلى التأثير)			الاستعمالات الإعلامية (التوجه إلى المحتوى)
	الشعرية	العلقوسية	التعبير عن الذات	التدعيم المتبادل	ضبط الآخر

الجدول رقم (2)

(46) المرجع نفسه ص 16

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ز) تصنيف ليتش Leech (1976) :

يجتهد جيفرى ليتش Geoffrey Leech (1976) – على رغم درايته بالمحاولات السابقة – فى النظر إلى الوظائف الاتصالية للغة. يبين ليتش – إلى جانب الوظيفة الإعلامية المحايدة neutral informational function التى يميل كل إنسان إلى جعلها الوظيفة الأهم – أن هناك وظائف أخرى، كالوظيفة التعبيرية expressive function، وهى التى تستخدم فى التعبير عن المشاعر الإبداعية وعن السلوكيات والتصرفات (ومن أمثلتها: مفردات القسم والتعجب). ويلاحظ ليتش أن المعنى التصورى Conceptual meaning هو المهيمن على استعمال اللغة استعمالاً إعلاميًا، ولكن المعنى التأثيرى affective meaning هو – بوضوح – الأهم فى الوظيفة التعبيرية. ويقصد بالمعنى التأثيرى ما توصله اللغة من تصرفات وسلوكيات تخص المؤلف.

أما الوظيفة الثالثة للغة عنده، فهى الوظيفة التوجيهية directive، التى نهدف بها إلى التأثير فى سلوك الآخرين أو تصرفاتهم (وأقوم حالاتها: الطلب، والالتماس). وتؤكد هذه الوظيفة – التى تتغيّا ضبطًا اجتماعيًا – تؤكد انتهاء المستقبل أعظم من توكيدها النهاية المبدعة التى تقدمها الرسالة. ويبدو أن الوظيفة التعبيرية أقل أهمية – بوجه عام – مع المعنى التصورى، مما يكون لها مع أنماط المعنى الأخرى، لاسيما المعنى التأثيرى affective والمعنى التضمنى connotative.

ويغلب أن تضم الوظيفة التعبيرية استعمال اللغة استعمالاً شعريًا. ولكن تظل وجهة النظر هذه غير مقبولة عند ليتش، بالرغم من أن الشائع هو النظر إلى الشعر على أنه تدفق لانفعالات الشاعر. ويفضل ليتش أن يتعرّف فى الشعر على وظيفة مستقلة؛ هى الوظيفة الجمالية aesthetic، التى يحددها بأنها استعمال اللغة قصدًا إلى الصناعة اللغوية linguistic artefact ذاتها، لا قصدًا إلى شئ آخر.

ويمكن للوظيفة الجمالية أن ترتبط – على الأقل – بالمعنى التصورى، كما هى مرتبطة بالمعنى التأثيرى. ولكن غرض الشعر الدلالى الرئيس، هو أنه لغة موصلة

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

بطاقتها كاملة: فكل طرق التوصيل الممكنة، وكل مستويات المعنى وأنماطه، تستعمل هنا استعمالاً مفتوحًا. ويحمل كل من الشاعر والقارئ إحساسًا متزايدًا، من أجل إنتاج حدث الاتصال.

وبالرغم من كثرة الحديث عن وظيفة اللغة الاجتماعية، فقلّما أُعطيت – في تصنيفات الوظائف – عناية جادة. وقد حاول ليتش ذلك، وأبرزها في تصنيفه. ويقصد بالوظيفة الاجتماعية phatic: وظيفة الإبقاء على فتح خطوط الاتصال، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية حتى لا تحتاج إلى إصلاح (والمثال المشهور على هذه الوظيفة هو الحديث عن الطقس)[47].

الوظيفة الاجتماعية إذن، هي وظيفة الإبقاء على الترابط داخل المجموعات الاجتماعية[48]. وكان مالينوفسكي – في تصنيفه السابق – قد أشار إلى ما أسماه بـ المخالطة الاجتماعية phatic communion.

ويلاحظ ليتش أن الوظيفة الاجتماعية، هي أبعد الوظائف عن الوظيفة الجمالية، من حيث إن العمل الاتصالي هنا – الذي يؤدّى باللغة – إنما هو من أخف ما يمكن: إن العمل الاتصالي هنا ليس – في جوهره – ما يقوله المرء، بل هو أن يقول المرء على الإطلاق[49]. ومن ملحوظات ليتش الصائبة حقًا أن أشد الوظائف مباشرةً في عرضها أدوار اللغة الاجتماعية، هي: الوظيفة التعبيرية، والتوجيهية، والاجتماعية.

ولا شك أن هناك بعض الصعوبات التي تواجه المرء عند الفصل بين الوظيفة التعبيرية والوظيفة التوجيهية. وربما وُفّرت قطعة من اللغة وظائف عدة في آن معًا. يذكر مثلاً – كما يقول ليتش – أن نجد قطعة من اللغة إعلامية محضة، أو تعبيرية محضة، وهكذا. وبناء على ذلك، فإن قولنا مثلا: أشعر بحاجة إلى فنجان من القهوة، يمكن أن يقرأ في ملابسات مناسبة على أنه إعلامي، أو تعبيري، أو توجيهي.

---

(47) Leech, Geoffrey: Semantics, Penguin Books, Printed in Great Britain (1976) pp. 47 - 48.

(48) المرجع السابق ص 62.

(49) المرجع نفسه ص 62.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحق، أن لهذا التصنيف أهمية خاصة، من حيث إنه يتصل اتصالا محكمًا بملامح جوهرية خمسة في أي موقف اتصالي، وهي:

1- الموضوع Subject – matter.

2- المبتكر Originator (كالمتكلم أو الكاتب).

3- المستقبل Receiver (كالمستمع أو القارئ).

4- قناة الاتصال Channel of Communication.

5- الرسالة اللغوية ذاتها Linguistic Message.

وتطابق كل وظيفة من الوظائف الخمس توجه اللغة إلى عامل من العوامل السابقة:

الوظيفة	توجه اللغة إلى عامل
الإعلامية:	الموضوع
التعبيرية :	المتكلم / الكاتب
التوجيهية :	المستمع / القارئ
الاجتماعية :	قناة الاتصال
الجمالية :	الرسالة

ويعرض ليتش هذه الوظائف موصولة بعواملها (انظر الشكل رقم 2) بما يشير إلى إفادته من بولر وياكوبسون بخاصة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

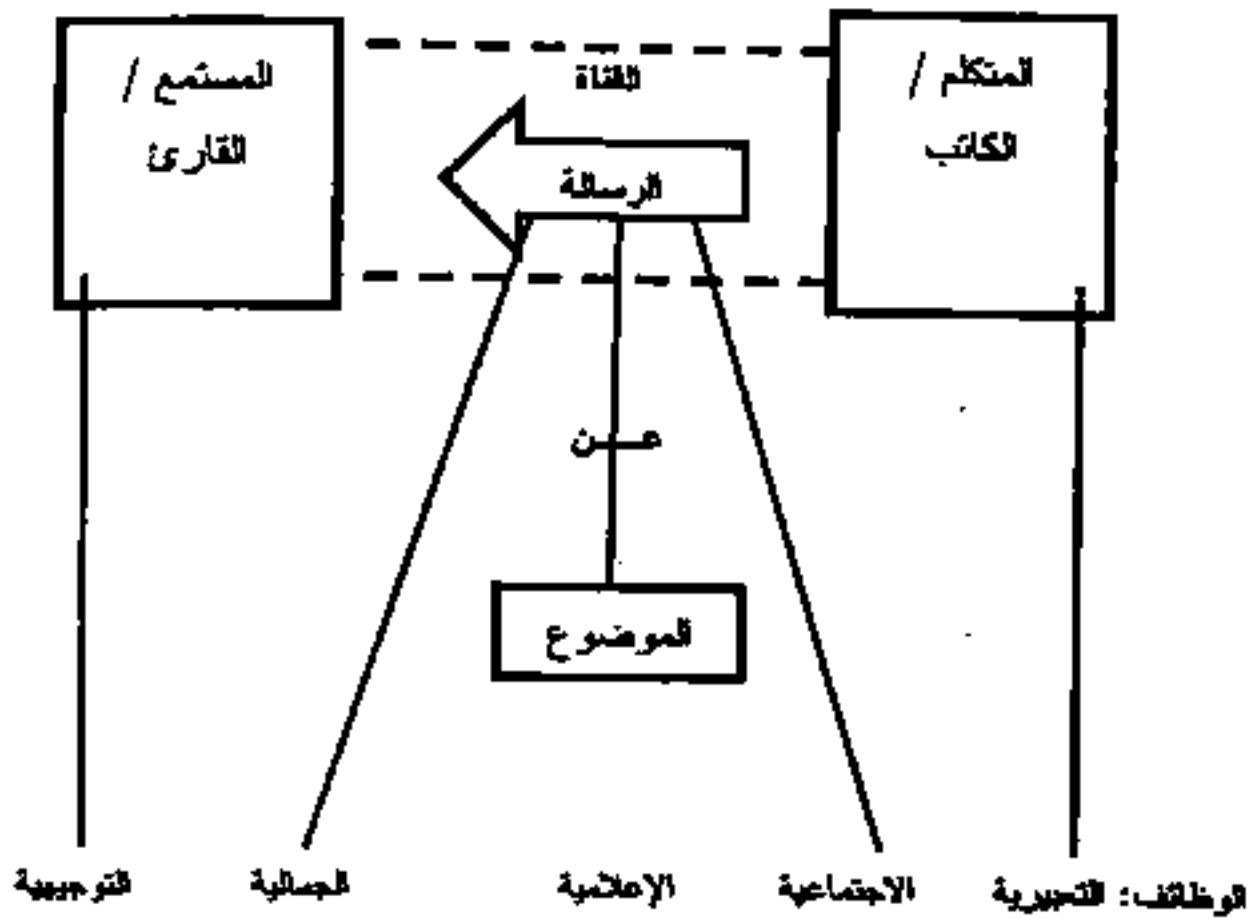

الشكل رقم (2)[50]

(ج) تصنيف هاليداى Halliday (1990) :

جعل هاليداى (1990) الوظيفة مبدأ أساسيًا من مبادئ اللغة. ويرى أن الباحثين السابقين قد بنوا إطارًا تصوريًا بمصطلحات غير لغوية، وأنهم قد نظروا إلى اللغة من الخارج، وجعلوا تلك النظرة مدخلاً لتفسير الطرق المختلفة التى يستعمل بها الناس اللغة. وهو يرى كذلك أن مفهوم الوظيفة عند هؤلاء الباحثين يرادف مفهوم الاستعمال. وقد جدّ هاليداى فى طلب فحوصه الخاصة، فخطا خطوة أبعد، خطوة تفسر التنوع الوظيفى، لا مجرد التنوع فى استعمال اللغة؛ إنه بالأحرى شيءٌ ما ينبنى من الداخل، بما هو الأساس الذى يحقق تنظيم اللغة ذاتها، لا سيما تنظيم النظام الدلالى.

(50) Leech, pp. 48 – 49

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

بعبارة أخرى، لا تفسر الوظيفة عند هاليداى من حيث هى مجرد استعمال اللغة، بل بما هى خاصية جوهرية للغة ذاتها؛ أى بما هى شئ أساسى فى تطور النظام الدلالى. وقد حداه ذلك إلى القول بأن تنظيم أى لغة طبيعية، إنما يتأتى من تفسيرها فى حدود نظرية وظيفية.

لقد سعى هاليداى إلى تبين الأساس الوظيفى للغة من خلال تحليل جملة مفردة. ولا يخلو ذلك من خطورة؛ لأن هناك دائمًا خطر وقوع بعض الملامح العَرَضية (بفتح الراء) incidental features التى تُعد خاصية فى جملة بعينها إذا كانت تلك الملامح ملامح تمثيلية representative للنحو بعامة. وطبيعى أن الملامح التى تعد ظاهرة أو معروضة فى جملة بعينها، يمكن فقط أن تكون عرضية بالنسبة إلى النظام اللغوى على الجملة[51].

إن ضم البعد الوظيفى الدلالى إلى النحو، هو – كما يلاحظ مورلى – ردف الفرضية بأن اللغة نشاط اجتماعى، وأنها تمثل مكانتها من السياق الموقفى، وأنها تشغل عددًا من الوظائف الاجتماعية[52].

والحق أن هذه الفكرة ليست جديدة؛ فقد أشار بولر ومالينوفسكى – كما رأينا من قبل – إلى الثلاث الوظائف المعروفة: الوظيفة التأثيرية، وهى التى تعمل فيها اللغة صيغةً للضبط الاجتماعى؛ والوظيفة التعبيرية، التى تستخدم فيها اللغة للتعبير عن مشاعر المتكلم؛ والوظيفة الفكرية / العرضية ideational / representational التى تصبح معها اللغة وسيلة لنقل الأفكار الاتصالية.

وكان هاليداى قد حدد أربعة مظاهر مختلفة للمعنى. وهذه المظاهر – فى الواقع – هى المكونات الأربعة لعلم الدلالة فى كل لغة من اللغات. وهذه المظاهر هى ذاتها عند هاليداى الوظائف الرئيسة التى تقوم بها اللغة، وهى :

---

(51) Halliday : Language, Context and Text, ibid, pp. 17 - 23
(52) Morley : An Inroduction, ibid, p. 44

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

(أ) وظيفة نقل التجارب — experiential

(ب) وظيفة الربط بين الأشخاص — interpersonal

(جـ) الوظيفة المنطقية — logical

(د) الوظيفة النصيّة — textual

هذه الوظائف تشغلها لغة البالغين. وهي تُرى بدورها منعكسة على المظاهر المختلفة للمعنى اللغوى.

أما وظيفة نقل التجارب، فهى قيام اللغة بتوصيل الأفكار. إنها الوظيفة التى يعبّر بها المتكلم عن العناصر المضمونية لمنطوقه. وفى إجراء هذه الوظيفة، يشير المتكلم إلى الناس، والأشياء، والأمثلة، والأفعال، والوقائع، والحالات، والكيفيات، والملابسات. وبناء على ذلك، فإن المضمون التجريبى experiential content فى الجملة :

– أنا ابتعت سيارة جديدة أمس

هو : متكلم + فعل + شئ + حالة + زمن.

أما الوظيفة المنطقية، فترتبط الأفكار بعضها ببعض على أساس التعادل أو التبعية، نحو:

- زيد سيتأخر، وعمرو لن يستطيع أن يأتى مطلقًا.
- هو لا يحب الزبيب، ولكنه يحب الجوز.
- بالرغم من أنه لا يحب الزبيب، فإنه يحب الجوز.
- إذا كسبت هذا السباق، فسوف تُختار للفريق القومى.
- زيد، قائد الفريق، يهدّف كل مباراة.

أما الوظيفة الرابطة بين الأشخاص (أي الوظيفة التواصلية)، فهى تؤسس العلاقات الاجتماعية وتُبقى عليها. وهى تؤثر كذلك فى سلوك الناس، وتؤدى الأشياء. وهى تعبر أيضًا عن مشاعر المتكلم وتصرفاته وآرائه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما الوظيفة الاجتماعية، فهي ظاهرة في التحيات وفي الصور المتنوعة للمخالطة الاجتماعية. ومن الأمثلة النمطية على التحيات المستخدَمة لفتح احتكاك اجتماعي أو الاستجابة له أو لإنهائه: صباح الخير، أهلاً، أشكركم على المقابلة، إلى اللقاء. وقولنا مثلاً: كيف حالك؟، يومًا جميلاً، يعد من طرق إطالة هذا الاحتكاك. ولكن مثل هذه التعبيرات يمكن أن تستعمل أيضًا ملابسات مختلفة. ومهما يكن من أمر، فإن قولنا: كيف حالك؟ ليس – في سياق الحال – طلبًا لردٍّ شامل بالحالة الصحية لمن نكلمه؛ فبالنظر إلى الحالة الحالية للشخص، يصبح من المعتاد – لاسيما إذا كان المشاركان لا يعرف أحدهما الآخر – أن يكون الرد: حسنًا، أشكرك – وانت؟ او لا بأس، أشكرك. ومن ثمّ، فإن تبادل المنطوقات في الوظيفة الاجتماعية، يتبع – في حالات عدة – النمط الشكلي المتوقّع، ويظهر استخدام اللغة المستعملة في فتح طريق إلى حديث أكثر إشباعًا.

والحق، أن الشخص الذي يكسر هذا النمط ويتعلل في رده، سوف يُنظر إليه سريعًا على أنه شاذ أو غريب، وسيكون سلوكه مستهجنًا. إن استعمال عبارات مثل: طقس جميل، أليس كذلك؟ – في هذه الوظيفة الاجتماعية – يمكن أيضًا أن يعدّ مقدمة لمحادثة أطول عن الطقس. ولكن في مثل تلك الملابسات، تبقى المحادثة أيضًا على المستوى السطحي أو الظاهري؛ لأن محور الطقس مستعمل موضوعًا يمكن أن يُناقش على نحو غير جدلي controversially، ولذلك يمكن أن تزول الموانع التي تمنع من اتصال أو تفاعل أشد.

أما الوظيفة الثانية من الوظائف الرابطة بين الأشخاص، فهي ما يمكن أن تسمى بالوظيفة الأداتية أو الوظيفة الأداة instrumental function، وهي وظيفة التأثير في سلوك الآخرين وعمل الأشياء. وتعرض هذه الوظيفة نفسها بطرق متنوعة، ويمكن بيان بعض تلك الطرق فيما يلي:

الالتماس : هل يمكنك أن تناولني الملح، من فضلك؟

الاستعلام: ما موعد القطار القادم إلى بريستون؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإرشاد: استدر يسارًا عند الأضواء، ثم خذ الدوران الأول يمينًا.

الحظر أو المنع: ابق خارجًا، ممنوع التدخين، لا تتكئ على النافذة.

التحذير: خطر، أعمال طريق.

النصيحة: أودُّ أن تجنب عينيك الإجهاد.

التهديد: سأصفعك إذا فعلت هذا ثانية.

وأما الوظيفة الثالثة فى الوظائف الرابطة، فهى التعبير عن تصرفات المتكلم الخاصة تجاه المحتوى الفكرى لما قيل. ومن ثم، يشار إليها على أنها الوظيفة الشخصية التى تستخدم فى تعديل الفكرة الرئيسة فى الجملة، كما يبدو فيما يلى:

- من المحتمل أن زيدًا وصل لتّوه.
- ربما لم تتلق خطابًا قط.
- قد لا تكون تلقت خطابًا قط.
- ينبغى أن يكون وصل لتوّه.
- لسوء الحظ لم تتلق خطابًا قط.
- من المدهش أنه عثر على فرق.
- مما يؤسف له أنه قرر الرحيل.

أما الوظيفة النصيّة (أو الخطابية)، فهى – حسبما يرى هاليداى – لخلق النصوص. إنها الوظيفة التى تمنح الفقرة تماسكًا دلاليًا coherence أو ترابطا نحويًا cohesion. وإذا تأملنا التتابع التالى الذى رفعت منه بعض ملامح المكوّن النصى: «يسعل الأولاد إلى السيارة. وقفت السيارة عند حافة العشب. رمق الأولاد الكأس المملوءة على السيارة. تطلع الأولاد ناحية المظلة. اشتعل الضوء الخافت فى المظلة»، إذا تأملناه، أدركنا أن الفقرة النموذجية أكثر من مجرد تتابع من الجمل. إن النص يستخدم أنماطًا متنوعة من المصادر اللغوية للتعبير عن الأفكار وتعليق بعضها ببعض وبدون هذه المصادر، فإن الأثر الناتج سيكون عبارة عن فقرة لا تطاق قراءتها.

إن كل وظيفة من الوظائف السابقة تتمايز بخصوصيتها عن الوظائف الأخرى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكنها تؤكد أن اللغة – في المنطوقات – تؤدي أكثر من وظيفة واحدة. إذا أخذنا – مثلاً – الجملة التالية :

– «يمكن أن يكون البواب نسي المفاتيح، ثم ذهب يفتش عنها»، رأينا أنها يمكن أن تحلل هكذا:

الوظيفة التجريبية: نسي البواب المفاتيح. ذهب البواب يفتش عن المفاتيح.

الوظيفة المنطقية: ثم.

الوظيفة الرابطة: يمكن.

الوظيفة النصية: استتر الفاعل في الجملة الثانية. وفي هذه الجملة أيضًا حذف الفعل "يمكن" وفيها كذلك حل الضمير "ها" محل "المفاتيح".

وتتنوعب الوظيفتان: التجريبية والمنطقية ما سمي بالوظيفة الفكرية. وتبين الوظائف اللغوية المختلفة عن طريق ثلاثة مكونات للنحو. وتعين هذه المكونات من قبل الوظائف التي ترتبط بها: فهناك المكون الفكري الذي يمتلك مكونًا فرعيًا تجريبيًا ومنطقيًا؛ وهناك المكون الرابط بين الأشخاص؛ وهناك المكون النصي. وبناء على ذلك، فإن النحو يمتلك واردًا وظيفيًا functional input وصادرا بنائيًا structural output. وبالرغم من أن كل مكون من تلك المكونات قائم بذاته، فإنها جميعًا تسهم في آن معًا – وإن اختلفت طرق إسهامها – في المعنى الكلي وفي بنية النص. ولا معنى لتسلسل الأفضلية بين تلك المكونات. والحق أن هاليداي قد دحض أي فكرة بأن المتكلم يخلق مضمون الجملة أولاً، ثم يحوّل هذا المضمون إلى الصيغة الكلامية المطلوبة أو إلى التابع النصي المقتضى[53].

(3) إثنوجرافيا الاتصال :

تبنى إثنوجرافيا الاتصال ethnography of communication على دراسة واقعة كلامية بعينها speech event في وضع اجتماعي خاص. إنها تدرس

(53) Morley : An Introducation. ibid. p. 44 – 47

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نماذج من السلوك الاتصالى: ملحوظة أو مدونة[54]. وقد أوجد هذا المنهج ودعا إليه عالم الأنثروبولوجيا ديل هايمس Dell Hymes (1962). كان الأساس الذى بنى عليه هايمس منهجه الإثنوجرافى هو أن الكلام يتمركز أو يتحدّد نظاميًا داخل سياقه الثقافى الاجتماعى socioculture context. وهو يوازى من هذه الناحية – كما يلاحظ فان دايك Van Dijk– اختصاص علم الاجتماع، فى كشفه عن سياقية التفاعل اليومى.. ويبدو الفرق بينهما فى أن الإثنوجرافى مهتم اهتماما جوهريًا بالوقائع الاتصالية communicative events فى مجتمعات وثقافات أخرى (وهى غالبًا المجتمعات والثقافات غير الغربية)، أو أن يكون مهتمًا بالثقافات الفرعية فى مجتمعه الخاص.

يحاول الإثنوجرافى جمع معلومات غنية، معتمدًا على المظاهر الواردة المتعددة التى تعرضها الثقافة والتى يمكن أن تؤثر فى أبنية الوقائع الكلامية فى هذه الثقافة وفى حركيتها dynamics of speech events. وتستحضر هذه المسألة بعض الاختصاصات اللغوية الاجتماعية: فالطبقة الاجتماعية، والسلالة، والعمر، والجنس، والحالة الثابتة، والدور، وعوامل اجتماعية أخرى، تبدو مرتبطة بتنويعات من الأبينة النحوية والأساليب البلاغية والسردية وأبنية خطابية أخرى.

إن الموجودات الإثنوجرافية، تبدو غالبًا فى البنية التالية:

الناس من النوع س (رجال، نساء، كهول، قادة ... الخ) يستعملون – نمطيًا الشكل ص (التنغيم، مقام الصوت، مادة معجمية، صيغة سردية، شفرة ... الخ) فى السياق ع (بغرض معين، ومتحدثين إلى شخص بعينه، وفى واقعة اجتماعية محددة)[55].

كان تشومسكى Chomsky قد حدد هدف النظرية اللغوية بأنه وصف كفاءة

---

(54) Stubbs, Michael: Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis of Natural Language, Basil Blackwell, Oxford (1989)p. 40

(55) Van Dijk, Teun, A. : Dialogue as Discourse and Interaction, in : Teun A. Van Dijk (ed.): Handbook of Discourse Analysis, Vol. 3: Discourse and Dialogue 3.rd ed. Printing, London (1989)pp. 1-11, pp. 7-8.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتكلم المثالية، ووصف معرفته بالصحة النحوية، سواء أكانت الجمل المأثورة putative sentences جزءا من لغته أم لا. وفي تأكيده العناية بالجانب النحوي، لا يعني بجانب المناسبة appropriate. كان تشومسكي راغبًا في عرض العلاقات النحوية – ببساطة – بين:

- he hit me,
- it was me that he hit,
- it was him that hit me.

دون أن يحاول تفسير السبب الذي من أجله تبدو إحدى هذه الجمل مناسبة لموقف خاص لا تناسبه جملة أخرى[56]. ويجيء الأنثروبولوجي ديل هايمس، فيبرهن على أن تعريف تشومسكي الكفاءة Competence كان ضيقًا أكثر من اللازم؛ فعلم اللغة ينبغي له أن يعني نفسه بالكفاءة الاتصالية Communicative Competence؛ أي مقدرة المتكلم على إنتاج منطوقات مناسبة، لا جمل نحوية[57]

بيّن هايمس أن المنهج السديد، ينبغي له أن يميز بين أربعة مظاهر للكفاءة، وأن يقوم على فحصها. وهذه المظاهر هي:

- الإمكانية المطردة systematic potential.
- المناسبة appropriateness.
- التوارد occurrence.
- إمكانية الإجراء feasibility.

ويعني هايمس بالمظهر الأول: إن كان هناك شيء ما لم يعد ممكن التحقق، وإلى أي مدى لم يعد هذا الشيء ممكن التحقق بعد. وأما المناسبة، فهي تعني: إن كان هناك شيء ما في سياقٍ ما، يبدو نافعًا ومؤثرًا، وإلى أي مدى يبدو هذا الشيء هكذا. وتضم كفاءة

(56) Coulthard, Malcolm: An Introduction to Discourse Analysis, Longman Group Ltd. 6 th impression, England (1983)p.30

(57) Hymes, Dell: Sociolinguistics and the Ethnography of Speaking, in: Ardener, E. (ed.): Social Anthropology and Linguistics, Association of Social Anthropologists Monograph 10, Tavistock, London (1971)pp. 47 – 93, p. 48.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتكلم أيضًا معرفته بالوقوع؛ أى إن كان هناك شئ ما قد تم، وإلى أى مدى كان تامه. ويعرض هذا البعد النظرى حقيقة كون أفراد جماعة كلامية على وعى بالوقوع العام او النادر السابق، أو على وعى بخصائص الكلام المتعددة الجديدة، وأن تلك المعرفة تتخلل تحديداتهم وتقويماتهم طرق التكلم. أما إمكانية الإجراء، فهى ترتبط بكون شيء ما ممكنا، وإلى أى مدى تبدو هذه الإمكانية.

وإذا كان علم اللغة قد امتد نظره إلى تغطية تلك المظاهر الأربعة التى تعرفها الكفاءة، فإن هايمس يشعر أن هذا النظر مازال ضيقًا جدًا. إنه يشعر بالحاجة إلى وضع علم وصفى ثان للغة، هو ما يسميه بإثنوجرافيا التكلم أو الاتصال، الذى يختص ببنية اللغة، بل باستعمالها، وبقوانين التكلم؛ أى بالطرق التى ينخرط فيها المتكلمون فى سلك صور للتكلم محددة، أو فى سلك المحاور topics، وصيغ الرسائل message forms، فى أوضاع ونشاطات خاصة[58].

جعل هايمس نقطة البداية فى تحليل مكونات الوقائع الاتصالية components of communicative events، هى التحليل الإثنوجرافى للعادات الاتصالية فى جماعة لغوية بعينها فى عملها، وتحديد قيمة تلك العادات فى الوقائع الاتصالية والوقوف على مكوناتها، والنظر إلى السلوك الاتصالى مرتبطًا بالوضع أو الحالة الضمنية.

الواقعة الاتصالية إذن مسألة مركزية (بمعنى اللغة الخاصة، والوسائل الاتصالية التى تعرضها الشفرة اللغوية فى هيئة حدث لغوى speech act، يعد بؤرا الاهتمام).ويجعل هايمس العوامل التى تحدد النظرية الاتصالية، فى ثمانية عوامل هى: (1-2) أنواع المشاركين المتعددة فى الوقائع الاتصالية: كالمرسلين والمستقبلين، والمخاطبين (بكسر الطاء) والمخاطَبين (بفتح الطاء)، والمفسرين (ومعهم المتكلم)، وغير ذلك.

---

58) Coulthard, op. cit., p. 31

وقارن : Hymes, op. cit. P. 50

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(3) القنوات المتنوعة المناسبة وصور استعمالها: كالتكلم، والكتابة، والطباعة، والدق بالطبول، والنفخ، والصفير، والتغني، وحركة الوجه والجسم (التي تستقبل بصريًا)، والشم، والإحساس التذوقي، واللّمس.

(4) الشفرات المتنوعة المشتركة بين مشاركين في الاتصال متعددين: وهي شفرات لغوية linguistic codes أو شفرات خارجة عن اللغة paralinguistic codes، أو شفرات سلوكية حركية kinesic codes، أو موسيقية، ونحوها.

(5) الأوضاع والهيئات setting التي تسمح بقيام الاتصال، أو التي تحتمه، أو تنشطه، أو تختصره.

(6) صيغ الرسائل وأجناسها، وهي تمتد لفظيًا من جمل دوات وحدات صرفية مفردة، حتى أنماط القصائد وأشكالها المتميزة، أو الخطب، أو المقامات الصوتية للبائعين، أو أي أعمال وأساليب نمطية.

(7) المحاور والشروح أو التعليقات comments التي تدور حولها الرسالة.

(8) الوقائع ذاتها، بأنواعها وملامحها المميزة على الجملة.

ويتبغي أن تحدد هذه العوامل جميعًا، وأن يُتعرف عليها على نحو إثنوجرافي مناسب[59].

ويربط هايمس بين تحليل السلوك الثقافي تحليلاً بنائيًا وتحليل السلوك الاجتماعي تحليلاً بنائيًا أيضًا بما هو مظهر من مظاهر الشفرة اللغوية. ومن ناحية أخرى، يربط بين القدرات الفونولوجية التي تحدد مجموعة السمات والملامح التي تقدر على تعيين السلوك الثقافي وتضاده[60].

---

(59) Hymes, Dell, Toward Ethnography of Communication: The Analysis of Communicative Events, in: Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context, Selected Readings, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990) pp. 22-23.

(60) المرجع السابق ص 23.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويرى هايمس أن الإثنوجرافيا السديدة هي التي تعرض تصنيفًا دالاً من الناحية الثقافية للتبليغات والتقريرات المثمرة عن العلاقات الواردة بين المقولات والسياقات المحددة مكانيًا (سياقات الأشياء والوقائع) داخل قالب اجتماعي بعينه[61].

ولعل من أهم ما يعزى من ميزات إلى المنهج الإثنوجرافي، توسيع مفهوم الرسالة، الذي يعد نقطة البدء في أي تصور. إن مفهوم الرسالة عند هايمس يتضمن الإسهام الحقيقي أو المنسوب إلى {1} الشفرة أو الشفرات التي تتجلى فيها الرسالة عند {2} مشاركين، هم – على الأقل – متكلم ومخاطب (وربما كانا شخصًا واحدًا) في {3} واقعة كلامية بعينها نقلها، وتحدد ملامحها عبر {4} قناة أو قنوات، و {5} وضع أو سياق، مع {5} صيغة بعينها أو كيفية خاصة للرسالة ذات {6} محور وتعليق، بمعنى قول شيء ما عن شيء ما. إن مفهوم الرسالة يتضمن جملة المكونات السابقة في آن معًا[62].

ومما يعزى من ميزات إلى تحليل الاتصال من منظور إثنوجرافي أيضًا، تحدد وظائف الوقائع الاتصالية بالنظر إلى وضع المشاركين فيها:

(أ) فإذا ركزنا النظر على المخاطِب (بكسر الطاء) أو المرسِل، في علاقته بالمكونات الأخرى للواقعة الاتصالية، وجب أن تكون هناك أنماط من الوظائف نحو: تعيين المصدر، والتعبير عن التصرف أو السلوك تجاه مكون أو آخر أو تجاه الواقعة كلية. ومن تلك الوظائف أيضًا إمعان الفكر (التفكير جهرًا) ... الخ. الوظائف هنا إذن هي القصد، والتصرف أو السلوك، والوعي بالأشياء أو اللاوعي بها.

(ب) وبالتركيز على المخاطَب (بفتح الطاء) أو المستقبِل، تلزم أنماط من الوظيفة نحو: تعيين الغاية، وطرق التحكم في الرسالة، بتوقع تصرف بعينه إزاء الغاية.

---

(61) المرجع نفسه ص 25.

(62) المرجع نفسه ص 26.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ج) وبالتركيز على القنوات فى علاقتها بالمكونات الأخرى، تلزم وظائف ذات علاقة بالإبقاء على الاحتكاك contact، وضبط الضوضاء: طبيعيًا ونفسيًا.

(د) وبالتركيز على الشفرات فى علاقتها بالمكونات الأخرى، تلزم وظائف مثل تلك التى يقدمها التعليم، والتحليل، وابتكار أنظمة الكتابة، ومراجعة هوية أحد عناصر الشفرة المستعملة فى التخاطب ونحوها.

(هـ) وبالتركيز على الأوضاع فى علاقتها بالمكونات الأخرى، يلزم كل ما يُعَدُّ سياقيًا contextual، إلى جانب الواقعة ذاتها، من حيث إن أى مكوِّن – أو كل المكونات – يمكن أن يعد محددًا وضع الواقعة setting of the event، لا محلها من الزمان والمكان فحسب.

(و) وبالتركيز على صيغة الرسالة فى علاقتها بالمكونات الأخرى، تلزم وظائف نحو: تصويب تجارب الطبع، وأشكال التنقيح والطباعة، والتقليد بالإشارات، والمهام الشعرية والأسلوبية.

(ز) وبالتركيز على المحور فى علاقته بالمكونات الأخرى، تلزم وظائف ذات علاقة بالمرجع reference (أى المعنى اللغوى، والتضمين، والمحتوى).

(ح) وبالتركيز على الواقعة الكلامية ذاتها، ينبغى لنا أن ندخل كل أنماط الوظيفة المسماة بوظيفة ما وراء الاتصال meta communicative types of function[63].

ولعل جعل هايمس وضعَ المشاركين مركزًا لتحديد أنماط الوظائف المتنوعة يؤول إلى نظرته الخاصة إلى الكفاءة، كفاءة الشفرة وكفاءة مستخدمها. إن الكفاءة تتنوع مع الوقائع والأوضاع التى تعرض للمشاركين، بما يتعلقون به من سلوك وهيئات معتادة فى التكلم، وبما يصدرون عنه من قيم ومعتقدات، تعبر عن خواص أوضاعهم المفيدة فى تكوين الوقائع الاتصالية.

---

(63) المرجع نفسه ص 36 – 38.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن تفاعل اللغة مع الحياة الاجتماعية، ينظر إليه – من المبدأ – على أنه موضوع الفعل الإنسانى human action، معتمدًا على المعرفة knowledge : واعية احيا وغير واعية غالبًا، تلك التى تمكن الأشخاص من استعمال اللغة.

والحق أن الوقائع الكلامية والأنظمة الكبرى، تمتلك خصائص لا تحول إلى خصائص الكفاءة الكلامية للأشخاص. إن مثل تلك الكفاءة – على أى حال – كامنة فى السلوك الاتصالى وتدبيره communicative conduct، لا فى داخل الجماعات فحسب، بل فيما بينها من مواجهات أيضًا.

إن الكفاءة الكلامية عند الأشخاص، ينبغى أن يُنظر إليها على أنها مباشرة سلسلة من أنظمة المواجهة encounter على مستويات نظر مختلفة[64].

إن المنظور الإثنوجرافى إلى السلوك الاتصالى، يُعنى – فى إطار مناقشة اللغ فى سياقها الاجتماعى – بملاحظة الملامح المميزة للمشاركين من حيث: العمر والجنس، والنسب العرقى، والعلاقة فيما بينهم، وأوضاعهم الاجتماعية النسبية ودرجة إلمامهم بالأشياء، وغيرها من العوامل التى يمكن أن تؤثر فى كيفية مباشرة الاتصال[65]. وتعد تلك الملامح جميعًا محددات لأداء وقائع كلامية خاصة؛ فبعض الوقائع تحتاج – فى سهولة – إلى أن تشغل أدوارًا بعينها للمشاركين، وتحتاج وقائع أخرى إلى مشاركين من عمر بذاته، وجنس خاص، وعلاقة قرابة محددة، ودور أو بنية بعينها[66].

من ناحية أخرى، فقد عنيت إثنوجرافيا الاتصال، بالتمييز بين مستويات النشاط الكلامى. ويستخدم هايمس ثلاثة مصطلحات للتحليل الإثنوجرافى، ووصف السلوك الكلامى، يجعلها محددة وحدات هذا السلوك، وهى : الموقف الكلامى، والواقعة

---

64) Hymes, Dell, H: Models of the interaction of Language and Social life, in: John J. Gumperz and Dell Hymes (eds).: Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication, Basil Blackwell, Oxford (1989) pp. 35 – 71, p. 53.
65) Salzman, ibid, p. 197.
66) Coulthhard, ibid, p. 44

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلامية، والحدث الكلامى (أو المقال) speech event[67].

وجدير بالإشارة – فى هذا المقام – أن النظر إلى الاتصال غير اللفظى بعين المراعاة، يوجب الحاجة إلى توسيع تلك الاصطلاحات. وينبغى أن نستبدل – حينئذ – المفردة «كلام» بالأخرى «اتصال» التى تتسع للسلوكيات الحركية والإشارات بأنماطها المتباينة؛ فنحن نلحظ فى كثير من المواقف الاتصالية أن رفع الحاجب، أو غمزة العين، أو مط الشفتين ونحوها، يمكن أن تبدو – فى وظيفتها الاتصالية وتأثيرها – كالجملة الكاملة تمامًا.

ومهما يكن من أمر، فإن خلاصة تحديد الوحدات الثلاث السابقة تحديدًا إثنوجرافيا، تبدو على النحو التالى:

(أ) الموقف الكلامى :

يكتشف المرء على الدو – داخل الجماعة اللغوية – كثيرًا من المواقف المرتبطة بالكلام (أو المُعْلِمة بغياب الكلام). وتوصف سياقات الموقف – غالبًا – بأنها طقوس أو مشاجرات، أو رحلات صيد، أو وجبة عائلية، أو أى موقف من عدد هائل من المواقف التى تأخذ مكانها من المجتمع، والتى يمكن تعيينها فى حدود المشاركين وأهدافهم. وهى – من ثم – قابلة لأن تتمايز عن مواقف كلامية أخرى. ولا يجد هايمس مفيدًا الاهتداء إلى مثل تلك المواقف، بإعادة عنونتها فى حدود الكلام. ويؤكد أن التمييزات التى وُضعت بين المواقف بالنظر إلى الجماعة الكلامية speech community لا تطابق مفاهيم المنهج الاتصالى العام الذى يوجب ملاحظة المجالات المتباينة من الاتصال عن طريق الكلام، والأفلام، والعمل الفنى، والموسيقى.

إن مثل تلك المواقف ينبغى لها أن تدرج على أنها سياقات فى تبليغ قوانين التكلم rules of speaking، بما هى مظاهر للوضع setting (أو الجنس genre). إن تلك المواقف – على العكس من الوقائع الكلامية – ليست محكومة فى حد ذاتها

(67) Hymes. Models. pp. 56 - 57

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

بمثل تلك القوانين، أو بطائفة منها. فالصيد – مثلاً – يمكن أن يتضمن كلاً من الوقائع اللفظية verbal events والوقائع غير اللفظية nonverbal events. ويمكن للوقائع اللفظية أن تتكون من أكثر من نمط واحد.

من الضروري إذن – في التوصيف اللغوى الاجتماعى – أن نتعامل مع النشاطات التي يمكن التعرف عليها بطريقة ما، على أنها إلزامية bounded ومكملة integral. وينبغي – من وجهة نظر التوصيف الاجتماعى العام – أن نسجّل registered تلك النشاطات على أنها طقوس، أو رحلات صيد أسماك، ونحوها. ومن وجهات نظر خاصة، يمكن أن ينظر إليها على أنها مواقف ترتبط بأمور سياسية أو جمالية، تستخدم سياقات بعينها من أجل إظهار نشاط سياسى أو جمالى ونحوهما. ومن وجهة النظر اللغوية الاجتماعية، يمكن أن تعد مواقف كلامية[68].

(ب) الواقعة الكلامية :

يقيّد المصطلح «واقعة كلامية speech events » بالنشاطات – أو مظاهر النشاطات – التي تُحكَم مباشرة بقوانين استعمال الكلام أو معاييره rules or norms for the use of speech. ويمكن ان تكون الواقعة الكلامية من حدث كلامى مفرد، ولكنها تتضمن – غالبًا – أحداثًا عدة: فوقوع اسم فحسب، يمكن – في الوقت ذاته – أن يكون هو نفسه كل ما تمتلكه عبارة اسمية، وهو نفسه الجملة كلها (مثل قولنا: ألنارا). وهذا يعني ان حدثا كلاميًا واحدًا، يمكن أن يشكل واقعة كلامية كاملة، أو موقفًا كلاميًا كاملاً (فالطقس الديني الذي يقوم على متوسّل واحد، هو نفسه توسل واحد).

ومهما يكن من أمر، فإننا – في الغالب الأعم – نجد فرقًا في القدر أو الأهمية ومثال ذلك: الحفلة (موقف كلامي)، ومحادثة أثناء الحفلة (واقعة كلامية)، والمزاح أثناء المحادثة (حدث كلامي). ونلاحظ هنا أن النمط نفسه من الحدث الكلامي، قد يتكرر

---

(68) المرجع السابق ص 56.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

في انماط مختلفة من الواقعة الكلامية (المقال)، وإن النمط نفسه من الواقعة الكلامية، قد يتكرر في سياقات موقف مختلفة. من ثم، فإن المزاح أو المباسطة (حدث كلامي) يمكن له أن يوضع في محادثة خاصة، أو في محاضرة، أو في مداخلة شكلية. ويمكن للمحادثة الخاصة، أن تقع في سياق حفلة، أو في وقفة محددة لتغيير المواضع في مباراة تنس.

(جـ) الحدث الكلامي :

يجعل هايمس الحدث الكلامي speech act الوحدة الصغرى للكلام، لغايات التحليل الإثنوجرافي. وقد يكون الحدث الكلامي تهنئة، أو اعتذارًا، أو استخبارا، أو تحية، أو مداخلة شخصية ونحوها. ويمكن أن يمتد الحدث الكلامي من كلمة مفردة (كقولنا: أنطلق؟ أو شكرا!) حتى قصة كاملة.

ويتوسط مستوى الأحداث الكلامية – على نحو مباشر – مستويات النحو المألوفة وما بقي من الواقعة الكلامية أو المرقف الكلامي؛ من حيث إنه يستلزم صيغة لغوية ومعايير اجتماعية في آن معًا.

إن المتكلمين يشتركون في المعرفة بحالة المنطوقات وأوضاعها بما هي أحداث، معتمدين في ذلك على نظام مستقل من المؤشرات التي تقدمها المستويات المتنوعة لكل من النحو والأوضاع الاجتماعية. ولنتامل هنا الحالة التي يصبح فيها المنطوق: «هل ترى أنه ينبغي لي أن أتناول تلك الجرعة الأخيرة من الشاي؟»، يصبح فيها طلبا.

إن مستوى الأحداث الكلامية المستقل بذاته، إنما هو – فيما يبين هايمس – كامن أو مضمّن في منطق المستويات اللغوية الذي يزول بمقتضاه الغموض في دلالة المنطوق: فالجملة الاستفهامية في صيغتها، قد تكون الآن التماسًا، أو طلبًا، أو تقريرًا. والالتماس قد يكون معروضًا في جملة استفهامية أو تعجبية أو إفصاحية او امرية، من حيث صيغتها[69].

---

(69) المرجع السابق ص 56 - 57

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويبين سالزمان – أحد الأنثروبولوجيين المقتفين أثر هايمس فى المنظور الإثنوجرافى للاتصال – أن الأحداث الكلامية التى يتبع أحدُها الآخرَ فى سلسلة مميزة، والتى تحكمها قوانين اجتماعية، من أجل استعمال الضميمة الكلامية فى تكوين واقعة كلامية، هى الوحدة الأساسية فى التفاعل اللفظى verbal interaction. ومن الأمثلة على تلك الوقائع: المحادثة، والاعتراف، والمقابلة، والحوار مع بائع، والاستعلام بالهاتف، ونحوها. وتميز الفواصل بعلامات أخرى، تشير إلى دخول محور آخر إلى المحادثة، مثل: «إذا كان لى أن أغيّر الموضوع، ...» أو : «فى الطريق، سمعت أن .....»[70].

ويأخذ تحليل المعطيات الكلامية speech data – فى المنهج الإثنوجرافى – اتجاهين اثنين مختلفين:

(أحدهما) اختبار الخواص الشكلية التى يعرفها الكلام formal properties of speech، من حيث تنويعاتها فى ثقافات مختلفة.

و(الآخر) دراسة نوع ما من أنواع الوقائع الكلامية دراسة تفصيلية، داخل جماعة أو ثقافة بعينها، أو مقارَنةً بثقافات متنوعة.

وبالإضافة إلى تحصيل العوامل الإثنوجرافية التى تتصل بالصيغ اللغوية، وبالتنوع فى الثقافات والجماعات، من أجل النظرية العامة، ومن أجل مقارنة اللغة والاتصال؛ فإن واحدًا من الإسهامات الأقوم للإثنوجرافيا، هو وصف الوقائع الاتصالية فى تعقدها الكامل وصفًا تفصيليًا.

وتميل علماء اللغة والاجتماع – غالبًا – إلى عزل جانب هام من جوانب الخطاب أو التفاعل. وهم يوجهون عناية مستقصية إلى بعد واحد من أبعاد التحليل (مستخدمين – غالبًا – منهجًا واحدًا). أما عالم الإثنوجرافيا، فهو – على العكس من ذلك – مُلزم بإعمال ميادين كثيرة فى آن معًا، وهو تعنيُّ بأن يأخذ عمله بؤرة أوسع

(70) Saizman, p. 196

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا هو أحد الأسباب التى تجعل عالم الإثنوجرافيا يتبع – قليلا – عالم اللغة فى اهتمامه الغالب بدراسة الأبنية النحوية وحدها (أو الأبنية التركيبية وحدها، أو الأبنية الفونولوجية وحدها). إن بنية الوقائع الاتصالية كل متعلق بأشياء مترابطة فى آن معا؛ إنها كل متعدد المستويات، يتضمن الملامح النصية والملامح السياقية جميعًا.

ويعرض فان دايك van Dijk مجالات تحليل ملامح الوقائع الكلامية تحليلا إثنوجرافيا، بما يؤكد الثراء التصورى والتعقيد النظرى اللذين يوسم بهما هذا المنهج. إن مثل هذا التحليل يجمع بين وصف الجنس الخطابى، ووصف التخطيط الشامل overall delimitation، ووصف الوظيفة الاجتماعية، وتسمية الواقعة الكلامية الكلية، ووصف المحور (الموضوع أو المرجع)، ووصف الوضع (البيئة الزمانية والطبيعية)، ووصف أنواع المشاركين المختلفة، ووصف غرض التفاعل، ونمط الشفرة منطوقة ومكتوبة... إلخ، ووصف المعجم وعلم الدلالة، والنحو (على المستوى الخطابى أيضًا)، ومتواليات الأحداث (اللفظية وغير اللفظية)، ووصف القوانين الكامنة والمعايير، ووصف استراتيجيات الأحداث أو الواقعة الكلية[71].

ولا شك أن مثل هذا الثراء والتنوع فى زوايا النظر الإثنوجرافى إلى الواقعة الكلامية، مما يمكن الباحث من الإحاطة المتكاملة بمحددات السياق الثقافى الاجتماعى على جميع مستويات الخطاب. ولعل ذلك مما يقود إلى جعل الأنثروبولوجيا – لاسيما حقل الإثنوجرافيا – المرتكز النظامى الشامل للخلفيات التاريخية لتحليل الكلام فى سياقه الاجتماعى. ولا شك أن تلك الخلفيات قد تلقت تأثيرات متنوعة من علوم اجتماعية مختلفة؛ كعلم الاجتماع المعرفى والكيفى، وعلم اجتماع الجماعات الصغيرة، وعلم الاجتماع الصورى، وعلم اجتماع الحياة اليومية، والتفاعلية الرمزية، والفينومينولوجيا، والإثنوميثودولوجيا وغيرها.

وبالرغم من التوصيفات الشاملة عالية التعقيد التى تقدمها البحوث

(71) Van Dijk, Dialogue as Discourse, p. 8

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الإثنوجرافية، فإنها لم تخل – فيما نرى – من خطر التعميمات إزاء ظواهر محددة، تخرج بها هذه التعميمات إلى أبعاد أشد تعقيدًا.

هذا، وقد جذب المنهج الإثنوجرافى انتباه محللى الخطاب، الذين يجتهدون اجتهادًا خاصًا فى ربط النص بسياقه، فحاولوا الإفادة من منظوراته إلى التفاعل اللغوى، وتطبيقه على بعض أنماط الوقائع الكلامية، ومنهم ميخائيل استوبس Michael Stubbs الذى اختار درسًا مدرسيًا، ليكون مجالاً لتطبيق معطيات المنهج الإثنوجرافى[72].

(4) الاتصال والتداولية :

التداولية pragmatics من مكونات النظرية السيميائية الجوهرية، التى تدرس العلاقات بين العلامات signs ومستخدميها[73]. ويشير فان دايك إلى أن التداولية، ينبغى لها أن تخصص للمجال العملى أو الإجرائى، الذى يقوم على قوانين اللغة العرفية، وما يكون لهذه القوانين من آثار فى إنتاج المنطوقات وتفسيرها. وينبغى للتداولية – بوجه خاص – أن تسهم إسهامًا مميزًا فى تحليل الشروط التى تجعل المنطوقات مقبولة فى موقف بعينه عند متكلمى اللغة[74].

كانت التداولية – كما يقول فان دايك – سلة المهملات عند النحاة. وقد استمدت – فى جوهرها – من فلسفة اللغة، لا سيما نظرية أفعال الكلام Speech Acts Therory، كما استمدت من تحليل المخاطبات، ومن الاختلافات الثقافية فى التفاعل اللغوي verbal interaction على النحو الذى تراه العلوم الاجتماعية[75].

---

(72) Stubbs, Michael: Discourse Analysis, p. 40

(73) Van Dijk, Teum, A.: Text and Context, Explorations in the Semantics and pragmatics of Discourse, Longman, London, New York (1980) p. 189

(74) المرجع السابق ص 189 – 190

(75) المرجع نفسه ص 189

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتظهر التداولية منهجًا إجرائيًا عمليًا. وفي هذا المنهج توصف جميع مستويات اللغة في حدود نفعيتها. من ثم، فإن التداولية – كما يقول دوبوجراند De Beaugrande ودرسلر Dressler – هي ميدان الخطط plans والأهداف goals. وهي تعالج مسائل الاستعمال علاجًا حرًا في النحو وعلم الدلالة على حدٍّ سواء[76].

بناء على ذلك، فإننا نتناول تداولية الاتصال من الجوانب الأربعة التالية:

(أ) التداولية وقوانين التفاعل.

(ب) التداولية وقوانين التفسير.

(ج) التداولية والمقصدية.

(د) التداولية والموقفية.

وفيما يلي بيان ذلك :

(أ) التداولية وقوانين التفاعل :

إذا كانت اللغة نظامًا، أي طائفةً من العناصر التي يشغل كل عنصر منها وظيفة الإسهام في تشغيل الكل، فإن السلوك الاتصالي Communication behaviour الحقيقي، بوجب النظر إلى اللغة بما هي نظام تفاعلي. ولابد في تفسير اللغة، من ملاحظة الارتباط بين مستوياتها، بل لابد من ملاحظة التفاعل بين هذه المستويات اللغوية وبين العوامل المعرفية والموقفية والثقافية.

إن كل جماعة تمتلك مجموعة كامنة من القوانين غير اللغوية التي تحكم زمن وقوع الكلام، وكيفية وقوعه، ومدى تكرره، وهي التي تُعرف باسم قوانين التفاعل rules of interaction . وتختلف المجتمعات إزاء هذه القوانين: ليس من المناسب – مثلاً – أن يشترك الطفل الفرنسي في الكلام، عندما يأتي ضيوف على الغداء، بينما يُشجَّع الطفل الروسي على الكلام[77].

---

(76) De Beaugrande, Robert – Alain and Dressler Wolfgang, Ulrich: Introduction to text linguistics, Longman, London – New York (1993) p. 31

(77) Coulthard, An Introduction, ibid, p. 48

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن قوانين التفاعل هى التى توجه النشاط الاتصال Communication activity: ففى الظروف العادية، يعرف أفراد الجماعة الكلامية ما هو مناسب، وما هو غير مناسب. على سبيل المثال، لا يعتبر أبناء الطبقة الوسطى فى الولايات المتحدة المقاطعات الكلامية مقبولة، إلا ما كان منها بين الأصدقاء الحميمين، أو بين أفراد الأسرة. فإذا ما استأثر أحدهم بالحديث، وجدوا طرقًا مقبولة لإيقافه[78].

وللتفاعل معايير تحكم المسافة الفيزيقية بين المشاركين فى واقعة كلامية بعينها، لا سيما فى المحادثة، تعنى فى خطاب المواجهة face – to – face conversation. وفى دراسة أجريت فى جامعة كولورادو بين دارسين ذكور من أقطار عربية ونظرائهم من الولايات المتحدة، وجد واتسون Watson وجريفز Graves أن الدارسين العرب يواجه أحدهم الآخر عند التخاطب مواجهةً مباشرة، أشد مما يكون بين الأمريكان. ويدو أحدهم فى جلسته أقرب ما يكون إلى الآخر، حتى ليكاد يمسه. وأثناء الكلام تلاقى عيونهم على نحو أكثر اعتدالاً، وهم يتحدثون بصوت أعلى من الأمريكان[79].

ومنذ الستينيات، أثار إدوارد هول Edward Hall مسألة الارتباط الداخلى بين الاتصال والثقافة، من أجل تطوير ما سمى بالتقريبية Proxemics، أى دراسة التنميط الثقافى للفواصل المكانية بين الأفراد، والتى تظل فى المقابلات وجهًا لوجه face – to – face encounters. وقد اشتمل هذا الاصطلاح – بناءً على ذلك – على ما يدور حول دراسة الخلوة privacy، أو الزحام، أو التأقلم، أو تصميم الأبنية خاصةً أو عامةً، من وجهة نظر التعرف على الترقمات الثقافية المختلفة عند مستخدميها المتطرين.

---

(78) Saltzman, p. 200

(79) Watson, O., Michael and Graves, Theodor, D.: Quantitative Research in Proxemics Behavior, in: Amer. Anthrop., Vol: 68 (1966) pp. 971 – 985, pp. 976 . 977

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

ويرى هول Hall أن المسافات التي تظل بين أحد الأفراد والآخرين، تعتمد على طبيعة المشاركات المتبادلة بينهم، وهي محددة ثقافيًا. على سبيل المثال، يلاحظ هول أن البالغين الأمريكان من الطبقة الوسطى في شمال أوربا، قد ورثوا – في الظروف العادية – استعمالاً مطّردًا لأربع مناطق تقريبية او مسافات. وهي تمتد من الصداقة الخاصة إلى المعرفة العامة. وتكون كل منطقة من تلك المناطق، من حال متقاربة وحال بعيدة (انظر الجدول رقم 3). في الحال أو الهيئة المتقاربة من مسافة الصداقة الخاصة، يقترب الأفراد اقترابًا كافيًا، حتى يطوّق أحدهم الآخر بذراعيه.

إن الطريقة التي يتباعد بها أفراد مجتمعات مختلفة أحدهم عن الآخر، تتنوع بين مواصلة الاحتكاك وعدم الاحتكاك. على سبيل المثال، يلاحظ أن العرب وشعوب أخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط، وشعوب أمريكا اللاتينية، يفضلون التفاعلات التي تقع عن قرب في المسافة، بينما يفضل الناس في شمال أوربا الاحتفاظ بالمسافة فيما بينهم[80].

(80) Salzman, pp. 216 – 217

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منطقة المسافة	المسافة الفيزيقية بين الأقدام على وجه التقريب	القناة السمعية الأكوستيكية	القناة الشمية
ودى :		تهمس، أنين	
قريب	صفر – 0.5	همس أو صوت منخفض جدا	
بعيد	0.5 – 1.5		
شخصى :			
قريب	1.5 – 2.5	صوت ناعم	تستهجن كل الروائح غالبًا.
بعيد	2.5 – 4	صوت معتدل	
استشارى			
اجتماعى :			
قريب	4 – 7	صوت عادى	تستهجن كل الروائح غالبًا.
بعيد	7 – 12	صوت أعلى	
عام :			
قريب	12 – 25	صوت عال	تستهجن كل الروائح غالبًا.
بعيد	25	صوت تام الجهارة	

الجدول رقم (3)

المناطق الأربع للمسافة فى الفراغ ما بين الأفراد من

أمريكان الطبقة الوسطى فى شمال أوربا

ويبين هول ملحوظاته العامة عن تلك المسافات فى قوله: "فى أمريكا اللاتينية تبدو مسافة التفاعل أقل كثيرًا مما هى عليه فى الولايات المتحدة. والحق أن الناس لا يستطيعون الكلام – فى راحة – فيما بينهم دون أن يكونوا قريبين جدًا من المسافة التى تستدعى أحاسيس جنسية أو عدائية فى شمال أمريكا. والنتيجة هى أننا نسحب

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

وتتقهقر، عندما يقتربون. ومن أجل ذلك، فإنهم يعتقدون أننا مترفعون أو باردون، نافرون أو عدائيون[81].

هكذا تحكم قوانين التفاعل النشاط الاتصالى وتوجهه. وعندما تنكسر قوانين التفاعل – أو تهمَل كليًا – ينتج الارتباك أو الحيرة. وإذا لم تقدم الاعتذارات، فإن الاحتكاكات اللاحقة بين الجماعات يمكن أن تتوتر، بل يمكن أن تلغى[82].

(ب) التداولية وقوانين التفسير :

تمتلك الجماعات الكلامية قوانين متفردة لتفسير الرسائل messages، بما فى ذلك الرسائل اللفظية وغير اللفظية. وقد كانت قوانين التفسير rules of interpretation من مكونات الكلام الجوهرية فى المنهج الإثنوجرافى. بيّن هايمس أن هذه القوانين تختلف بين الأفراد من جماعات كلامية مختلفة، عندما يدخلون فى اتصال. كما بيّن أن قوانين التفسير، تتبع نظم المعتقد فى جماعة بعينها[83].

وتتنوع قوانين التفسير – شأنها شأن قوانين التفاعل – من ثقافة إلى أخرى. وقد يكون التنوع بسيطًا، أو مميزًا، أو عميقًا. وفى داخل المجتمع الواحد – إن كان من المجتمعات متعددة الأشكال : اجتماعيًا وعرقيًا – لا يكون جميع الأفراد سواسية فى استعمال قوانين تفاعلية بذاتها، ولا قوانين تفسيرية واحدة. على سبيل المثال، يعرف مواطنو المدن الأمريكية، من ذوى الأصل المكسيكى، قوانين مختلفة لتفسير السلوك الاتصالى، عمن يليهم من المواطنين ذوى الأجداد اليابانيين[84].

ويشير هايمس إلى أن إشكالية قوانين التفسير مألوفة فى تقدير الاتصالات بين الحكومات والقادة الوطنيين. كذلك، فإن العلاقات بين المجموعات داخل قطر بعينه، تتأثر – غالبًا – بسوء الفهم. ويلاحظ هايمس أن الأمريكان البيض من الطبقة الوسطى

(81) Hall, Edward, j.: The Silent Language, NY: Doubleday, Garden City (1959) p. 209
(82) Salzman, p. 200
(83) Hymes, Models, ibid, p. 64
(84) Salzman, pp. 200 – 201

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

– مثلاً – يقتحمون فى سلوك التلعثم العادى "حشوات fillers" عند بداية التلعثم (مثل uh) ونحوها. أما النمط المألوف عند كثير من السود، فهو إعادة بداية المنطوق (ربما اكثر من مرة واحدة). هذا المعيار عند السود، لا يفسره البيض على أنه معيار مختلف، بل يفسرونه على أنه عيب أو قصور defect[83].

ولا شك أن الوعى بتلك الاختلافات، والحاجة إلى الفهم والضبط، أمور ملحة فى الاتصال بين الثقافات[84].

(جـ) التداولية والمقصدية :

كان من أهم مجالات العمل فى علم اللغة النصى، التمييز بين العوامل النصية الخارجة عن النص والعوامل النصية الداخلية. وقد بحثت العوامل الخارجة عن النص فى إطار الاتصال النصى، كما بحثت فى إطار تداولية النص[87]. لقد كانت البداية، فى مجالات العمل فى علم اللغة النصى، بتناول بنية النظرية التداولية، بداية ذات مغزى خاص، وكأن اللغويين النصيين يريدون – بادئ ذى بدء – أن يؤكدوا ضمنية حصر دراسة النص فيما يصنعه المنطوق أو المكتوب فقط، وذلك أن كلاً منهما سيظل ناقصًا إذا عزل عن العمليات الإجرائية التى يؤديها.

إن هناك دائمًا دوافع واستراتيجيات، تمنع إنشاء النص والانتفاع به – كما يقول دوبوجراند ودرسلر – سريان مفعولهما. وينبغى لنا دائمًا أن نسعى إلى اكتشاف هذه الدوافع والاستراتيجيات[88].

ويُبين سوونسكى أن تداولية النص، قد عُنيت ببحث عوامل التحقيق النص Texrealisierung الخارجة عن النص، بالدرجة التى تعين بها هذه العوامل إنجاز

---

(85) Hymes, Dell. Models, ibid, p. 64
(86) Salzman, p. 20
(87) تظهر العوامل النصية الداخلية فى علم دلالة النص، وتحليل مضمون النص، ونحوه، وأسلوبه. أما العوامل الخارجية، فتظهر فى وظيفة النص الاتصالية، وصيغته الاتصالية.
(87) De Beaugrande / Dressler, Introduction, p. 53

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النص وصيغته ومقصده[89].

كان دوبوجراند ودرسلر قد حددا معايير سبعة للنصية textuality، جعلا منها القصدية intentionality، التي تدخل مع الموقفية situationality في مجال اختصاص تداولية النص. وبالرغم من أن الوحدات اللغوية والأنماط البنائية، تمثل النشاط المركزي في البحث اللغوي، فإنه من الضروري أن نعنى بالعمليات التي تناول تلك الوحدات والأنماط أثناء الانتفاع بها في الاستعمال. وإذا كان النص – كما يقول دوبوجراند ودرسلر – يمثل ناتج تلك العمليات الفعلي، فإنه لا يمكن أن يفسَّر على أنه تركيب من الوحدات الصرفية والجمل. إننا نرى – بالأحرى – أن الوحدات الصرفية والجمل، توظف بما هي وحدات وأنماط إجرائية operational units and patterns تشير إلى المعاني والأغراض أثناء الاتصال[90].

وبالرغم من أن السبك cohesion والحبك coherence من أوضح معايير النصية؛ باعتبار السبك في النصوص السطحية، وباعتبار كون الحبك بين عوالم النص، وباعتبار أنهما معًا يشيران إلى كيفية تكيف العناصر المكونة للنص بعضها مع بعض لصنع المعنى، بالرغم من ذلك كله، فإن أفكارنا عن السبك والحبك لا تبدو نافعة في دراسة النص إلا إذا تعاملت مع كيفية قيام الصلات والعلاقات بين المتواليات الاتصالية Communicative occurrences. وتتعامل التداولية مع هذه المتواليات باستكشاف تصرفات المتجين (المقصدية) أو المستقبلين (المقبولية)، واستكشاف الأوضاع التي يقع فيها الاتصال[91].

إن السبك والحبك، لا يمكن لهما أن يقدما فواصل مطلقة بين النصوص و اللانصوص في الاتصال الفعلي. إن الناس يستعملون نصوصًا – أو يمكنهم استعمالها – في حال تبدو معها تلك النصوص – لدواقع متنوعة – غير مسبوكة سبكًا

(89) Sowinski, S. 64
(90) De Beaugrande / Dressler, p. 33
(91) المرجع السابق ص 31.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تامًا ولا محبوكة حبكًا كليًا. من أجل ذلك، أدرجت تصرفات مستعملى النص attitudes of text users بين معايير النصية.

إن التركيب اللغوي ينبغى أن يقصد إلى أن يكون نصًا وأن يكون مقبولاً؛ حتى يصير نافعًا فى التفاعل الاتصال. وتحتوى تلك التصرفات على شئ من التسامح مع ما يعتور السبك أو الحبك من اضطرابات، مادمنا نعلى من شأن طبيعة الاتصال الغائية. إن إنتاج النصوص واستقبالها باعتبار وظيفتها أحداثًا خطابية discourse actions مما يناسب قصدًا أو هدفًا بعينه. ويتضمن مبدأ المقصدية، مقاصد منتجى النص، ويعنى هذا الاصطلاح – على نحو أشد مباشرةً – أن المنتج يقصد إلى التركيب اللغوى أو الهيئة اللغوية تحت الإنتاج؛ لتكون نصًا مسبوكًا ومحبوكًا. وتضع بعض المواقف مثل تلك الحدود على الزمان ومصادر العمل، بحيث لا يتحقق هذا المقصد من خلال النص المعروض تحققًا كاملاً. ومن الأمثلة على ذلك نقصان السبك فى المحادثة أحيانًا، نحو:

– هل أنت – حلام تضحك ؟

وهذا نوع من "عدم الاتساق" بين الأبنية السطحية الذى يسمى فى البلاغة الكلاسيكية anacoluthon؛ وهو يشير إلى تأثير العوامل الموقفية: فالمتكلم هنا – مثلاً – تخلى عن المنطوق الذى بدأه لتوّه، واستجاب لإقلاق أوقعه عليه مشارك آخر. ويُسمح عادةً بمثل هذه التوقعات والتحولات، بما لا يؤدى إلى تشوش الاتصال، لا سيما إذا كانت بواعثها ظاهرة على نحو مقبول[92].

ويمكننا أن نجد مثل هذا الأمر فى إنقاص الحبك؛ وذلك أن منتجى النص، يمكن أن يصيروا إلى بلبلة وعدم انسجام، إذا اعترى الموقف تغير فى اتجاهه على نحو ما:

«حسنًا، سيدى» قال الشرطى، «إنه الرجل الذى كنا نبحث عنه. أما الرجل الذى كنا نبحث عنه، فإنه لم يكن الرجل الذى أردنا، سيدى، إذا فهمت طريقتى اليومية».

---

(92) المرجع السابق ص 113 – 114.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن هذه السلسلة من التوكيدات غير اللفظية، تنهض من حال تعرّف خاطئ. ويستطيع منتج النص – بحسب الحاجة – أن يقلّل الحبك – عن عمد – لعمل تأثير خاص.

تعين المقصدية إذن – بمفهومها الواسع – جميع الطرق التى يستخدم بها منتجو النص نصوصًا؛ لتعقب مقاصدهم وإنجازها.

وقد حظيت المقاصد باهتمامات واسعة من ميادين مختلفة؛ مثل علم الاجتماع، وعلم النفس، والفلسفة، والذكاء الاصطناعى. واختلفت النظرة إلى وظيفة النصوص فى هذه الميادين المتعددة على نحو ما: يتحسَّس علماء الاجتماع استعمال النصوص فى أنظمة المبادلة الكلامية "speech exchange systems"، حيث يتفاعل المشاركون فيما بينهم ويتقاسمون دورات الكلام. ويؤكد علماء النفس مقصد المنتج الذى يقود وعى المستمع. ويبرهن الفلاسفة على أن منتج النص الذى يعنى شيئًا ما عن طريق النص، يقصد إلى منطوق النص؛ لإنتاج تأثير ما فى المستمع بواسطة التعرف على هذا المقصد. أما الباحثون فى الذكاء الاصطناعى، فإنهم يهتمون بخطط الناس وأهدافهم من أجل تحليل معانى الكلمات تحليلاً أفضل، تلك التى تكمن – عن حدة ذهن وحذق – فى مقاصدهم أكثر من كونها فى إظهاراتهم الطبيعية physical manifestations[93].

وكان هايمس مهتمًا بالأغراض – الأهداف purposes - goals ، وجعلها من مكونات الكلام الجوهرية. وهى بالطبع من المكونات التداولية أو غير اللغوية؛ فكل الوقائع الكلامية والأحداث الكلامية لها أغراض، حتى وإن كان هذا الغرض – بالمصادفة – هو الاتصال الاجتماعى فحسب phatic. وتشترك وقائع متعددة – أحيانًا – فى الأسلوب نفسه، وتتمايز فقط عن طريق الغرض والمشاركين، أو عن طريق الوضع.

---

(93) المرجع السابق ص 116.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد لاحظ هايمس أن غرض واقعة بعينها، لا يحتاج – من وجهة نظر الجماعة – إلى أن يكون مطابقًا أغراض أولئك الذين ينخرطون فيها. وجعل هايمس استراتيجيات المشاركين محددًا جوهريًا لشكل الوقائع الكلامية[94]. ويستطيع الأفراد – على كل مستوى من مستويات اللغة – تسخير النظام لعوامل شخصية أو جماعية أو لمؤثرات فنية. وتصف إرفين Ervin واقعة التحية مثلاً، بأنها افتتاحية ضرورية في كل مواجهة encounter. ويمكن – في الواقع – أن تستعمل هذه الواقعة تحديدًا للوقت الذي تقع فيه تلك المواجهة. ويحدد المستوى النسبي: مَن الذي ينبغي له أن يبدأ بتحية الآخر؛ فمن المألوف أن يحيي ذو المستوى الأدنى ذا المستوى الأعلى. وهناك العبارة المأثورة: إذا حيّا شخصان أحدهما الآخر، فلأحدهما العار وللآخر الفخار[95].

وقد عُني علم اللغة الحديث – متأثرًا تأثرًا أعمق بالبحث في فلسفة اللغة – بمسألة كيفية ارتباط المقاصد في الواقع بشكل المنطوق ومفهومه.

كان الزعم عند الفلاسفة – كما يقول أوستين Austin – قد ظل مدة طويلة بأن عمل تبليغ بعينه statement ، يمكن له – فقط – أن يصف بعض الوقائع، أو أن يعيّن حقيقة ما، تنجز صدقًا أو خطأ. ولاحظ النحاة بحق أن ليست كل الجمل مستعملة لصنع تبليغات؛ فإلى جانب التبليغات هناك الاستفهام، والتعجب، والتعبير عن طلب أو رغبة... إلخ[96]. وقد عنى أوستين بما أسماه الجملة الإنجازية Performative sentence أو المنطوق الإنجازي performative utterance. ويعني أن إنتاج المنطوق هو الذي ينجز فعلاً بعينه. إن نطق الكلمات هو المؤدى إلى إنجاز الحدث. وإنجاز الحدث هو أيضًا موضوع المنطوق، ولكن هذا المنطوق هو الشيء الوحيد الضروري الذي يجعلنا نتهي إلى إنجاز الحدث. ويجب أن تكون الملابسات التي تنطق فيها الكلمات مناسبة. ولهذا الإنجاز شروط يسميها أوستين بـ "شروط الإنجاز

(94) Hymes, Models, p. 61
(95) Coulthard, An Introduction, pp. 44 – 45
(96) Austin, J. L. : How to do Things with Words, Oxford Uni. Press (1992) p. 1

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموفق conditions of happy performative، وخلاصتها أن الأعراف المشتركة لها اثرها فى نطق الأشخاص كلمات معينة فى ملابسات معينة[97].

وقد بنى سيرل Searle على عمل اوستين. وحاول سيرل تطوير فكرة افعال الكلام speech acts؛ أى الأفعال التى ينجزها المنطوق على نحو مقصدى أو عرفى. وميز سيرل بين:

(أ) افعال المنطوق utterance acts؛ أى التلفظ البسيط بالمفردات والجمل.

(ب) الأفعال المختصة بقضية بعينها propositional؛ أى استعمال المحتوى content والمرجع reference.

(ج) الأفعال الإنجازية illocutionary؛ أى النشاطات العرفية التى تصحب الخطاب، نحو: الوعد، والتهديد ... إلخ[98].

(د) الأفعال التأثيرية perlocutionary acts؛ أى إنجاز التأثيرات فى مستقبل المنطوق أو النص، نحو: إقلاقه أو إقناعه ... إلخ.

وقد عُنى سيرل بشرح الأعراف conventions التى تواتم الأحداث الإنجازية: فالوعد – مثلاً – يستلزم أن تذكر فعلاً فى المستقبل، يريده المستمع. وينبغى لك – حتى تكون صادق النية – أن تقصد إلى عمل هذا الفعل، وأن تعنى نفسك بفعله .

وكان بول جريس Paul Grice قد قدم مجموعة من المبادئ التى يتبعها المشاركون فى التخاطب، وهى:

(1) مبدأ العمل المشترك principle of co – operation:

وذلك أن تجعل إسهامك فى التخاطب بحسب الحاجة؛ أى يقع فى الحال التى ينبغى أن يقع فيها، وفقًا للغرض المقبول، ووفقًا لاتجاه المبادلة الكلامية التى دخلت

---

(97) المرجع السابق ص 4 – 6.

(98) Searle, John : Speech Acts, London – Cambridge (1969) p. 23

(99) المرجع السابق ص 57.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيها. ويطلب العمل المشترك – بخاصة – فى المواقف التى يحتاج فيها احدهم إلى نصيحة أو مساعدة.

(2) مبدأ الكمية principle of quantity:

وذلك أن تجعل إسهامك مُعلِمًا informative بالقدر المطلوب، لا اكثر وينبغى له حتى يكون مُعلِمًا، ان تعطى أحدهم معلومة جديدة أو غير متوقعة، إذا سنحت المناسبة لهذا.

(3) مبدأ الكيفية principle of quality:

ويختص بالصدق، اى الاّ تقول ما تعتقده خطأً، أو ما تجد نفسك معه محتاجًا إلى دليل مناسب. ويطبق هذا المبدأ على النصوص العلمية فى صرامة أشد مما نعرفه المحادثة. ولكن ينظر إليه فى المحادثة – بعامة – على أنه مما يجبر عليه المرء اجتماعيًا.

(4) مبدأ العلاقة principle of relation:

ويعنى النظر إلى مدى مناسبة الإسهام. ولهذه المناسبة مظهران اثنان على الأقل: (أحدهما) نوعية المعرفة التى ترتبط بمحور بعينه. و(الآخر) نوعية المعرفة التى تفيد فى بلوغ هدف بعينه.

(5) مبدأ الطريقة principle of manner:

ويشتمل على الطرق المتعددة التى تستخدم فى تنظيم النص وإنتاجه : كأن تتخذ طريقة صريحة واضحة، أى أن تقرر مقاصدك مما تقول على نحو مخطط له. ويتضمن مبدأ الطريقة توصية اخرى، هى أن تتجنب الإبهام فى تعبيرك. وهنا – كما يذكر جريس – نلقى العقبة المحتملة فى الاتصال، فى مرحلة رسم الخطة التى اختبرت من قبل، كما نلقاها فى تنظيم المضمون على أساس التعبير السطحى surface expression، وهى – فى هاتين الحالتين – أشق مما نلقاه في عمل هذا الاختيار ذاته.

ولهذا المبدأ جانب ثالث، هو تجنب الغموض. وبالرغم من ان كثيرًا من التعبيرات اللغوية الطبيعية، يمكن أن تكون لها معان مختلفة فى ظروف مختلفة، فإن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغموض لا يقع إلا عنـد العجز عن تقرير المعنى المقصود تقريرًا حقيقيًا. وينبغي لنا – حال القصد إلى معان متعددة – أن نستخدم مصطلح الكفاءة المتعددة polyvalence.

ولما كانت الكفاءة المتعددة عسيرة بلا شك، فإن الغموض يؤدى إلى ضجر زائد؛ من حيث إن الجهد المصروف إلى المادة، لا يقصد إليه ولا يأتي بنفع. وينتج عن ذلك أن يبادر المشاركون إلى التخلص من الغموض عن طريق الفعل التنظيمي regulative action، الذى يؤدَّى عادة بوساطة شرح المحتوى في شكل غير غامض.

وحدد جريس لمبدأ الطريقة جانبًا رابعًا، هو الإيجاز. فإذا كان مبدأ الكمية يقيد بقدر ما تقول، فإن الإيجاز brevity يقيد بمقدار ما تستغرق في قوله.

وهناك جانب آخر لمبدأ الطريقة، هو اتباع النظام؛ أى أن تأتي بموادك materials على النظام الذى تستلزمه. إن البيانات الواضحة – مثلاً – تعد استراتيجيات نظامية عادية لذكر الوقائع والمواقف؛ أى في السياق الزمني الذى تقع فيه الأشياء[100].

كانت عناية جريس مكرّسة لتأمل الاستلزام الحواري (أو التضمينات الخطابية) conversational inplicatures؛ أى المعرفة المنقولة، عندما يُضمن الناس أو يعزون أو يقصدون شيئًا بعينه متمايزًا عمّا يقولون[101]. ولكننا نلاحظ أن جريس لم يعن بمثل هذا القدر، بأثر الأعراف والمواقف في مباينة المقاصد للمنطوقات الحرفية؛ فالمنطوق الواحد يمكن أن يكون استفهامًا أو عرضًا أو التماسًا أو توجيهًا أو أمرًا، أو غير ذلك، تبعًا للموقف والعرف اللغوى.

وقد كان هذا الأمر، هو المحرك الدافع لنظرية أفعال الكلام إلى وضع استراتيجية

---

(100) Grice, Paul : Logic and Conversation, in : Cole and Morgan (eds.) (1975) pp. 41 – 58, p. 43

أو: هوبوجراند – درسلر ص 118 – 134

(101) المرجع السابق ص 43.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

لتأسيس وجود غرض إنجازى قصى وراء الغرض الإنجازى المتضمّن فى معنى الجملة، والتماس الوسائل التى تنتج معرفة ماهية هذا الغرض الإنجازى القصى، سعت هذه النظرية إلى بيان الآليات التى تدرك بها أفعال الكلام غير المباشرة وتفهم.

فى هذا الإطار، بيّن سيرل – مثلاً – أن هناك بعض الصيغ التى تميل إلى أن تؤسس عرفيًا conventionally، على أنها صيغ قالبية معيارية لأفعال الكلام غير المباشرة. وهى صيغ تكتسب استعمالات عرفية فى الوقت الذى تحتفظ فيه بمعانيها الحرفية، مثل صيغ التأدب. ويقترح سيرل أن صيغًا نحو: "هل يمكنك" أو "هل لك" أو "أريدك أن" وغيرها من الصيغ الأخرى، إنما هى طرق عرفية conventional ways لعمل الالتماسات[102].

وبالرغم مما قدمته نظرية أفعال الكلام من إسهامات فعالة فى بحث التداولية فإن هناك قيودًا تلازمها كما لاحظ سيرل ذاته، أحد مؤسسيها الأوائل. إن هناك – مثلاً – بونًا شاسعًا بين الأفعال المحددة تحديدًا حسنًا نسبيًا، مثل "الوعد" أو "التهديد" والأحداث الضافية تمامًا مثل "الشرح" أو "التوكيد" أو "الوصف" أو "الاستفهام"، وهى جميعًا أفعال إنجازية[103].

وفى بحث التداولية وضع دوبوجراند ودرسلر يديهما على ما أسمياه "بدء التنشيط الخططى" threshold of plan activation الذى وُهب العقل الإنسانى، ويُقصد به درجة الوعى بالحالات أو الأوضاع المستقبلية المحتملة التى يُحتاج إليها للشروع فى تطوير الخطة، وذلك أنه عندما تظهر حالة مستقبلية مرغوب فيها ظهورًا كافيًا، فإن بلوغها سوف يفشل، ويلغى المخطط – إذ ذاك – مشكلة. من هنا، بعد التخطيط نمطًا محكمًا شاملاً لحل المشكلة مطبقًا على تقدم حالة المخطط ناحية الهدف فى موقف معروض. إن الخطة ينبغى لها أن تبدأ بالحالة الراهنة current state (لحظة

(102) Searle, John , R. : Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts, Cambridge Uni. Press (1993) p. 49
(103) Searle, Speech Acts, ibid, p. 23

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمل الخطة) أو بالحالة الابتدائية initial state، حيث تبدأ الحالة سريانها أخيرًا. ولنا ان نزعم أن الحالة الهدف the gool state، سيصير مرغوبًا فيها من وجهة نظر المخطط.

ورد إن مقدار التخطيط وكثافته سوف يتنوعان وفقًا لعوامل عدة، يحددها دوبوجراند وردسلر فيما يلى:

(أ) احتمال بلوغ الهدف أو عدم احتماله.

(ب) حضور الأعراف الاجتماعية المثبتة لبلوغ الهدف أو غيابها.

(ج) التصادم المحتمل مع المخططين النظراء (أى الفاعلين الآخرين الذين تتصادم أهدافهم مع أهداف غيرهم).

(د) المجال الذى يستلزمه التخطيط، أى المحدد المقتضب فى مقابل المحدد المطوّل (عدد الخطوات التى يحتاجها إنجاز الخطة)[104].

ولعلنا نلحظ فى «مبدأ التنشيط الخططى» عند دوبوجراند ودرسلر تأثرًا ببعض مبادئ جريس السابقة، لا سيما مبدأ العمل المشترك، والكمية، والعلاقة. فضلاً عن ذلك، فقد فاتهما الوقوف على عوامل مختلفة تؤثر فى تفاوت المشاركين فى درجة الوعى بالحالات المستقبلية المحتملة عند تطوير الخطة أثناء الاتصال ومع تغير الملابسات والظروف، ونعنى بذلك الاتصال اللفظى المنطوق بخاصة. كذلك، فإن المشاركين يختلفون فى القدرة على استكشاف خطط الآخرين، والقدرة على سياسة الموقف نحو الهدف الخاص، والقدرة على توقع مقدار إسهام المشارك فى الاتصال فى إتمام الهدف.

(د) التداولية والموقفية :

الموقف من العوامل الخارجة عن اللغة / النص. ويُعنَى فى دراسة الموقف بتقرير العوامل الاجتماعية التى تكون خلفية المنطوق أو النص – موضوع البحث – .

(104) De Beaugrande, Dressler: Introduction, p. 124

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وملابساته. وتضم هذه الخلفيات مكان التكلم وزمانه، والأحداث أو الوقائع السابقة التي ترتبط بظروف إنتاجه، وعدد المشاركين، وطبيعة شخصياتهم، وعلاقات الحالة الراهنة فيما بينهم في موقف بعينه، والمجالات التي يتحدثون فيها، وما يصاحب الكلام من افعال وحركات جسمية... إلخ.

ويعرّف فيشمان Fishman الموقف بانه الوقوع المتصاحب co- occurrence لمتكلمين اثنين (او أكثر)، يرتبط أحدهما بالآخر ارتباطًا خاصًا، ويقيمان بينهما اتصالا حول محور بعينه، في وضع خاص. وبناء على ذلك، فإن الشبكة الاجتماعية – أو الجماعة – يمكن أن تحدد حفلة شاي بين طلاب الجامعة، على أنها موقف مختلف اختلافًا تامًا عن محاضرة تضم هؤلاء الطلاب أنفسهم. وتختلف محاور الكلام في الموقفين ايضًا، كما تختلف أماكنهم وأزمنتهم.

من ناحية أخرى، فإن العلاقات relationships أو الأدوار roles التي يؤديها المتكلمون – أحدهم إزاء الآخر – تبدو هي الأخرى متباينة. وكل اختلاف من هذه الاختلافات، يكفي لتحديد المواقف بأنها: الاختلاف – بدرجة كافية – بين أفراد جماعة الجامعة؛ بحيث يؤدي إلى استخدام تنوع لغوي linguistic variety في حالةٍ بعينه في حالةٍ أخرى.

ويعرف افراد الشبكات الاجتماعية الذين يشتركون في مخزون لغوي واحد، بعضهم متى يتحوّلون من نوع إلى آخر. وينتج عن ذلك ما يسمى بـ «مقولة التحوّلات الموقفية situational shifts ». وقد يستلزم التحول في الموقف تنوعًا لغويًا بعينه. وقد ينظر إلى التحول في التنوع اللغوي على أنه علامة على التحول في العلاقة بين الأفراد المنتمين إلى شبكة اجتماعية بعينها، كما يمكن أن يعدّ علامة على التحول في محور تفاعلهم وغرضه، أو علامة على التحول في خصوصية تفاعلهم ومكانته[105].

(105) Fishman, J., A. : The Sociology of Language in: Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context, ibid, pp. 54 – 85, pp. 48 – 49.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وينبغى لنا أن نلاحظ أن فيشمان يقول: "قد يستلزم.." و "قد ينظر...". وهذا يعنى أن التحول فى الموقف لا يستلزم دائمًا تحولاً فى النوع اللغوى: ربما ينطلق أفراد الشبكة أو الجماعة الكلامية من موقف إلى آخر دون أن يخرجوا من تنوع لغوى إلى آخر. إن الحكم باختلاف الموقف أو عدم اختلافه – بالنظر إلى استخدام التنوع اللغوى – إنما هو موضوع التنظيم الاجتماعى الداخلى لشبكة أو جماعة كلامية معينة.

إن أعضاء تلك الشبكات أو الجماعات الأصليين، يكتسبون – فى بطء ودون وعى – ما يسمى بـ "الكفاءة الاتصالية اللغوية الاجتماعية" من منظور الاستعمال اللغوى المناسب. وهذا يعنى – كما يقول فيشمان – أنهم ليسوا بالضرورة واعين بالمعايير التى تقود سلوكهم اللغوى الاجتماعى[106].

إن مراجعة منهج الملامح التمييزية للغة، وهو ما رأيناه عند هوكيت من قبل، تجعلنا ندرك حقيقة هامة؛ هى أن المرء إذا رغب فى دراسة نظام اتصالى أو معاملة اتصالية، فإنه ينبغى له أن يتقصّى الحقائق عن المشاركين: من هم؟ وأين يتصلون؟ وفى أى ظروف يقيمون اتصالهم؟ ... الخ. وهذه الاهتمامات ضرورية فى دراسة اللغة الإنسانية وتقويمها فى سياق المجتمع والثقافة.

لقد لاحظ الباحثون – لاسيما اللغويين الاجتماعيين والسيميائيين الاجتماعيين – تنوع المواقف التى تُستخدم فيها اللغة، وما يرتبط به من تنوع فى المقاصد والأغراض، والأساليب، ومستويات التشكيل ونحوها.

وكان مالينوفسكى قد عرض لما أسماه "سياق الموقف" Context of situation وهو محيط الكلام. وكان يرى ضرورة تحديد ما يخرج عن المحيط المباشر؛ أى ما هو أكثر منه. وفى أى وصف مناسب، لا يصبح من الضرورى – وفقًا لما يراه – تقديم معلومات عما يحدث فى النوّ فحسب، بل عن الخلفية الثقافية الكلية أيضًا؛ وذلك أن ما هو مقدم فى أى نوع من التفاعل اللغوى وفى أى نوع من تبادل المحادثة، لم يكن

---

(106) المرجع السابق ص 49.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

محض مشاهدة وأحداث مباشرة محيطة بالواقعة، ولكنها أيضًا التاريخ الثقافي الكلي الذي يكمن خلف المشاركين، وخلف نوع العمليات المستخدمة محددة أهميتها بالنسبة إلى الثقافة، سواء أكانت عمليات إجرائية أو طقوسية practical or ritual. ويمثل ذلك كله جانبًا من جوانب تفسير المعنى.

وهكذا قدّم مالينوفسكي الفكرتين : سياق الموقف Context of situation وسياق الثقافة Context of culture. وهو يرى أن كلتا الفكرتين ضرورية لفهم النص فهمًا مناسبًا.

وربما اختلفت النشاطات التي يمارسها الناس من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر، ولكن المبدأ العام بأن كل اللغات ينبغي لها أن تُفهم في سياقها الموقفي، يظل مبدأ ثابتًا لكل جماعة في كل مرحلة من مراحل تطورها[107].

وقد تبع فيرث Firth مالينوفسكي، في عنايته بخلفية اللغة الثقافية. واضطلع بفكرته عن سياق الموقف، فبناها وفق نظريته اللغوية الخاصة. وفي عام (1935م) عبّر فيرث – الذي زامل وقت شبابه مالينوفسكي بجامعة لندن، والذي صار بعد ذلك أول أستاذ لعلم اللغة العام بجامعة بريطانية – عن نظريته بأن علم اللغة كله إنما هو دراسة المعنى، وأن المعنى كله إنما هو وظيفة في سياق.

وجد فيرث – على نحو ما – أن تصور مالينوفسكي سياق الموقف، لم يكن مناسبًا تمامًا لأغراض النظرية اللغوية، لأنه لم يكن تصورًا عامًا بدرجة كافية. كان مالينوفسكي مهتمًا بدراسة نصوص بعينها، باعتباره أنثروبولوجيا في المقام الأول. ومن أجل ذلك، كانت فكرته عن سياق الموقف مخصّصة لشرح معنى حالات خاصة من الاستعمال اللغوي وتفسيره. وكان فيرث في حاجة إلى مفهوم للسياق، يمكن أن يشكّل في نظرية لغوية عامة مفهوم أكثر تجريدا من ذلك المفهوم، وليس تمثيلاً سمعيًا صوريًا بسيطًا للمشاهد والأحداث المحيطة بالواقعة اللغوية. من أجل ذلك، صنع فيرث

---

(107) Halliday, M., A., K., andRuqaiya : Language, Context and Text, ibid, pp. 6-7.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إطارًا لوصف سياق الموقف الذى يمكن أن يستعمل لدراسة النصوص، باعتبارها جزءًا من النظرية اللغوية العامة. وكانت مكونات سياق الموقف عنده هى:

(أ) المشاركون فى الموقف : وهو ما يشير إليه بالأشخاص والشخصيات، وفقًا لما يجعله علماء الاجتماع الحالات والأدوار التى يضطلع بها المشاركون.

(ب) فعل المشاركين : أى ما يفعلون، بما فى ذلك الفعل اللفظى verbal action والفعل غير اللفظى non – verbal action.

(ج) سمات أخرى تناسب الموقف: كالأشياء والوقائع المحيطة، بما لها من تأثير فيما يحدث.

(د) تأثيرات الفعل اللفظى: أى ما يطرأ من تغييرات ناتجة عما يقوله المشاركون فى موقف بعينه.

كان تخطيط هذا الإطار الأولى فى عام 1950م. ولعل أفضل تطبيق له هو ما جاء فى دراسة زميله ت. ف ميتشيل T.F. Mitchell الذى صار فيما بعد أستاذ علم اللغة بجامعة ليدز. درس ميتشيل لغة البيع والشراء، لغة التعامل فى المحال والأسواق والمزادات، والتى لاحظها فى شمال أفريقيا. كانت اللغة المدروسة هى العربية. واشتغل ميتشيل على أفكار فيرث وأوضحها جيدا بالنظر إلى طبيعة سياق الموقف فى نص بذاته[108].

وقد أعقب ذلك ما شرع فيه الأنثروبولوجى الأمريكى ديل هايمس فى بحثه إثنوجرافيا الاتصال (1967) من اقتراح مجموعة من المفاهيم لوصف سياق الموقف، ولعن نلحظ فيها شبها بمفاهيم فيرث. وقد عرض هايمس فى هذا البحث لمفاهيم موقفية هامة، نحو: الوضع، والمشاركين، ومقصد الاتصال[109].

وقد قاد بحث هايمس هذا إلى تجديد العناية بالطرق المختلفة التى تُستعمل بها

---

(108) المرجع السابق ص 8 – 9.

(109) انظر بحثه :

Models, ibid, pp. 59 – 65.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللغة فى ثقافات مختلفة، وبالقيمة الملقاة على الكلام، وبالصيغ البلاغية المتنوعة التى يمكن التعرف عليها... الخ.

أما هاليداى، فقد كانت له عناية خاصة بالموقف من منظور سيميائى اجتماعى social - semiotic، وهو علامة بارزة فى هذا الطريق:

يشير هاليداى إلى أن الجمل والكلمات الفعلية التى تكون تجربتنا المباشرة باللغة، تستمد أهميتها عما تكونه. ولكننا – من المنظور الاجتماعى – نقدر أن نشرح ماهيتها على نحو أفضل؛ لأننا نقدر أن نوجه انتباهنا إلى موقف الاستعمال اللغوى آخذين فى الحسبان العوامل غير اللغوية non – linguistic factors التى تستخدم محيطًا ضابطًا.

إن اللغة تحيا فقط عندما تُوظف فى محيط بعينه. إننا لا نجرب اللغة منعزلة، ولكن نجربها دائمًا فى علاقة بالحبكة أو سياق الحكاية: أى خلفية الشخصيات، والأحداث والوقائع التى تستمد منها الأشياء المقولة معناها. اللغة تقال لتوظف فى «سياقات موقف». وأى تدبر للغة التى يعوزها أن تكون مبنية فى موقف بعينه، باعتباره عنصرا جوهريا، هو تدبر مصنوع وغير مُجْزٍ.

ويقترح هاليداى تعديل فكرة «الموقف» بأن نضيف كلمة "مناسب". إن "سياق الموقف" لا يشير إلى كل القطع والأجزاء من المحيط المادى material environment مثل تلك التى ينبغى لها أن تظهر إذا حصلنا على تسجيل سمعى وصورى (بالصوت والصورة) لواقعة كلامية بجميع "المناظر" و "الأصوات" المحيطة بالمنطوقات. إن مثل تلك الملامح، ينبغى أن تكون مجردة ومباشرة جدًا، على النحو الذى تميل إليه مع الولدان الذين تولد ملاحظاتهم غالبًا علاقة تداولية pragmatic relation مباشرة بالمحيط، نحو أكثر قليلاً، أى أريد أكثر قليلا مما آكله الآن[110].

(110) Halliday, M.A.,K.: Language as Social Semiotic: The Social Interpretation of Language and Meaning, Rutledge, Chapman and Hall Inc. U.S.A (1993) pp. 28 - 29.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويحدد هاليداى عناصر النظرية السيميائية الاجتماعية للغة، بالنص، والموقف، والنوع النصى أو السجل، والشفرة، والنظام اللغوى (بما فى ذلك النظام الدلالى)، والبنية الاجتماعية. هذه العناصر تكوّن أحجار الزاوية الأساسية فى نظرية اللغة السيميائية الاجتماعية. ويعنينا منها الآن: الموقف. والموقف هو المحيط الذى يولد فيه النص. وإذا كان هذا المفهوم يرجع إلى ويجنر Wegener (1885م)، ثم جعل له مالينوفسكى دورًا رئيسًا فى إثنوجرافيا اللغة تحت ما أسماه «سياق الموقف»، ثم طوره فيرث (1957)[111]، وبين أن الموقف تمثيل مجرد للمحيط فى حدود مقولات عامة تلائم النص، فقد أكد هاليداى ضرورة عرض الموقف فى حدود أكثر تجريدًا، ما دامت له مثل هذه المكانة فى نظرية اللغة الاجتماعية العامة. لا يجب أن نفهمه على أنه موقف بل على أنه نمط موقفى situation type. إنه كوكبة من المعانى constellation of meanings المتولدة من النظام السيميائى الذى يُكوّن الثقافة.

من الصائب ما يراه هاليداى أن المستمع يمكنه – وقد أُعلم بمعلومة صحيحة – أن يحدس حدسًا معقولاً عما يذهب إليه المتكلم من قصد. ويبدو هذا افتراضًا ضروريًا، بالنظر إلى مكانة الاتصال. وهذه المعلومة الصحيحة هى ما يعنيه بالسياق الاجتماعى. إنه يتكون من خواص الموقف العامة التى تُوظف – فى مجموعها – على أنها محددات النص، من حيث إنها تعيّن التراكيب أو الهيئات الدلالية Semantic configurations التى يصنعها المتكلم نمطيًا فى سياقات نمط بعينه.

وترتبط هذه المعلومة بالنظام اللغوى والنظام الاجتماعى معًا. وهذا يعنى أن الموقف بنية لغوية اجتماعية نظرية. ومن أجل هذا، نفسر نمطًا موقفيًا خاصًا، أو سياقًا اجتماعيًا، على أنه بنية سيميائية. ويمكن أن تعرض البنية السيميائية لنمط موقفى ما على أنها مركبة من ثلاثة أبعاد:

(أ) النشاط الاجتماعى السائد.

---

(111) Firth, J., R. : Personality and Language in Society the Sociological Review, Vol. 42 (1957)pp. 182.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ب) علاقات الدور التى تضم المشاركين.

(ج) القناة الرمزية أو البلاغية.

ويُشار إلى هذه الأبعاد – على التوالى – بحقل الخطاب field، ومجرى الخطاب tenor ، وصيغة الخطاب mode:

فالحقل هو الحدث الاجتماعى social action الذى يوضع فيه النص ويشتمل على الموضوع الذى هو إظهاره الخاص.

والمجرى عبارة عن طائفة من علاقات الدور بين المشاركين المعنّين، ويشتمل على مستويات التشكيل levels of formality، بما هى حالة خاصة.

والصيغة هى القناة أو المسافة (طول الموجة) المختارة. وهى بالضرورة الوظيفة التى تختص بها اللغة فى بنية الموقف الكلية، وهى تشتمل على الوسيط (المنطوق او المكتوب) الذى يفسر بأنه متغير وظيفى.

وليس الحقل والمجرى والصيغة انواعًا للاستعمال اللغوى، كما أنها ليست مكونات الوضع الكلامى speech setting، بل هى إطار تصورى لعرض السياق الاجتماعى على أنه المحيط السيميائى الذى يتبادل فيه الناس المعانى[112].

وكان كل من سبنسر Spencer وجريجورى Gregory من بين اللغويين الذين أكدوا الحاجة إلى إحلال النص فى محله التاريخى واللهجى، ومن ثم الحاجة إلى ثلاثة أضلاع سياقية تحمل الأسماء ذاتها التى رأيناها عند هاليداى.

أما حقل الخطاب عندهم، فيربط الخطاب بموضوعه. على سبيل المثال، تختلف مقالة فى الفيزياء النووية عن رسالة غرامية. ويمكن أن يتغير الحقل فى النصوص الطويلة؛ ففى الروايات – مثلاً – ينتقل الراوى من حقل إلى آخر.

وأما الصيغة، فتعنى البعد الذى يُحسب فى الاختلافات اللغوية التى تنتج عن التمييز بين خطاب منطوق وخطاب مكتوب (وهما هنا يعنيان الوسيط). ويلاحظان

(112) المرجع السابق ص 109 – 110.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعناية – أن بعض النصوص كالقصائد، يبدو أصحابها على وعى كبير بالصيغة المنطوقة، بالرغم من أنهم – فى الواقع – يكتبون، وأن الوسائل التى يستخدمها الروائيون وكتاب المسرحيات لخلق "الإيهام" بالكلام الطبيعى، تعد جزءا من البعد الصيغى. ويلاحظ هنا أيضًا الفرق بين الكلام المدوّن والكلام غير المدوّن.

أما مجرى الخطاب، فهو يعكس العلاقة بين المتكلم أو الكاتب وبين المستمع أو القارئ، فى حدود درجات العمل على التوازن المتصل بين الرسميات القصوى والعرفيات القصوى[113].

ويدل المجرى كذلك – فيما يذكره مورلى Morley – على درجة شكلية الخطاب وألفته degree of formality and familiarity of discourse. وقد اقترح جوز M.Joose (1962) خمس مراتب لهذا الضلع:

- المجمد frozen: السيدة س يجب أن تبقى صامتة.
- الشكلى formal: لطفا، ابق هادئة، يا سيدة س.
- العرضى (يكون الراء) consultative: سيدة س ، هل لك ألا تتحدثى، من فضلك!
- الفجائى أو العرضى (بفتح العين والراء). Casual : الأفضل ألا تتكلمى الآن، يا–..
- الودى intimate شْ شْ ، يا عزيزى.

ويمكن أن يضاف إلى هذه القائمة اصطلاحات أخرى، نحو: غير رسمى informal، ومألوف familiar، وغير شخصى inpersonal، ودارج colloquial، وتقنى technical ...الخ.

أما درجة الألفة، فتنعكس – بدورها – على علاقات الحالة الراهنة بين

(113) Enkvist, Nils Erik: Lingusitic Stylistics, Mouton, The Hague – Paris (1973). And Spencer, Michael Gregory: Linguistics and Style. Oxford Uni. Press, London (1964) pp. 85 – 91.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المشاركين فى موقف بعينه، ومثال ذلك : علاقة المهندس بالعامل، وعلاقة الطبيب بالمريض، وعلاقة البائع بالمشترى، وعلاقة القاضى بالمحلفين، وعلاقة السبّاك بصاحب المنزل، وعلاقة الوالدين بولدهما... الخ.

ويضيف مورلى إلى ما تقدم ضلعًا رابعًا، كأنه ينقل المثلث السياقى إلى هيئة المربع، وهذا الضلع هو دور الخطاب role of discourse؛ ويعنى به وظيفة الاجتماعية. ويلاحظ أن مورلى هنا متأثر ببحث الوظيفة فى نظرية أفعال الكلام عند أوستين وسيرل وغيرهما، بل إنه يمثل بجمل صارت نمطية فى تلك النظرية، فقولك: «هل يمكنك أن تناولنى الملح، من فضلك»، يعد التماسًا. أما قولك: «إذا أردت استراحة، فلتكن كيت كات»؛ فإنه يعد إعلانًا. وقولك: «إذا فعلت هذا ثانية سأصفعك»؛ يعد تهديدًا. وهناك أدوار أخرى كالتهنئة، والوصف، والنصح، والتوجيه، والدعوة أو الاستدعاء، والتنبيه أو التحذير، والمزاح أو المباسطة ... إلخ.

بناء على ذلك، فإن ما يُسمى بتنويعات السجل register verities تُحصّل عن طريق المواءمة بين تجمعات الملامح الموقفية الخاصة وبين الملامح اللغوية المصاحبة: فونولوجية أو نحوية أو معجمية[114].

ويحاول بعض اللغويين التمييز بين الموقف والسياق. فإذا كان الموقف – بمفهومه العام – هو مجموعة العوامل الاجتماعية المختلفة التى تكون خلفية الحدث الاتصالى ومحيطه، فإن السياق – فيما يرى مورلى – مستوى يقع بين الشكل form والموقف situation. ويستخدم السياق عنده لجدولة مظاهر الموقف التى تؤثر فى الشكل المختار[115].

وقد سبق إلى هذا التمييز باحثون آخرون، على نحو ما نجد فى ملحوظة جان كوهين بأن الحاضر يؤرخ فى اللغة المنطوقة من خلال الموقف، بينما يؤرخ فى اللغة

---

(114) Morley, An Introduction, ibid, pp. 5 -6 .

(115) المرجع السابق ص 4.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المكتوبة من خلال السياق[116]. ويمكننا أن نجد مثل هذا التمييز عند أوجينيو كوزيريو Eugenio Coseriu؛ فالسياق عنده يعني المحيط اللغوي الخالص للعلامة في النص، أي المقول من قبل وما يقال بعد ذلك. أما الموقف، فيعني المحيط غير اللغوي للعلامة أو لسلسلة من العلامات، بما في ذلك من ظروف وملابسات تصاحب الحدث اللغوي، فضلاً عن معلومات يتجاوزها المتكلم والمستمع إذا كانت معلومة بينهما[117].

من ناحية أخرى، فقد اتخذ لودفيج سول Ludwig Soell الموقف عاملاً من عوامل التمييز بين الرسالة المنطوقة والرسالة المكتوبة: ففي الرسالة المنطوقة، يشترك المرسل والمستمع في موقف (غير لغوي) بعينه، وفي الرسالة المكتوبة ينبغي للكاتب أن يخبر القارئ المنفصل عنه – مكانيا – بالموقف (وهو ما يمكن أن يحدث بطريقة لغوية فحسب)، وإن أمكن التخلي عن مساعدة الموقف في الفهم. وهناك أحداث كلامية وكتابية بعينها (كالمكالمات الهاتفية، أو تبادل الرسائل) تبدو فيها تلك الفروق نسبية، لكنها لا تلغى؛ ولذلك تبقى خارج تأملنا تلك التحديدات الأساسية. ويؤكد سول أهمية معرفة الموقف في فهم اللغة المنطوقة، وفي الوقت ذاته يشير إلى أن المحادثات المكتوبة لا تفهم من غير المشاركين فيها[118].

وقد فطن سوونسكي أيضًا إلى مثل ذلك، في بحثه أشكال الاتصال؛ فالاتصال الشفهي – ما دام تلقائيًا وجاريًا على نحو غير تقليدي – يمكنه غالبًا أن يستغني عن

---

(116) كوهين (جان) : بناء لغة الشعر، ترجمة دكتور احمد درويش، مكتبة الزهراء، القاهرة، (1985م) ص 185.

(117) Coseriu, Eugenio: Textlinguistik, Eine Einfuerhrung, Guntar Narr Verlag, 2. durchges. Auflage, Tuebingen (1981) S. 94.

دراسة لتفصيل القول في الموقف والسياق:

محمد العبد (دكتور) : اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث في النظرية، دار فكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة – باريس، الطبعة الأولى، القاهرة (1990م) ص 69 – 81، ص 111 – 120.

(118) Soell, Ludwig: Gesprochene und geschreibenes Fanzoesisch. Erich Schmidt Verlag, 2. Auflage, Berlin (1980) S.20.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الميزات الخاصة التى تقيد بالأشخاص والمواقف، كما يمكنه الاستغناء عن الميزات الخاصة المقيدة بالمقصدية؛ وذلك أن المتكلم والمستمع فى مجال إدراكى متشابه وفى موقف متماثل، ويمكنهما التفاهم فى ملابسات موقفية محددة عن طريق تعبيرات مبنية (كأسماء الأعلام، والضمائر، وظروف المكان والزمان... الخ). وهذه هى الحال - مثلاً - فى محادثة بين شخصين أو أكثر، فى مكان واحد، وفى موقف واحد. ويقل عن هذا محادثة هاتفية؛ إذ لا يدل على مجال إدراكى مشترك.

فى مقابل ذلك، يلزم فى الاتصال الكتابى، الإلمام بتلك السمات الإحالية التى ترتبط بالأشخاص، والموقف، والمقصد، حتى لا تظل النصوص الناتجة عن هذا الاتصال موضع تساؤل[119].

وبالرغم من مناسبة هذا التمييز بين الموقف والسياق، فما زال لغويون يخلطون بينهما، ويجعلون الكلام عنهما معًا فى باب واحد هو السياق. وهذا ما نراه - مثلاً - فى بحث بنية السياق عند فان دايك[120]، كما نراه فى قائمة السياق التى صنفها إنكست[121] وجمع فيها بين ما أسماه عناصر السياق النصى وعناصر السياق الخارج عن النص. وليست الأخيرة إلا الموقف بالمفهوم الذى أسلفنا.

ولعله من الأحرى فى نظرنا أن نجعل مثل هذا التمييز تمييزا بين مفاهيم أساسية ثلاثة، هى الموقف، والسياق، والسياق الموقفى. ونقترح أن يبنى الموقف على كل العوامل الاجتماعية والثقافية والفيزيقية والسلوكية الحركية التى تصاحب الحدث الاتصالى بين المشاركين فيه، والعلاقات بينهم، ومكان الاتصال وزمانه ومدته، والمسافة الفاصلة بين المتكلم والمستمع ونحوها. أما السياق، فيختص - فيما نرى - بالسياق اللغوى، أى بالمحيط اللغوى للمنطوق أو النص، بما فيه من علاقات نحوية معجمية ودلالية، تربط بين الكلمات والجمل وأجزاء الكلام، مما يبرز أثره فى ترابط المنطوقات

---

(119) Sowinski, S. 68 .
(120) van Dijk, Teun, A : Text and Context, ibid. p. 191 .
(121) Enkvist, Nils Erik: Lingusitic Stylistics, Mouton, The Hague – Paris (1973) pp. 58 - 59 .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتماسكها، من أجل إنجاز المضمون أو المقصد. وأما السياق الموقفى فنقترح أن نجعله مبنيًا على أثر العوامل المحددة للموقف فى استخدام تنوع لغوى بعينه دون الآخر. وسوف يختص الموقف بالاتصال اللفظى المنطوق، كما يختص السياق بالاتصال اللفظى المكتوب. أما السياق الموقفى فهو مشترك بين كلا النوعين، ولكن يدل عليه فيزيقيا فى الاتصال المنطوق، بينما يخبر عنه لفظيًا فى الاتصال المكتوب.

ومهما يكن من أمر، فإن السياق الموقفى مقتصر على جدولة مظاهر الموقف التى لها تأثير فى الصيغة المستخدمة، قد أخذ على عاتقه عبء النظر فيما عرف بالسجل register. وقد خضعت الدراسات المبكرة عن السجل لتوجه المبدأ العام: أن اللغة تتنوع مع الموقف، وأن نوعًا معينًا من اللغة يناسب استعمالا معينًا؛ فلغة الوثائق القانونية – مثلاً – لا تُستخدم فى أطروحة للدكتوراه، أو فى حفل عشاء. من هنا: عرّف «السجل» بأنه تنوع من اللغة، يستعمل فى سياق موقفى خاص[122].

وقد وضع هاليداى تمييزا أوليًا بين نمطين من التنوع اللغوى : «اللهجة»: وتعرّف بأنها تنوع وفقًا للمستعمل، و«السجل» ويعرّف بأنه تنوع وفقًا للاستعمال. وإذا كانت اللهجة هى ما يتكلم به شخص ما محددة بهوية هذا الشخص، فإن السجل هو ما يتكلم به شخص ما محددًا بما يفعله هذا الشخص فى الزمان.

وبناء على ذلك، يعرف هاليداى السجل بأنه تركيب من المصادر الدلالية التى يجعلها أصحاب ثقافة معينة مقيدة – على نحو نمطى – بنمط موقفى بذاته. إنه الاحتمالية المعنوية التى تعد سهلة التناول فى سياق اجتماعى خاص. ويمكن أن

---

(122) Morly, G., D. : An Introduction to Systemic Grammar, ibid, pp. 4 -5 .
وينبغى أن نلاحظ الفرق بين مفهوم هذا الاصطلاح فى علم اللغة الأمريكى وعلم اللغة فى انجلترا: ففى علم اللغة الأمريكى يستعمل لتمييز بين التنوعات الواسعة من اللغة، كالتمييز بين اللغة الدارجة vernacular (الصيغة المنطوقة اليومية المستخدمة عفويًا)، واللغة المعيارية standard. وفى انجلترا يشير هذا المصطلح إلى أعداد محددة خاصة من التنوعات، كلغة القانون، واللغة العلمية، ولغة الدين، ولغة الأصدقاء الأوداء... إلخ. (راجع Salzman, p. 199).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوصف كل من الموقف والسجل المرتبط به، بأنه عبارة عن درجات متنوعة من التعيين specifity. ويمثل وجود «السجل» حقيقة التجربة اليومية: فالمتكلمون لا يجدون صعوبة في التعرف على الخيارات الدلالية semantic options، وضمائم الخيارات combinations of options التي تخضع لمسئولية ظروف المحيط الخاصة. وإذا كانت الخيارات تتحقق في هيئة القواعد والمفردات، فإن السجل انتقاء خاص من المفردات والأبنية، مقيدا بالموقف.

إن السجل مقيد بحدود المعاني، وليس كومة من صيغ التعبير العرفية المركبة على مضمون كامن، عن طريق «عوامل اجتماعية» لنوع أو آخر. إنه منتقى من المعاني المكونة للتنوع الذي ينتمي إليه النص[123].

ويستطيع البحث في تداولية الاتصال من جهة الموقف أو السياق الموقفي، أن يجد له ركائز نظرية ثابتة عند رواد اللغويين الاجتماعيين، أمثال برنشتاين Bernstein وجامبرز Gumperz ولابوف Labov وغيرهم.

يؤكد برنشتاين أن اللغة طائفة من القوانين التي ينبغي أن تمتثل لها كل الشفرات الكلامية speech codes. وتحقق هذه الشفرات إنما هو وظيفة الثقافة الفاعلة من خلال علاقات اجتماعية في سياقات بعينها. وتشير الصيغ أو الشفرات الكلامية المختلفة إلى شكل العلاقة الاجتماعية، كما تضبط طبيعة المواجهات الكلامية، وتخلق للمتكلمين أنساق اللياقة والعلاقة المتباينة. من هنا، فإن تجربة المتكلمين تحوّل بما يجعل للصيغة الكلامية أهمية أو مناسبة. وهذا تدليل اجتماعي لأن الصيغة الكلامية التي توخذ على أنها نتيجة شكل العلاقة الاجتماعية، إنما تمثل نوعية البنية الاجتماعية quality of a social structure[124].

ويرى جامبرز أن دراسة الاستعمال اللغوي الفعلي، تقضي بوجوب تحليل

---

(123) Halliday, Language as Social Semiotics, pp. 110 – 111.
(124) Bernstein, B. : Social Class, Language and Socialization, in : Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context, ibid, pp. 157 – 158, p. 161.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الظواهر اللغوية داخل عالم محدد اجتماعيًا، وأن المعطيات اللغوية – في تحليل اللغة تحليلاً شكليًا formal analysis- إنما تستخلص من الأوضاع التي تقع فيها[125].

ويرى لابوف أن القوانين الثابتة التي تحكم اللغة، لا يمكن تحصيلها دون اعتبار السياق الاجتماعي للواقعة الكلامية[126].

(5) النص الأدبي بوصفه اتصالا :

يرى كثير من علماء اللغة المعاصرين أن النص – بوجه عام – هو حصيلة الكفاءة اللغوية الفردية لمؤلف بعينه[127]. وقد عنى علم اللغة النصي بتوصيف النص من الناحية الاتصالية، وعدّ ذلك من مجالات البحث اللغوي النصي. والحق أن هذا المجال قد لقي عناية منذ بدايات هذا العلم. وصُنفت النصوص على أنها عمليات اتصالية بين متناوليها. ويرى هؤلاء اللغويون أن النص هو الوجود الأصلي للغة بوجه عام. وقد شغلت بعض الأعمال في هذا العلم بالمظاهر اللافتة في النصوص، من حيث كونها تعاملاً لغويًا أو مركبات من التعامل اللغوي التي يحسب حسابها. ويذكر سوونسكي أن تزامن التطورات في علم اللغة النصي وعلم الاتصال، قد أسهم في التقنين الاتصالي للنصوص في علم اللغة النصي ذاته. واستتبع ذلك جعل النصوص وحدات اتصالية؛ فالمؤلفون يقومون على تأليفها من أجل سامعين وقراء يفضي إليه بشيء ما.

من هذه الناحية، فإن ذلك يجعلنا – كما يقول سوونسكي – ننظر إلى إنتاج النص (مكتوبًا أو منطوقًا)، وإلى التبليغ النصي، وإلى الاستقبال النصي، باعتبارها جميعًا أحداثًا أو عمليات اتصالية[128].

---

(125) Gumperz, J. : The Speech Community, op. cit., pp. 219 – 231, p. 219.
(126) Labov, W.: The Study of Language in its Social Context, in: pier Paolo Giglioli, op. cit, pp. 283 – 307, p. 299.
(127) Glinz, Hans: Textanalyse and Verstehenstheories, Bd. 2,2. Auflage, Akademische Verlagsgesellschaft, Athenaion – Wiesbaden (1978), S. 32
(128) Sowinski, ibid, S. 65.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد رأينا فى الموقف الاتصال العادى – مع جميع مخططات الاتصال السابقة – مرسلاً ينقل رسالة إلى مستقبل عبر قناة فى سياق بعينه. وهذه اصطلاحات ترتبط بالموقف الاتصالى بما هو عملية فيزيقية. وبالمصطلح الاجتماعى الذى حرص عليه أصحاب المنهج الإثنوجرافى مثل هايمس، لدينا المخاطب addressor الذى يوجه رسالة إلى مخاطب addressee؛ أى أن الشخص الذى ينقل علامة سمعية هو فاعل الخطاب، والذى يلتقط بأذنيه هذه العلامة هو المخاطب.

وفى النص الأدبى، لا نجد المرسل الذى ينقل رسالته إلى مستقبل نقلاً مباشراً كما هى الحال عادة. فى النص الأدبى، نجد موقفًا اتصاليًا داخل موقف اتصالى آخر. لدينا هنا رسالة يستقل معناها بذاته، ولا يعتمد على مَن أرسلها ومَن يستقبلها.

ويبين برند شبلنر Bernd Spillner أن الاتصال الأدبى يختلف عن عمليات الاتصال اليومية، لأن المؤلف عادة غير موجود وغير معروف للمتلقين، كما أن الاتصال يسير فى اتجاه واحد، وأنه يمكن – عند الرغبة – تكرار استقبال النص المكتوب، وأخيرًا فإن الاتصال الأدبى يوجه إلى غير معروفين للمؤلف. وعلى الرغم من أن الاتصال الأدبى له مثل هذه الخواص، إلا أنه يشترك مع أشكال أخرى من الاتصالات؛ ومن ثم يدرك النص الأدبى على أنه النص الذى ينتجه المؤلف على إطلاقه، ويُقبل اجتماعيًا على إطلاقه أيضًا[129].

أن ارتباط «أنا» و «أنت» بالموقف الاتصالى العادى، ارتباط مباشر، وكل منهما يستمد قيمته كليًا من ملامحه الخاصة، ومن محددات الموقف الآنية وملابساته وتفاصيله التى تزول بزواله. «أنا» و «أنت» فى مثل هذا الموقف مقيدة وليست أنماط مجاوزة «بكسر الواو»، صالحة لأن تتلبس فى أنا و أنتْ متعددة.

وفى النص الأدبى، يبدو الأمر مختلفًا. إن قيمة أنا و أنتْ هنا، تتولد – كما

---

(129) شبلنر (برند): علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة دكتور محمود جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع – القاهرة (1987م) ص 106 – 107.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول ودوسون Widdowson – تولدا جزئيًا مما تشير إليه هذه الضمائر في الشفرة التي يستخدمها المرسل والمستقبل على التوالي، كما تتولد تولدا جزئيًا من اكتساب سمات الغائب التي يستمدها من السياق[130].

إن طبيعة الاتصال الأدبي، أيا كان جنسه، تدل على أنه لا يرتبط بالموقف الاجتماعي ارتباطا مباشرا على النحو الذي رأيناه من قبل ؛ لأن له مواقفه الاجتماعية الداخلية التي ترتبط باستراتيجيات الخطاب، بما هو وحدة كلية متكاملة الأجزاء. ويرتبط هذا أيضًا بطبيعة اللغة المكتوبة ذاتها التي يظهر فيها النص عادة. في الخطاب المكتوب لا تعد الملامح المختصة بالمرسل – بما هو شخص – واردة إلا في المكاتبات الشخصية. أما المحددات الزمانية والمكانية التي يقع فيها الإرسال بالفعل، فهي – بوجه عام – غير واردة في هيئتها الفيزيقية المباشرة كما هي الحال في التفاعل المباشر، إنما تبدو مضمنة في النص ذاته. ويقود هذا – بالضرورة – إلى أمرين اثنين:

(أحدهما) السؤال عن مقدرة المتلقي على رصد الملامح والمحددات الضرورية عند التفسير.

و(الآخر) أن صيغة الاتصال في الخطاب الأدبي تميل إلى الجمع بين الصيغة المنطوقة والصيغة المكتوبة في آن معًا، بدرجات متفاوتة يتفاوت جنس الخطاب ومقوماته الجوهرية. وتستطيع المقارنة بين الشعر والرواية – بوجه عام – أن تطلعنا على أهمية الملامح المميزة لشخصيات الرواية والأوضاع المختلفة التي تتصرف فيها (وهو ما يمثل السياق الموقفي في الرواية) في فهم أدوارها وأفعالها، وفي فهم وجهة نظر صاحب النص أيضًا.

يبدو الموقف الخارجي مع النص الأدبي موقفًا بين نص قد انتهى وقارئ يبدأ فك شفرته الآن. ومن ثم، يبدو التفاعل في الخطاب الأدبي مستقلا عن التفاعل العادي، وليس للخطاب الأدبي صلة بخطاب سابق، ولا ينتظر أي نشاط لاحق: لفظيًا

(130) Widdowson, H., G.: Stylistics and the Teaching of Literature. Longman Group Ltd. London (1979) pp. 50 – 51.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو غير لفظي. ويصح هنا قول ودوسون بأن تفسير الخطاب الأدبي، لا يعتمد على كونه حالا (بتضعيف اللام) في سياق موقفي ما، أو على إدراكنا دور المرسل، أو على دورنا الخاص بوصفنا مستقبلين. إنه كل مستقل بذاته، يقبل التفسير من داخله بما هو وحدة من الاتصال قائمة بذاتها[131].

وقد نظرت النظرية الأسلوبية إلى أسلوب النص على أنه نتيجة لاختيار المؤلف من إمكانيات متنافسة في إطار النظام اللغوي واسترجاع من متلقي النص. إن تأثيرات الأسلوب تنتج من تبادل اللعب المتناظر بين نتيجة اختيار المؤلف المتضمنة في النص ورد فعل القارئ. وهكذا فإن الأسلوب ليس خاصة ثابتة في النص، وإنما هو كيفية ممكنة ينبغي أن تسترجع في عملية الاستقبال. وتتضح في النص نتائج الاختيار الذي تم ومقدمات رد الفعل الذي يحدده توقع القارئ. ويمكن أن توجد أي وظيفة من الوظائف الست عند ياكوبسون في الاتصال الأدبي.

وقد ربط تصور الأسلوب على أنه اختيار بوجهة نظر ريفاتير وبعض التصورات التي اعترفت بدور القارئ وبإمكانية إنشاء الأسلوب واسترجاعه. وقد أسست هذه التصورات الأسلوبية في نموذج من الاتصال الأدبي، واعتمد بعضها على البعض الآخر. ويجعل شبلنر هذه العناصر وما بينها من صلات في الشكل التالي (الشكل 3) :

---

(131) المرجع السابق ص 54.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

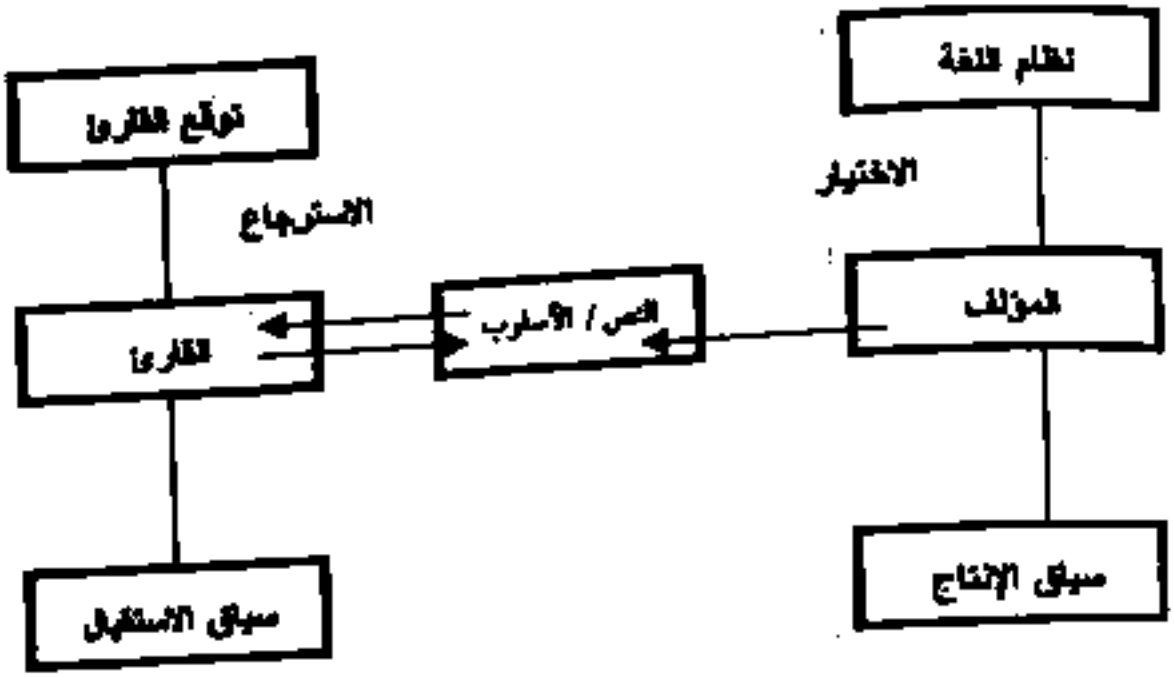

الشكل رقم (3)

ويلاحظ أن الإمكانيات الاختيارية للمؤلف تتحدد من خلال مجموعة من العوامل؛ لأنها تتصل بأغراض المؤلف. ويتحدد هذا الاختيار وقت إنتاج النص من خلال الظروف العملية الخاصة بسياق الإنتاج. ويتصل بذلك أيضًا الظروف الشخصية للمؤلف وشعوره ومعلوماته، ثم صلاته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ومكانته الاجتماعية ... إلخ. وإذا سمح بوجود مثل هذه التأثيرات العملية في النموذج، فهذا يعني أن يربط التفسير الأدبي والأسلوب بالسياق التاريخي[132].

وإذا كان القارئ في نظرية الاختيار والاسترجاع أقل أهمية، فإنه يحتل مكانة بارزة في نظرية الأسلوب الأدبية الاتصالية. ويقوم القارئ برد فعل لما يرمز له في النص، وهي الرموز الأسلوبية؛ حيث يرجعها – تحت ظروف معينة في عملية

(132) علم اللغة والدراسات الأدبية ص 108 – 110.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاستقبال – إلى الأسلوب، وفى ذلك تلعب العوامل العملية فى سياق الاستقبال دورًا بارزًا، كما يحدث فى أثناء إنتاج النص[133].

وكما ألمحنا من قبل، فإن الاسترجاع يتحدد من خلال توقع القارئ، ويرتبط بمعارفه وخبراته وإدراكه التمايزات المختلفة بين جنس أدبى وآخر.

وكانت رقية حسن قد اقترحت نوعًا من السياق يعرفه الفن اللفظى، هو سياق الإبداع. واللغة هى الاعتبار الأول من الاعتبارات الجوهرية التى ننظر من خلالها إلى هذا السياق[134]. اللغة مركزية فى دراسة الفن اللفظى، بتسمية رقية حسن؛ وذلك أن طريقنا إلى معانى معظم النصوص إنما يكون عبر لغتها. إن النصوص – فى المقام الأول – موضوعات لغوية. والنص الأدبى ليس استثناءً من هذا القانون. ولكن الحاجة – فى دراسة الفن اللفظى – إلى الاهتمام باللغة تتجاوز هذا. وهى تتجاوزه، لا لأنه فن، ولا لأن عمل اللغة هو – ببساطة – التعبير عن هذا الفن ؛ فالأحرى أنه إذا كان فنا، فهو هكذا بسبب كيفية توظيف اللغة فى النص.

ولعل عامل التوظيف يجعل من التفاعل فى الخطاب الأدبى نمطًا مختلفًا عما يعرفه الاتصال العادى من تفاعل لغوى بين المشاركين فيه. فى الخطاب العادى يحدث التفاهم، وتبليغ المعلومات من خلال استخدام العلامات استخدامًا عرفيًا؛ أى تدرك فيه هذه العلامات عندة باستعمالها اللغوى المشترك. ومن أجل ذلك تميل لغة التعامل العادى إلى النفعية المباشرة، بينما لا يكون للخطاب الأدبى نفع مباشر فى الزمن.

إن طريقة توظيف أنماط اللغة هى التى تجعل الكلام العادى خطابًا. تقول رقية حسن: «فى حياتنا اليومية، نعرف أناسًا يحسنون قص الحكايات وآخرين يمقتونها، ما الذى يجعل هذا الفرق؟ إنها الطريقة التى تجعل من الحكاية خطابًا، والأسلوب الذى

---

(133) المرجع السابق ص 110 – 111.

(134) Hasan, Ruqaiya: Linguistics, Language and Verbal Art, Oxford Uni. Press (1989) p. 101.

(135) المرجع السابق ص 91.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

يوظف به أنماط اللغة لخلق هذه الحكاية. هذا قياس بسيط. والفن اللفظي ظاهرة مركبة، مما يشير إلى حقيقة مهمة؛ هي أن دور اللغة في الفن اللفظي دور مركزي هنا ليست اللغة ثوبًا لجسد، إنها الجسد» [136].

العلامة الأهم في الخطاب الأدبي إذن هي لغته. لا بد له من أن يخلق أنماطا فريدة من اللغة. وقد جرى كثير من الباحثين على ربط تميّز اللغة الأدبية مبدأ الانحراف عن المعيار الذي جعل من سمات لغة الأدب الحاسمة[137].

ومن القائلين بالإنحراف مَن يلاحظ تمايز أجناس الخطاب الأدبي فيما بينها؛ فبعضها أشد انحرافا من بعض. يشير ليفين مثلاً إلى أن اللغة الشعرية تحتوى على انحرافات أكثر مما تحتوى لغة النثر[138].

ويجوز لنا أن نأخذ بهذا الرأى من وجهة النظر الإحصائية، لا من وجهة النظر إلى وجود اللغة ذاتها؛ وذلك – فيما يبدو لنا – أن الانحراف عن المعيار اليوم سيكون هو المعيار غدا. وهذه الانحرافات ذاتها هي المصادر التي تعوّل عليها لغة النص الأدبي. إن هذه الانحرافات ستصبح علامات واصفة لتاريخ اللغة، أكثر مما هي علامات واصفة لطبيعة اللغة في الاتصال الأدبي. وتستطيع لغة التجارة والعلوم والتكنولوجيا أن تعطينا أيضًا نماذج مختلفة للانحراف عن المعيار؛ أى عن الاستخدام العادى للغة في الحياة اليومية.

ولعل علماء اللغة النصيين هم أشد الناس انتقادا لأسلوبية الانحراف. يقول سوونسكى: «ليس صحيحًا أن اللغة الشعرية أو النص الشعرى، ينحرف بالضرورة

---

(136) المرجع السابق ص 91

(137) انظر على تفصيل ذلك :

شبلنر (برند) : علم اللغة والدراسات الأدبية، ص 60 – 74.

(138) Levin, Samuel, R.: Statistische und determnierte Abweichung in poetischer Sprache, in: Helmut Kreuzer and Rul Gunzenhaueser (hrsg.) Mathematik und Dichtung, 4. Auflage, Nymphenburger Verlagshandlung, Muenchen (1971) SS. 33 – 47, S. 33.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن اللغة العادية أو عن النص العادى. إن ميشيل ريفاتير Michael Riffaterre ينتقد من فراغ – فى بحوثه فى مجال علم الأسلوب الأدبى – مفهوم الانحراف بمعنى فلا يشترط أن يكون انحراف النص انحرافا عن العادة Usus؛ إنه قد يكون تطابقًا تامًا مع معيار مجرد. إن الانحراف مفهوم نسبى. وينبغى لمن يتخذه أساسًا لعمله، أن يحدد وجه الانحراف وعمّ يكون. وإذا كان لكل نص دلالة، فإن حقيقة الانحراف عن المعيار ليست وحدها المسئولة عن إنتاج الدلالة» (139).

وقد أخذ كوزيريو Coseriu بمثل ذلك؛ يقول : «إن الانحراف عن استخدام لغوى، يمكن أن يكون هو نفسه استخدامًا لغويًا. يمكن أن يكون هو نفسه تكنيك الكلام. إن الانحرافات الثانوية من هذا النوع، لا تصف النصوص وإنما تصف اللغات بعبارة أدق، تصف هذه الانحرافات تكنيكات الكلام التى تنطبق على نصوص معينة وفقًا لأسس تاريخية، وهى تدخل فى نصوص بعينها. بهذا المعنى الضيق يمكن القول بوجود لغة للشعر. ولكن الأمر لا يتعلق بلغة للشعر على إطلاقها، إنما بلغة شعرية بذاتها، بلغة شعرية تخضع لتقليد خاص. فاللغة الشعرية فى الألمانية مثلاً تعرف تقاليد خاصة، وهذه التقاليد تنحرف عن المتبع والمألوف فى لغة الحياة اليومية. والأمر هنا لا يتصل بانحراف لغة شعرية انحرافًا مطلقًا، وإنما يتصل بخصائص لغة وظيفية فى إطار لغة تاريخية؛ أى يتصل بخصوصيات أسلوب لغوى بذاته. وفى النهاية فإن الانحرافات من هذا النوع لا تختص بمستوى النصوص، وإنما تختص بمستوى اللغات. بعبارة أخرى: تختص هذه الانحرافات بأساليب لغوية للغة تاريخية» (140).

ويمكننا – فى ضوء ما تقدم – أن نقول بأن دوليتسيل Dolezel كان على حق حينما جعل من الضرورى تميز اللغة الشعرية – التى تومئ بتحقيق الفعاليات اللغوية – عن التغيرات فى المعيار المقياسى للغة الإخبارية، وعن التغيرات فى الفارق الشعرى لمرحلة سابقة من التطور. ويعنى ذلك أن تفسير البنية اللغوية لعمل أدبى إنما

(139) Sowinski, ibid, SS. 51 – 52 .
(140) Coseriu, Eugenio : Textlinguistik, ibid, SS. 119 – 120 .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكون بربط التحليل الوصفي بالتحليل التاريخي؛ فالتحليل الوصفي وحده لا يكفي لتفسير طبيعة اللغة الشعرية(141).

إن التجاذب المستمر الذي تعرفه اللغة في الاتصال الأدبي بين تحقيق الفعالية للوسائل اللغوية من ناحية، والارتباط بالمعيار من ناحية أخرى إنما يرجع – فيما نرى – إلى التجاذب المستمر بين الوظيفة الشعرية والوظيفة التوصيلية. والفعالية والمعيار قوتان متقابلتان وليستا متعارضتين، تتحقق الغلبة لأحدهما – بتغليب وظيفة على أخرى – دون أن تحرز على الأخرى انتصارًا كاملاً.

ومهما قيل عن كون الخطاب الأدبي تعبيرًا عن وعي فردي بالواقع، أو عن قدرته على تكييف الأداة اللغوية والتجاول معها، وما تؤدي إليه من ابتعاد عن الاستخدام التداولي إلى التوظيف الجمالي، فإنه لن يحقق وظائفه إذا أهمل وظيفته الاتصالية بالمتلقي. الشعر والنثر في النهاية مقال، مقال يؤديه مؤلفه – كما يقول جون كوين – لمتلقيه، وليس هناك مقال إذا لم يكن هناك اتصال. ولكي تكتمل القصيدة كقصيدة ينبغي أن تفهم ممن وجهت إليه. الإضفاء الشعري سيل ذو وجهين: تبادلي وتزامني، تجاوز وتخفيض للمجاوزة، هدم وإعادة للبناء. ولكي تؤدي القصيدة وظيفتها من الناحية الشعرية، ينبغي للمعنى في وعي المتلقي أن يفقد وأن يتم العثور عليه في آن واحد(142).

وكانت رقية حسن قد جعلت للفن اللفظي طبقات ثلاثًا، هي : الموضوع theme، والتلفظ الرمزي symbolic articulation، والتحويل إلى تعبير لفظي verbalization. أما الطبقة الثالثة، فهي نقطة الاحتكاك الأولى بالعمل؛ فنحن نبدأ بمعرفة قطعة من الفن اللفظي فقط عندما نعرف اللغة؛ أي عندما نعرف العلاقات بين المعاني ونظم الكلمات والأصوات. لا بد أن تعرف لغة النص لتعرف المعاني المشفرة

---

(141) Dolezel, Lumbmir: Zur Statistischen Theorie der Dichterprache, in: Helmut Kreuzer und Rul Gumzenhaueser (hersg.): Mathematik and Dichtung, ibid, SS. 275 – 293, S. 279.

(142) كوين (جون) : بناء لغة الشعر مرجع سابق ص 206 – 207

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيه. أما طبقة التلفظ الرمزى، فهى فى عودة معانى اللغة إلى العلامات ممتلكة معنى اعمق. وأما الموضوع، فهو أحد الأسباب التى تعمل على استحالة انفصال النص اللفظى عن الجماعة التى أبدع فيها، وذلك أن طبقة الموضوع stratum of theme أوثق ما تكون بأيديولوجيا الجماعة[143].

إن متأمل الشعر لن يفقد أثر الظلال المتنوعة للوظيفة الاتصالية وأهميتها فى البنية الشعرية[144].

وإذا كانت اللغة أو الأسلوب علاقة بين الفرد المبدع والمجتمع الذى يعمل فيه، فإنه ينبغى له أن يكون قادراً على توقع استجابات المتلقين، وما إذا كانت هذه الاستجابات مدعمة لاستراتيجية خطابه أو مضادة لها. ويرتبط هذا المبدأ ارتباطاً مباشراً بالاتصال الأدبى الناجح الذى يحرص – شأنه شأن الاتصال فى حالاته الأخرى – على جعل المخاطب شريكاً فى اكتشاف أهداف الخطاب ومقاصده.

وربما اتخذ النص الأدبى المكتوب وسائل خارجة عن نطاق اللغة لتحقيق وظائف اتصالية خاصة، ومثال ذلك توظيف الشكل الكتابى للنص. وهذا الأمر مما عنيت به نظرية فهم النصوص وتحليلها. يقول هانز جليتس Hans Glinz: «إننا نعنى كثيراً بالشكل الكتابى للنص الأدبى، الشكل الذى بدت فيه النصوص أول مرة، ويشترط ألا يكون المؤلف قد تناوله بالتنقيح، وإلا يكون مصدر النص قد عرض له بالتعديل. إننا نقصد إذن الشكل الكتابى الذى كان عليه النص قبل أن يطبع كذلك، فنحن نعنى بكيفية تقسيم المؤلف نصه، من حيث إن هذا التقسيم يعكس – إلى حد ما – رؤاه، ومن حيث إن هذا التقسيم يؤثر فى موقف المتلقين واستجاباتهم من ناحية أخرى[145].

---

(143) Hasan, Ruqaiya: Linguistics, ibid, pp. 96 – 99.
(144) Mukarovsky, J.R.: Standard Language and Poetic Language, in: P.L. Garvin (ed. And Tr.): A Prague School Reader on Esthetics, Literary Structure and Style, Washington (1964) p. 33.
(145) Glinz, Hans: Textanalyse und Verstehenstheories, Bd. I-2,2. Auflage, Akademische Verlagsgesellschaft, Athenaion – Wiesbaden (1977) SS. 61 – 62.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثانى

الاتصال غير اللفظي

إن اللسان المتحرك يبرهن على أنه جزء واحد فقط من الفعل الإنسانى المعقد، الذي ينبغى لنا أيضاً أن نفتش عن معناه فى غمزة العين، وتلويحة اليد، وقسمات الوجه الدالة ونحوها. نتحدث هنا إذن، عن السلوكيات الحركية التى تكون الأساس الأهم الذى يبنى عليه الاتصال غير اللفظى non – verbal communication. وإذا كان هايمس قد جعل من مكونات الاتصال الرئيسة : القناة والمفتاح، فإن التأشير على المفتاح قد يكون عن طريق غير لفظى أيضاً؛ كالحركة الجسمية أو الوضع الجسمى للمتكلم. من ناحية أخرى، فإن الإيماءات وتعبيرات الوجه ونحوها وسائط بصرية عظيمة الشأن فى قناة الاتصال غير اللفظى.

ربما اكتفيت حينا بالمنطوق اللفظى: أخرجْ، وحينا آخر تشير بيدك – أو إصبعك – ناحية الباب أن أخرجْ، وحينا ثالثاً تهمل منطوقك اللفظى : أخرجْ مصحوباً بهذه الإشارة. ولما كانت الكيفية التى يقال بها الشىء جزءاً مما يقال، فإنك ربما اعتمدت قناة اتصال واحدة (الاتصال السمعى فى الحالة الأولى، والبصرى فى الحالة الثانية)، وربما اعتمدت قناتين اثنتين معاً للاتصال، كما فى الحالة الأخيرة. ولعل في اعتماد قناتين اثنتين بدلا من قناة واحدة، ما يوفر للسياق غير اللغوي هيئة تكلم بعينها fashion of speaking، هى – آنذاك – مقتضى من مقتضياته.

(1) الاتصال غير اللفظى : مفهومه وحدوده :

من المعروف أن موضوع علم اللغة هو الاتصال المكّون من الرسائل اللفظية verbal messages ، والشفرة اللفظية verhal code التى تدعمه وتؤهله لأداء وظائفه. فإذا ما نظرنا إلى الاتصال غير اللفظى، وجدناه من أسوأ المفاهيم تحديدا فى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السيمياء كلها. ولا عجب أن صيغ مفهوم الاتصال غير اللفظي صياغة سلبية غالباً فمنذ عام 1888م حده كلاين باول Kleinpaul – في تناقض ظاهري – بأنه «الكلام من غير كلمات» أو «اللغة غير اللفظية». وبعد ظهور المقالة المستفيضة الجيدة التي كتبها روش Ruesch وكيس Kees (عام 1956م) عن «غير اللفظي» أخذ هذا المفهوم يتردد كثيراً في عناوين لمؤلفات. وفي عقد الستينيّات نجد وفرة من الباحثين في هذا المجال، أمثال بوسماجيان Bosmajian (1971م) وآيزنبرج Eisenberg (1971م) وميرابلان Mehrablan (1972م) وفايتس Weitz (1974م) وبوياتوس Poyatos (1976م) وغيرهم. وتلح بحوث هؤلاء جميعاً على النظر إلى الاتصال غير اللفظي على أنه اتصال سُلبت منه اللغة Communication minus language[1].

لقد أطلقت على الاتصال غير اللفظي تسميات عدة، منها: الاتصال الجسدي، واللغة الجسدية، والكلام الجسدي، والحركة الجسمية، والسلوك الحركي، وعلم السلوك الحركي، والعلامات الحركية، والتعبير بالوجه، والباتومايم أو التمثيل بالإشارات، واللغة الصامتة، ونحوها.

وقد كانت جهود الباحثين – لاسيما اللغويين الأنثروبولوجيين والسيميائيين – في التمييز بين "اللفظي" و"غير اللفظي" مما حدا إلى الجدل في المظاهر التي يمكن أن تدخل في إطار "الاتصال غير اللفظي". وقد عبّر بعضهم عن صعوبة هذا الأمر، على نحو ما نجد – مثلا – في قول سيبيوك: «الحق أنه يصعب جدا – من الناحية العملية – أن نحدد دائماً دون لبس الشريحة من المواجهة النطقية (المحادثة، حالة كلامية) بين الناس، التي تختص بعالم اللغة، والشريحة التي تختص بالتحليل التفاعلي غير اللفظي»[2].

إن أعضاء النطق – مثلاً – أجزاء من الجسم الإنساني، فلم لا نجعلها – كما يقول سيبيوك – من الاتصال غير اللفظي؟. فضلاً عن ذلك، هناك أشكال أخرى عدة

---

(1) Sebeokm p. 165.

(2) المرجع السابق ص 165.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تجعل "غير اللفظي" يعمّ مدى أوسع من محيط الاتصال الجسمي. من المؤكد أن الموسيقى، وفنون الطهي، والسيرك، وزراعة الحدائق والنباتات، وتنسيق الزهور، واستعمال العطور، واختيار الثياب والتوفيق بينها، تعد كلها وسائل غير قصدية، ضمن الخيارات متعددة الشكل عند الإنسان؛ للاتصال بالآخرين اتصالا غير لفظي. من أجل ذلك، فإننا نحسب أن سيبيوك لم يكن مبالغاً في زعمه أن مجال "غير اللفظي" – بناء على هذا التصور – يطابق تماماً مجال "الثقافة" وقد استثنينا منه "اللغة"[3].

أي : الثقافة – اللغة = الاتصال غير اللفظي !.

وكان سيبيوك قد أدمج المقابلتين : صوتي / غير صوتي، ولفظي / غير لفظي في جدول جعل مفرداته مظاهر مختلفة من قنوات اتصال متباينة، محددا السمة التي تميز كل مظهر منها وفقاً للقيم التي يعيّنها الاستعمال اللغوي المعياري (انظر الجدول 4). من ناحية أخرى، يبين سيبيوك – في جدولته إنتاج العلامات عند الإنسان تبعًا لتقنيات اتصالية مختلفة (انظر الشكل 4) يبين أن العلامات غير اللفظية، يمكن أن تكون مرتبطة بالكلام أو مستقلة عنه. ويبين أيضاً أن جميع الأنظمة اللفظية تظهر في وسط سمعي. وما يسميه في هذا الجدول بالعلامات الاصطناعية إنما ترتبط بالعالم الاصطناعي الذي يشير إلى عالم الرموز، والتنظيمات، ونظم التفكير. وهو – كما تقول مارسيل دانيسي Marcel Danesi – عالم من صنع الإنسان كلية، ويميز الثقافات والحضارات الإنسانية. إنه العالم الذي لا ترثه الأجيال المتوالية بيولوجيا، إنما يتنقل إليها في سياق وشكل محددين ثقافياً على نحو ما. ويقابل العالم الاصطناعي هذا يسمى بالعالم الواقعي، الذي يشتمل على العالم البيولوجي، وهو ما نسهم فيه بكل تركيبنا العضوي، كما يشتمل على عالم الخيال الإنساني المحدد نوعياً، والذي يعني القدرة على عمل صور في العقل. بعبارة أخرى، فإن العالم الواقعي هو الذي نرثه بمقتضى امتلاكنا تجسماً وعقلاً. وعلم العلامات يعنى بهذين العالمين معاً[4].

---

(3) المرجع السابق ص 166

(4) المرجع السابق ص 166

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

	صوتي	لفظي
اللغـــــة	O	+
الكـــــلام	+	+
لغة العلامة الأمريكية	-	+
ثرثرة : ما فوق اللغة	+	-
إشارة احتقار	-	-
أغنية (نغمة بإنشاد أو بدون إنشاد)	+	±
صفـــير	+	O

الجدول رقم (4)

+ = تحقق الخاصية

- = فقدانها

± = الخاصيتان موجودتان في وقت واحد.

O = التمييز لا ينطبق أو لا يصدق عليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

	صامتة				
العلامات		صناعية			
	مصوتة		مهموسة		
		عضوية		لفظية	
			سمعية		مرتبطة بالكلام
				غير لفظية	
					مستقلة عن الكلام

الشكل رقم (4)

من ناحية أخرى، يميز ميرابيان Mehrabian بين معنيين اثنين للسلوك غير اللفظى، ويرى أن أحدهما ضيق، لكنه أدق، وأن الآخر أوسع، لكنه مغلوط. يضم الأول – عنده – تعبيرات الوجه، وحركات اليد والذراع، والهيئات والأوضاع الجسمية، وحركات الجسم المتنوعة: الأرجل والسيقان والأقدام. أما الثانى، فهو معادل لما يضمن فى النمط الفرعى المسمى بـ «الظواهر فوق اللغوية أو النطقية Paralinguistic or vocal phenomena »[5].

ويبين سالزمان أنه إذا أخذنا مصطلح «الاتصال غير اللفظى» حرفياً، فإنه يشير إلى أى نقل للعلامات يتم إنجازه بوسائل أخرى غير الألفاظ المنطوقة أو المكتوبة. ويشير سالزمان إلى أن الناس لا يتفقون جميعاً على ما يتضمنه هذا المصطلح، ويتساءلون عن قبوله التحديد. ويذكر أن هذا المصطلح، يتضمن – فى اتساع – الحركات الجسمية، وتعبيرات الوجه، والمسافة بين المشاركين، واللمس، والشم، والصفير، وعلامة التدخين، ولغة الطبول، ونحوها من المؤثرات الصوتية الاختيارية، كتلك التى تصاحب

(5) Sebeok, p. 165

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الملفوظات المنطوقة التى يمكن تدبرها فى مجاورتها كلمات فعلية (كأنه يعنى ملفوظان نحو : هيه، بيه، ها، ياه، مم.. الخ).

إنه يرى أن أنظمة الاتصال غير اللفظى، يمكن أن تنقسم إلى أنظمة تنتج عن اللغة المنطوقة، وأنظمة أخرى تستقل عنها. وباستثناءات قليلة فقط، يمكن أن تنتمى أنظمة الكتابة إلى النوع الأول، من حيث إنها تشتغل على أصوات الكلام.

وهناك تصنيف آخر للاتصال غير اللفظى بحسب القناة، أى بحسب الوسيط الذى تنقل عبره العلامات : فالقناة التى تستخدم فى لغة الطبول قناة سمعية، بينما تستخدم علامات التدخين القناة البصرية. ويستخدم المكفوفون اللمس مثلما يحسون بالحروف البارزة فى نظام برايل. ويستطيع الصم والعمى أن يتعلموا قياس الحركات التلفظية articulatory movements بوضع اليد على وجه المتكلم ورقبته (طريقة تادوما Tadoma Method)[6].

ليست دقة العلاقات بين الاتصال اللفظى والاتصال غير اللفظى وحدها إذن - كما ذهب روبرت هايند Robert Hinde[7] – هى المسئولة عن صعوبة تحديد «غير اللفظى»، بل إن هذه الصعوبة تنشأ حقاً من تنوع مظاهر «غير اللفظى» ذاته، وتعدد أشكاله وقنواته. ولكننا نريد هنا – بالرغم من كل ما سبق عن اتساع مجال «غير اللفظى» – أن نجعل المطلب الرئيس هو «السلوك الحركى»، بما يضمه ويتفرع عنه من حركات وإشارات وتعبيرات وأوضاع وهيئات جسمية، سواء أكانت مرتبطة بالسياق اللفظى أم منفصلة عنه.

نعنى من مظاهر الاتصال غير اللفظى المتعددة إذن بالسلوك الحركى، الذى يعد – فيما نرى – أهم تلك المظاهر فى المواقف الاتصالية المختلفة على الإطلاق. وأشدها

---

(6) Salzman, pp. 213 – 214 .
(7) Hinde, Robert: Biological basis of human Social behavior, Mc Graw – Hill, New York (1974) p. 146.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

التصاقا وتكاملاً – من الناحيتين: البنائية والوظيفية – بالاتصال اللفظي ذاته. ويلاحظ ان مصطلح «السلوك الحركي» الدال على هذا النوع من الاتصال غير اللفظي المرتبط بالحركات والإيماءات والتعبيرات العضوية الجسمية المختلفة، قد صار – في العقدين الأخيرين بوجه خاص – المصطلح الأشيع والأرفق علمياً عند محللي الخطاب والسيميائيين واللغويين بعامة.

(2) السلوك الحركي وأصل اللغة :

يرى ماريو باي أن الإيماءات ربما كانت أسبق وجوداً من الكلام[8]. وهناك زعم شائع بأن اللغة – في ارتقاء الإنسان – قد حلت محلّ الأنظمة غير الناضجة التي عرفتها حيوانات أخرى. ويرى باتسون Bateson أن هذا الزعم خطأ كلية، لأنه لو كانت اللغة اللفظية verbal language – بأي معنى – قد حلت حلولا تطورياً محل الاتصال بوسائل السلوك الحركي Kinesics أو ما فوق اللغة paralanguage، لكان لنا أن نفترض انحطاطا ظاهرا حل بالأنظمة القديمة. والأحرى أن السلوك الحركي عند الإنسان كان قد أصبح أغنى وأشد تعقيداً، وأن وسائل ما فوق اللغة كانت قد ازدهرت مع تطور اللغة اللفظية. وأن كلا منهما كان قد أحكم إلى صيغ معقدة من الفن، والموسيقى، والشعر ونحوها[9].

وبالرغم من تخطئة باتسون الزعم السابق كلياً، فإن الفكرة التي تقول بأن الناس كانوا قد جعلوا استعمالا تأثيريا للحركات الجسمية affective use of gestures قبل أن يطوروا الكلام، صارت تلقى مؤخرا تدعيماً جديداً من بعض الباحثين، مثل جوردون هيويس Gordon Hewes. يزعم هيويس أن الوجود السابق لنظام لغة

---

(8) باي، ماريو : أسس علم اللغة، ترجمة دكتور احمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة ط2 (1983) ص 39.
(9) Sebeok, p. 158 .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحركة الجسمية gestural language system قد عرف له طريقاً إلى لغة منطوقة vocal language أسهل من استعمال مميزات تصويتية للحيوانات العليا غير الإنسانية استعمالاً انفعالياً[10].

ومن الشواهد والأدلة التى تقدم لتدعيم النظرية الحركية الجسمية فى أصل اللغة، أن العمل التجريبى الحديث مع الشمبانزى والغوريلا، قد بين أن هذه الثديات قادرة على اكتساب "مفردات" العلامات الحركية التى هى أكبر من معجم تصويتاتها، وأنها تستعمل هذه العلامات – عند الحاجة – بدرجة من الأصالة[11].

وقد تناولت الأنثروبولوجيا اللغوية نظرية الحركة الجسمية فى أصل اللغة، على نحو ما نجد عند سالزمان. يلاحظ سالزمان – مصيباً فى ذلك – أن العلامات الحركية الجسمية، تميل إلى أن تكون علامات أيقونية iconic، من حيث إنها تماثل ما يفترض أنها تنقله، أكثر من كونها علامات اعتباطية arbitrary. وبناء على ذلك، يرى سالزمان أن تعيين الأسبقية التطورية للحركات الجسمية على الكلام، يعد مقبولاً بوجه عام. إن صيغة الاتصال غير المصوتة، ينبغى أن تكون لها مزية متميزة عند الصلة الأول فى عمليات الصيد التى تعتمد على نقل الخطى نقلا حذرا. كذلك، فإنها تمكن أفراد الجماعات الصغيرة من الاختفاء خشية الضوارى!

أما الاتصال – فيما بعد – عن طريق الكلام، فإنه – كما يقول سالزمان – يحتاج إلى جهد أقل، كما أن احتمال انتشار المفردات غير محدود.

إن الإشكالية الأساسية مع نظرية السلوك الحركى، هى كيفية تدبر التغير من الصيغة الحركية الجسمية المرئية إلى الصيغة السمعية الصوتية تدبرا مقنعاً وذلك أن

---

(10) Hewes, Gordon, W. : Primate Communication and the Gestural Origin of Language, in Current Anthropology 14 (1973) pp. 5 -24, p. 12.

(11) راجع فى ذلك : Salzman, p. 92.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العملية التى انجزت ليست فحسب تغيرا سلوكياً من الإشارة باليد والتلويح بالأيدى إلى الكلام. إنها أيضاً التغيرات التشريحية الضرورية فى المخ وفى الجهاز الصوتى[12].

ويفترض هيويس Hewes أن الانتقال قد تيسر عبر التقليد غير الواعى للحركات اليدوية عن طريق حركات الشفتين واللسان[13].

وبالرغم من ذلك، فإننا نحسب أن هذه الافتراضات لم تسد الثغرة إلا قليلا؛ فما زالت نظرة السلوك الحركى فى أصل اللغة قاصرة عن أن تسهم إسهاماً كافياً فى الإجابة عن السؤال: كيف تولدت اللغة المنطوقة أو تطورت؟. نحسب أن هاليداى كان موفقاً أكثر من غيره، حين جعل للبحث فى هذه المسألة – على نحو ما رأينا (انظر مبحث: مفهوم الاتصال اللفظى وطبيعته، من الفصل الأول) – وضعية علمية جديدة، فكان تمييزه الافتراضى بين اللغة الأولية واللغة منطلقاً من القياس على نموذج الطفل.

(3) السلوك الحركى والسياق الثقافى :

رأينا قبل ذلك (انظر مبحث الاتصال والتداولية) أن الارتباط الداخلى بين الاتصال والثقافة قد عرف طريقه منذ الستينيّات، فيما أثاره إدوارد هول Edward Hall من أفكار، لتطوير التقريبية proxemics ؛ أى دراسة الأطر الثقافية للفواصل المكانية والمسافات التقريبية بين الأفراد فى مقابلات المواجهة face – to – face encounters.

إننا نلاحظ – بحق – أن قدرا لا بأس به من الحركات الجسمية والإشارات وتعبيرات الوجه، يبدو مشتركا بين ثقافات متنوعة، فى إنتاجه ومدلوله. ولكن يظل قدر غير قليل منها – بما هى علامات سيميائية اجتماعية – مقيداً بالثقافة أو الثقافات الفرعية فى جماعة كلامية بعينها، وممارساً عمله من خلال الأعراف السائدة

(12) Salzman, pp. 92 – 93 .
(13) Hewes, Gordon, Primate Communication op. cit.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والفاعليات الاجتماعية لتلك الجماعة. ومن هنا يكون الاختلاف بين جماعة وأخرى في استقبال تلك الحركات الجسمية وقبولها وإدراك معانيها. وربما اتخذت حركات بعينها – في بعض المواقف الكلامية – مؤشراً على الطبقة الاجتماعية والمستوى الثقافي لمحدثها. وإذا كان هايمس – في إثنوجرافيا التكلم – قد انتهى إلى أن الكلام يتحدد نظامياً داخل سياقه الثقافي الاجتماعي، فإن الحركات الجسمية ونحوها – في التفاعلات الاتصالية اليومية – لن تختلف هي الأخرى في ذلك عن الكلام. إن تأمل السلوكيات الحركية المرتبطة بالتكلم، يوقفنا على أنه في الوقت الذي تستنبط فيه الحركة الجسمية من حركة صانعها، فإن تحديد شكل هذه الحركة تحديدا جوهرياً، إنما يتأتى من طريق معرفة العوامل البيئية التي يخضع لها المتكلم. إن وصف الحركة يوجب الكشف عن معناها. حينئذ ينبغي لنا – كما يقول جوفمان – أن ندخل إلى الوضع الإنساني والمادي الذي صنعت فيه تلك الحركة. إن الحركات الجسمية الفردية – كما يقول جوفمان أيضاً – بيئتها المباشرة، لا بجسمها فحسب، ومن هنا ينبغي لنا أن نعرف هذه البيئة بطريقة منظمة[14].

ويلاحظ الرحّالة المراقبون أن أفراد المجتمعات على حوض البحر الأبيض المتوسط، يستعملون حركات جسمية، وتعبيرات الوجه، أكثر بكثير من أفراد المجتمعات التي تعيش في استكتلنافيا أو اليابان. وعلى كل حال، فإن الإيطاليين – مثلا – لا يستعملون جميعاً اللغة الجسمية body language نفسها. وبالمثل، فإنهم لا يتكلمون جميعاً لهجة واحدة في إيطاليا[15].

ويحسب أن بيرد هويستل Birdwhistell هو أهم من عنى بالبرهنة على أن السلوك الحركي سلوك مقيد بالثقافة، مثلما هي الحال تماماً مع اللغة. ولعل من الطرف

---

(14) Goffman, E.: The Neglected Situation, ibid, P. 62 .
(15) Saboman, p. 215 .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما اتخذه من أمثلة تدعيماً لنظريته، أن عزل الصوت من أفلام خطب السياسى وعمدة مدينة نيويورك الأسبق: فيوريللو لا جواردیا Fiorello La Guardia لن يعوق عن إمكانية الإخبار بما إذا كان يتكلم الإنجليزية، أو لغة الإسرائيليين الألمان، أو اللغة الإيطالية؛ وذلك أن الحركات الجسمية المرتبطة بإحدى هذه اللغات تختلف عن نظائرها فى لغة أخرى[16].

(4) السلوك الحركى ووظائفه العامة :

عنى علماء اللغة الاجتماعيون بالتنوعات الاجتماعية التى تترك أثرها فى السلوك الكلامى؛ كالعمر والجنس ونحوهما. وقد أشاروا – إلى جانب ذلك – إلى التصرفات الاجتماعية التى تحدد السلوك الكلامى؛ أى التى تقود إلى إضافة خواص مكتشفة فى السلوك الكلامى. وقد لاحظوا أيضاً أن هذه الإضافات ذات علاقات متنوعة بالأبنية الصوتية والصرفية والنحوية التى تمتلكها اللغة. ولعل الأهم – من جهة اهتمامنا هنا – هو مالا حظوه من ملامح سلوكية حركية جديدة يتضمنها الكلام، وهى – كما يقول جوفمان – ملامح تزودنا بملء حقيبة من الخواص والمؤشرات التى ينبغى أن يعنى بها فى تحليل السلوك الكلامى[17].

وإذا كانت اللغة الطبيعية فى صورتها المنطوقة هى النظام الرئيس، فإن لغويين آخرين يعرفون للنظام غير اللفظى دوره الهام فى الاتصال، ويعرفون أن صورة الموقف الاتصالى الكلية، لا تكتمل بدونه. وكان هاليداى – مثلاً – يقرّ بأهمية الدور الذى تؤديه الأنظمة الخارجة عن نطاق اللغة؛ كالحركة الجسمية[18].

---

(16) Birdwhistell, Ray, L.: Kinesics and Context: Essays on Body Motion Communication, Uni of Pennsylvania Press, Philadelphia (1970) p. 102
(17) Goffman, E.: The Neglected Situation, P. 61 .
(18) Halliday, M.A..K.: Language as Social Semiotic: The Social Semiotic. ibid. p. 37.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبالرغم من ان الاتصال اللفظى هو الذى يراعى جوهرياً فى علم اللغة النصى، من جهة أن النصوص تتكون عادة من علامات لفظية، فإنه لا يمكن إغفال اهمية الإيماءات والحركات. يقول سرونسكى مثلا : «من الممكن حقاً أن تعرض سياقات دلالية كبرى فى شكل إيمائى pantomimisch، بحيث تستغنى - بهذه الطريقة من الاتصال المحاكى - عن اللغة اللفظية verbale Sprache. وغالباً ما يكون للعلامات الإيمائية أو الجسمية وظيفة مصاحبة الأحاديث وإشكال الاتصال الشفهى الأخرى. ومع ذلك، فإن لهذه العلامات الإيمائية والجسمية وظيفة دلالية تكميلية، من حيث إنها تظهر شكل العلاقة أثناء الاتصال وتقويه. كما أنها تشير إلى الموقف الشخصى والسلوك الانفعالى الذى يسلكه أحدهم تجاه الآخرين أو ضد الآخرين» [19].

ويعد السلوك الحركى من العوامل الهامة فى التمييز بين الشكلين الرئيسين للاتصال اللفظى ذاته؛ أى التمييز بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة؛ وذلك أن اللغة المنطوقة تبدو - فى هيئتها الكبرى - مصحوبة بالحركة الجسمية Gestik والتعبير بالوجه Mimik. ولا تعرف الشفرة المكتوبة معادلاً مباشراً لذلك. ولما كانت الحركة الجسمية والتعبير بالوجه مما يعد من الموقف؛ فإنه يتبين لنا ثانية أن الشفرة المكتوبة يمكنها أن تتعهد بالتعبير عن الموقف بطريق غير مباشر. وعند تحويل لغة مكتوبة إلى شكل صوتى، تعد الحركة الجسمية وتعبيرات الوجه، تفسيرية وغير مقيدة بالحدث الكتابى [20].

إن المعرفة بتفاصيل الأوضاع الجسمية والسلوكيات الحركية فى الموقف الاتصالى، يمكن أن تكون ذات أهمية لتفاصيل موقفية اخرى؛ فكما أن المشاركين فى هذا الموقف لديهم ما يسمعونه حقيقة، فإن لديهم ما يرونه أيضاً. من أجل ذلك كان

---

(19) Sowinski, S. 68.
(20) Soell, Ludwig: Gesprochene und gescriebenes Fanzoesisch, ibid, S. 21.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الاحتياج إلى تلك التفاصيل حتى يصل إلى تفسيرات مناسبة ضرورية للمشاركة المتكافئة فى تفاعل لفظى أو غير لفظى.

إن سلاسل الإسهامات فى مثل تلك النشاطات المترابطة لمشاركين اجتماعيين عدة، يمكن – مثلا – أن ينطق بها فى دورات المتكلم speaker turns. وقد قام كثير من العمل فى الدراسة الإثنوميثودولوجية (المنهجية الشعبية) للمحادثة اليومية، على بيان الطرق التى يستعملها الناس فى تنظيم دورات الكلام. ويستطيع المشاركون حيازة الدورة أو استقبالها، ثم يتبعون عددا من الاستراتيجيات المناسبة لتوزيع مثل تلك الدورات أو تخصيصها، مستخدمين فى ذلك كلا من الرموز اللفظية وغير اللفظية. ومن أمثلة الرموز غير اللفظية: النظرات، والحركات الجسمية[21].

وتقودنا هذه الإشارة إلى وظيفة النظرات ونحوها فى توزيع الأدوار الكلامية بين المتخاطبين، إلى استخدامها فى وظيفة التأشير إلى تغير المحور. وإذا كان مصطلح «المحور» قد استخدم فى وصف بنية الجملة، فإنه – بالضرورة – مصطلح يعيّن مكوناً جملياً بعينه. وقد اتخذ جريمس Grimes – مثلا – هذا المصطلح فى دراسة الخطاب؛ لوصف الطرق المختلفة التى تتبعها لغات متنوعة فى تحديد «المكون المحورى للجمل topic constituent of sentences ». ونحن – فى إشارتنا هذه – لا نستخدم هذا المصطلح مكوناً نحوياً من أى نوع، إنما نعنى مفهوم المحور النظرى العام؛ أى المحور بمعنى ما يدور حوله الكلام فى تخاطب بعينه. بعبارة أخرى: نعنى بالمحور هنا القضية أو الموضوع الخاص الذى تذكر حوله أشياء توضحه، أو الذى يستنتج استنتاجاً.

فى ضوء ذلك، فإننا نلاحظ أن اللغة المنطوقة تفرض على منتجها – كما هى الحال الخاصة باللغة المكتوبة – مقتضيات مختلفة. ومن هذه المقتضيات فى اللغة المنطوقة: أن المتكلم – كما تتاح له طائفة من المؤثرات الصوتية النوعية – يُتاح له أيضاً أن يعبّر بالوجه وينظم السلوكيات الحركية والأوضاع الجسمية المختلفة عن تغير

(21) van Dijk, Teun, A. : Dialague as Discourse, ibid, p. 4.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضوع الذى يتكلم فيه. يقول براون/ يول: «يستخدم المتكلمون طائفة من العلامات الشكلية التى يشيرون بها إلى التغير فيما يتكلمون فيه. ويمكن أن تعد هذه العلامات مؤشرات إلى تغير المحور، يستخدمها المشاركون فى المحادثة؛ فنظرة المتكلم إلى محاوره، وتفرسه فيه، واستخدامه بعض الحركات الجسمية الدالة على تغييره خطابه، لها جميعاً أهمية فى تغير المحور»[22].

إننا ننظر إلى خواص كلامية عدة على أنها بدائل عن الأحداث السياقية غير اللغوية، أو نظائر وظيفية للأحداث السياقية الخارجة عن نطاق اللغة. ومثال ذلك أن يجعل المشارك من تغيير وضعه الجسمانى changing his posture علامة على انتقاله الوشيك من مواجهة خطابية بذاتها. وربما جعل المشارك من تغيير هذا الوضع علامة على إعادة توجيه انتباهه إلى موضوعه على نحو ملحوظ. وهذا ما نشبهه بالبدائل السياقية فوق التركيبية؛ كالتنغيم الذى يغير المتكلم منسوبه إلى نغمة هادئة مثلاً؛ ليدل بذلك على أنه قد دنا من تبليغه الأخير. وكما يستطيع التنغيم أن يقلب المعنى إلى النقيض، فإن خفض الرأس وانحناءةَ الظهر مثلا – فى موقف النفور والغضب – ليست علامات إذعان أو احترام حقيقيين، إنما التظاهر بهما على سبيل الهزء بالمخاطب.

من ناحية أخرى، فإن الحركات الجسمية والإيماءات مصاحبة المنطوقات، تعد عملاً إضافياً يحفظ للمشاركين فى الاتصال انشغالهم به، بل إنها تدعم أوضاع الكلام وحالاته، وتؤمّن له نظامه، وتحفظ له إيجابيته. يقول جوفمان: «تخضع المنطوقات – بالطبع – لضغوط وضرورات لغوية (كما تفعل المعانى)، ولكن الأشخاص الحاضرين فى موقف اجتماعى، ينبغى لهم – فى كل لحظة – أن يقوموا بعمل إضافى. ويحفظ هذا العمل للمشاركين فى الكلام انشغالهم به. وينبغى للمنطوقات أن تقدم فى كثير من الحركات الجسمية الوظيفية Punctional gestures أى الحركات التى تدعم

(21) Brown / Yule: Discourse Analysis, p. 106.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

حالات الكلام وأوضاعه، والتى تؤمّن له نظامه، وتحفظ انظمته الإيجابية البسيطة» [23].

ولا شك أن ذلك يقدم لنا دليلا قوياً على علاقة التكامل بين قنوات الاتصال المختلفة، فإذا كانت القناة السمعية أشيع القنوات استخداماً، فإن قنوات الاتصال الأخرى لا يُضرب عنها الصفح. إننا إذا تغاضينا عن القنوات الأخرى، فسوف نجهل حقيقة هامة، هى أن السلوك الاتصالى الذى يجعل استعمالا أساسياً لقناة ما على نحو متكرر، إنما يعتمد على قنوات أخرى تقويها. ويصدق هنا ما يذكره سالزمان من أن القناة تقدم بديلاً تأثيرياً للأخرى: فالسلام العسكرى الذى يستخدم القناة البصرية (الاتصال غير اللفظى)، يعد المعادل المرئى للتعبير عن الاحترام أو التعظيم عما – يمكن – بطريقة أخرى – أن يذكر شفهياً. ويجتهد المصورون الصحفيون فى تقديم الوقائع الإخبارية مصورة؛ وذلك أن «الصورة تعدل ألف كلمة!» [24].

إن اصطحاب اللغة خاصة أو أكثر من الخواص الخارجة عن نطاقها، إنما هو ميل حيادى تام. ويلحظ المرء فى المواقف الاتصالية الحية ميلاً قوياً إلى الحركات الجسمية، سواء أكانت حركات جسمية مصوتة vocal gestures (تأمل مثلاً استخدام طرقعة اللسان علامة على الموافقة) أم حركات جسمية مرئية (كالإيماءات والتلويحات وتعبيرات الوجه). ويمكننا – من أجل ذلك كله – أن نجعل السلوكيات الحركية وتعبيرات الوجه ملمحاً مميزاً لمجرى الكلام، مثل تلك الملامح السياقية الدالة أسلوبياً والخارجة عن الكلام أو النص. ولم يكن غريباً أن يجعل إنكفست – مثلاً – مكاناً للحركة الجسمية فى نموذجه الذى صمّمه لأنماط السياق. وقد جعل هذا المكان بين عناصر السياق الخارج عن النص extratextual context الذى يعد – فى هذا النموذج – مقابل السياق النصى textual context .

---

(23) Goffman, p. 65 .
(24) Salzman, p. 198.
(25) Enkvist, Nils Erik: Lingusitic Stylistics, ibid, pp. 58 – 59.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

إن الافتراضات التى تكمن فى علم السلوك الحركى، هى أنه لا حركة جسمية ولا تعبير وجه، يعوزه المعنى فى السياق الذى يقع فيه، وأن الحركات الجسمية، ووضع الجسم الخاص posture، وتعبيرات الوجه، ذات أنماط معينة، كما فى الحال مع المظاهر الأخرى التى يعرفها السلوك الإنسانى الاختيارى.

وتعد الحركة التعبيرية والتعبير بالوجه، من عناصر الدراما الجمالية aesthetic elements of drama؛ فإلى جانب الحدث، والرقص، والموسيقى والغناء، هناك الحركة التعبيرية expressive movement والتعبير بالوجه mime ؛ وذلك أن طريقة العرض فى الدراما ليست محصورة فى اللغة وحدها، ولأنها تتضمن حدثاً فيزيقيا يؤدى ممثلون أحياء، فإن هناك مجالا إضافياً للوسائل التعبيرية المقيدة لكل من المؤلف والمنتج. على سبيل المثال، يمكن لحركات الممثل وتعبيرات وجهه أن تحكى الحدث action أو الحالة state التى يوحى بها الحوار وتعززهما، ويمكن لها أيضاً أن تضادّ النص الأدبى وتخالفه، حتى تلك الأحداث الإضافية التى لا يحددها المؤلف حقيقة.

وقد تثير هذه الحركات والتعبيرات مشاركة وجدانية، تتبدى فى رد فعل المشاهدين على شخصية الممثل أو لما وضع فيه من مأزق حرج. إن عرض الأحداث بغرض تعزيز الحبكة أو التعبير عن تعليق على الحدث، مما يمكن إنجازه دون حاجة إلى حوار خارجى dialogue. ويعرف هذا باسم «التعبير بالوجه أو التقليد بالإشارات mime »: أى الإشارة أو الدلالة على الأحداث وردود الأفعال عن طريق حركة الجسم وحدها.

وبالإضافة إلى تعزيز الحبكة plot، يمكن أن يستعمل التقليد بالإشارات أيضاً من أجل إنتاج مادة مناسبة تمنح خلفية وتوفر طابعاً دراميا، مما يضفى حياة ولوناً خاصاً على المسرحية.

إن تلقائية متواليات التقليد بالإشارات وهزليتها، مما يضيف قدراً عظيماً إلى نسيج العمل وإلى بنيته وأهميته.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كان التقليد بالإشارات وسيلة فوق أدبية، فإن الحركة الجسمية – عندما تكثف وتنظم فى المكان والزمان – تصبح رقصاً، بالطريقة ذاتها التى يمكن بها أن ينهض الكلام الجزافى إلى مستوى البيت الشعرى أو الترنيمة أو الأغنية.

إن هناك بعض الانفعالات التى تعد فوق التعبير بالكلمات، أو حتى فوق التعبير بالحركات الجسمية العادية. فى مثل تلك اللحظات من التوتر العالى، ينبغى للشخصية أن تلجأ إلى الرقص، وأن تجعل المشاهدين يشاركون – على نحو تخيلى – فى الصيغة التى أبدعت[26].

وتنهض هنا مسألة التمثيل الواقعى، من حيث إن المشاهد يقارن طريقة الشخصية الدرامية بنماذج من المتكلمين فى الحياة الواقعية؛ أى فى المواقف الاتصالية المماثلة. لا بد فى التوظيف التعبيرى للحركات الجسمية فى الدراما من الالتصاق الحميم ببنية النص الدلالية العميقة وبسياقه الموقفى الكلى، ولا بد أيضاً من مضاهاة تلك الحركات الواقع المرئى فى إتقان رفيع. ويشير ريتشارد تايلور R. Taylor إلى أن الممثلين الهواة يقعون فى خطأ ترجمتهم كل المشاعر إلى عبوس الوجه عبوساً مبالغاً فيه، أو تشخيص بعض الأوضاع والحالات الكائنة عن طريق حركات جسمية[27].

ومن وجهة النظر إلى تقنيات الحدث الدرامى، يلاحظ أن الحركة بعامة movement والحركة الجسمية بخاصة gesture، أشد تعبيرية من النظرات المجردة. ونحن نفهم كثيراً عن طبيعة الشخصية ووعيها الداخلى inner consciousness، من الطريقة التى تسلك بها سلوكاً ما، سواء فى المواقف المألوفة أم فى المواقف الخاصة. إن رؤيتنا شخصاً يهرول إلى الغرفة، ويغلق الباب فى عنف، ويلقى بكتاب على الطاولة، سوف يفهمنا حالته الانفعالية. ولن يستطيع تقطيب الوجه أن يعطى هذا الأثر ذاته[28].

---

(26) Taylor, Richard: Understanding the Elements of Literature, Hong Kong (1981) pp. 118 - 120.

(27) المرجع السابق ص 123

(28) المرجع نفسه ص 123

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولا يغيب عن بالنا هنا ما يملكه الممثلون الكوميديون من مهارة فى تحريف المعنى فيما ينطقون به من سطور، او إبطاله، او قلبه قلباً كاملاً، عن طريق إتقانهم تقطيب الوجه أو تلعيب الفم، أو اية حركة جسمية أخرى ذات مضمون اتصالى مختلف. ويعرف أهل التمثيل الصامت المحترفون كيف يجعلون النظارة على الدمع او الضحك، دون أن ينطقوا كلمة واحدة.

السلوكيات الحركية إذن قناة اتصال خطيرة، وهى – بلا شك – جزء مكمل للنشاط الاتصالى اليومى الذى يمارسه كل فرد.

(5) السلوك الحركى ووظائفه الخطابية :

فى عام 1927 لاحظ إدوارد سابير Edward Sapir القيمة الاتصالية النظامية التى تتمتع بها الحركة الجسمية قائلا: «إننا نستجيب للحركات الجسمية فى خفة ويقظة بالغة، وفقاً لشفرة محكمة الصنعة وسرية، مكتوبة فى أى مكان، ولا يعرفها أحد، ويفهمها الجميع»[29].

وفى عام 1968م لاحظ آيركرومبى العلاقة بين التكلم والأعضاء الصوتية من ناحية، والتخاطب والحركة الجسمية من ناحية أخرى؛ يقول: إننا نتكلم بأعضائنا الصوتية، ولكننا نتخاطب بأجسامنا؛ فالخطاب يتكون من أكثر بكثير من المبادلة البسيطة لألفاظ منطوقة[30].

وفى عام 1970م استخدم بيردويستل Birdwhistell كلام سابير نقطة انطلاق أساسية لعمله عن فهم السلوك الحركى Kinesics من خلال السياق. وكانت فرضيته الجوهرية هى أن هناك مجموعة من السلوكيات الحركية الجسمية الضرورية التى ترتبط بالبنية اللغوية ارتباطاً مباشراً.

---

(29) Gosling, John: Kinesics in Discourse, in: Malcolm Coulthard and Martin. Montgomery (eds.): Studies in Discourse Analysis, Routledge, London and New Youk. (1981) pp. 158 – 159, p. 166.

(30) المرجع السابق ص 158.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

وكان لبيردويستل السبق إلى تطوير منهجية علمية لدراسة مظاهر الحركة الجسمية في السلوك الاتصالي الإنساني ووصفها عن طريق الوحدات التي توازي الوحدات المستخدمة في التحليل اللغوي، متأثراً في ذلك بعلم اللغة البنيوي. وتعرف إحدى هذه الوحدات، وهي الوحدة الحركية Kineme (قياساً على الوحدة الصوتية Phoneme)، تعرف بأنها الوحدة التقابلية المميزة الصغرى للحركة الجسمية. ويطلق على تنوع الوحدة الحركية اسم allokine (قياساً على تنوعات الوحدة الصوتية الواحدة allophone).

وتقع الوحدات الحركية Kinemes في ضمائم، وتقع هذه الضمائم – بدورها – في أبنية أوسع. على سبيل المثال، فإن إغلاق جفن العين وإعادة فتحه سريعاً، يمكن ان تكون لهما أهمية من الناحية الاتصالية، إذا لم تكن هذه الحركات اضطرارية. ويمكن لمعنى هذه الغمزة أو الإغماضة أن يمتد من المكايدة إلى التواطؤ على شر.

أما العملية ذاتها، فتعد وحدة حركية. وأما ضميمة الإغماضات أو الغمزات – مع رفع حاجب العين وزاوية الفم – فإنها تنتج صيغة حركية تخص الوجه.

لقد برهن بيردويستل على أن السلوك الاتصالي البصري يتيح خواص شكلية formal properties مطابقة – على الأقل – لتلك الخواص القابلة للوصف في السلوك السمعي[31].

إن الخلاصة التجريبية، هي أن العناصر السلوكية الحركيةKinesic elements تظهر في مجاريها التفاعلية مصاحبة لمجرى الكلام أو مستقلة عنه استقلالا ظاهرا: «إننا نعرف بعض الأشياء عن هيئة الجمل المنطوقة وعن هيئة السلاسل الحركية المكونة تكويناً معقداً. ولكننا شرعنا فقط في تأمل هيئة القوالب التبليغية. من المؤكد أن كل شيء نعرفه عن المنطوقات والأحاديث، يدل على أن السلوك الاتصالي سلوك متشعب

(31) Birdwhistell, Ray, L.: A Kinesic linguistic Exercise: The Cigarette Scence, in: John J. Gumperz and Dell Hymes (eds.): Directions in Sociolinguistics. Basil Blackwell, Oxford (1989) pp. 381 – 409, p. 385.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الزمن، ولكن الأعراف المختصة بالمشاهدة أو الملاحظة تحجب كثيراً من حركية هذه العملية من الناحية التحليلية»[32].

وبالرغم من أن المنهج الكلى والسياقى للاتصال الذى دافع عنه بيردويستل قد صار مقبولا على نحو مطرد، فإن المدى الذى يمكن أن تحلل فيه اللغة الجسمية فى حدود وحداته يظل مثيرا للجدل، ومن أسباب ذلك أن التسجيل المفصل الذى هو معقّد ويستنفد الوقت[33].

من ناحية اخرى، فإن نموذج بيردويستل اللغوى لا يبدو -كما يقول جوسلنج - مفصلا إلى مستويات لغوية شكلية، تقترن - بألحاء متنوعة - بتحقيق وظائف خطابية. وهنا هو العيب الجوهرى[34].

ولكن يبقى لمنهج بيردويستل فضل التنبيه - على نحو علمى عملى - إلى القيمة الاتصالية للسلوك الحركى بعامة، فضلاً عن اهمية دراساته فى البرهنة على أن علامات الباراكينات Parakinesic Signals عبارة عن نافذات إحالية لقنوات تفاعل أخرى. وهذه العلامات الإحالية تقوى الأبنية الشكلية الأخرى وتؤكدها وتكيفها. كذلك، فإن هذه العلامات تضع تقارير مفيدة عن السياق الموقفى للرسالة، مما يساعد فى التعريف بسياق التفاعل Context of interaction، بالتحقق من الفاعل Octor أو جماعة المستمعين Owdience ، وفضلاً عن ذلك، فإن تلك العلامات توصل معلومات عن السياق الأكبر الذى يقع فيه التفاعل.

وإذا كان بيردويستل قد علق عمله على المعنى، فإن ذلك يعزز المنهج الذى أخذ به - بعد ذلك - جون جوسلنج، وهو تحليل السلوك الحركى فى ضوء وظائفه الخطابية.

لقد لوحظ فى بحث الفاعلية الحركية عند بيردويستل - بما تكونه من نظام

---

(32) راجع : Gosling, John : Kinesics, ibid, p. 167

(33) Saleman, P. 216
(34) Gosling, ibid, p. 166

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اتصالى نحنى – أنها تفتقد التنظيم الصريح القاطع المنهجى، وأنها تغرق الباحث بقطع وطبقات سلوكية جمة.

من هنا كان تركيز جوسلنج على فحص العناصر الحركية التى تبدو ذات وظائف خطابية discourse – functional.

قدم جون جوسلنج فى بحثه (السلوك الحركى فى الخطاب 1981م) تأملا نظرياً لهذا السلوك معتمداً اعتماداً دقيقاً على معلومات محللة، وهى معلومات فعالة فى عمل فرضياتها. وينطلق جوسلنج فى بحثه هذا من وجوب تأمل السلوك الحركى باعتباره جانباً ضرورياً ومكملاً للتحليل اللغوى لخطاب المواجهة – Face – to – face discourse. والسلوك الحركى عند جوسلنج مفهوم يقصد به ما يغطى جوانب بعينها من السلوك الاتصالى غير الصوتى بين المشاركين فى الخطاب[35].

يبين جوسلنج أن نموذج الخطاب الأصلى الذى قدمه سنكلير Sinclair وكالثارد Coulthard فى عام 1975م قد اعتمد على مبدأ غير بنائى للموقف، ورأى أن هذا المبدأ قد قدم صعوبات نظرية أساسية لتطويره واستعماله فى مجالات التفاعل اللغوى، حيثما تكون القيود الموقفية أشد تعقيداً وأقل وضوحاً لمعالمها من تلك القيود التى تعرفها المواقف الكلامية المختارة من قبل؛ كالتدريس الصفى، والمقابلات الإذاعية، والاستشارات الطبية.

من هنا، كانت الحاجة إلى أن يكون تحليل الخطاب مدعماً بشىء من وصف المعرفة المناسبة وصفاً منظماً، وهى – غالباً – معرفة ضمنية بما وراء اللغة، ينتفع بها المشاركون بما هى الأساس السياقى لتفاعلاتهم اللغوية اليومية[36].

وبناء على تعريف جوفمان Goffman (1964م) الموقف الاجتماعى بأنه: «الوسط الذى يشهد إمكانات الإعلام أو التنبيه المتبادلة»، وبناء على فكرة هايمس عن الكفاءة التوصيلية، فقد انتهى جوسلنج إلى أن هناك – فى كل موقف – أعرافاً

---

(35) Gosling, p. 158.

(36) المرجع السابق ص 158

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لغوية اجتماعية أو «قوانين استعمال» يتوقع أن يخضع لها المشاركون. من ثم، فإن اختيار الوظيفة الخطابية على نحو محدد، ينبغي له أن يكون مقبولاً في سياق بعينه، بينما لا يكون كذلك في سياق آخر، حتى بين المشاركين أنفسهم. ومن الأمثلة على ذلك الاختيارات الخطابية التي يتخذها معلم وطالب من مناقشتهم مقالاً، مقارنة بالاختيارات التي يتخذها هذان الشخصان ذاتهما، عندما يشتركان في تحصيل دورة عملية في الفصل مع دارسين حاضرين.

من ناحية أخرى، يؤكد جوسلنج أنه لا ضرورة لأن ننأى عن السلوك التوصيلي الملحوظ مباشرة بغية حل إشكالية الموقف في علاقتها بنظرية أعم للخطاب.

ومهما يكن من أمر، فإن النظر إلى المتغيرات اللغوية المتاحة للمتكلم؛ أي إلى العناصر التي ينتقي منها في تشكيل خطابه في تفاعل مباشر أو في تفاعل قائم على المواجهة، يبين لنا أن هناك منطقة هامة لم تلق إلا عناية ضئيلة بالطرق المناسبة للإقدام على تحليل خطابي، وهي منطقة الاتصال غير الصوتي non-vocal communication. وهذه المنطقة يعوزها – كما يقول جوسلنج – منهج مبني على أسس، وبدون هذا المنهج المبني على أسس للتعامل مع دور السلوك الحركي في الخطاب، سوف تصبح أي محاولة للوصف والتحليل الكاملين للمعطيات اللغوية الهامة في تفاعل المواجهة، محاولة ينقصها عدد من الاعتبارات الهامة، لا سيما في الخطاب متعدد الأطراف، حيثما تكون حقوق التكلم المشترك واسعة[37].

إن وصف الواقعة الكلامية يتسع لجميع الناتجات الهامة توصيلياً في تفاعل المواجهة، وهو وصف يتضمن التعامل مع الفونولوجيا، والوحدات المعجمية، والنحو، والسلوك الحركي، بما هي جميعاً تحقيقات شكلية للأنواع المتنوعة من الوظائف التفاعلية التي يعدّ بها الخطاب مكوناً أعظم[38].

---

(37) المرجع السابق ص 158 – 159

(38) المرجع نفسه ص 160.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اما المعطيات التى بنى عليها بحث جوسلنج، فكانت عدداً من المناقشات فى حلقة بحث مسجلة بالفيديو. وقد جعل جوسلنج محاوله فى تحليل المادة، فى حدود النموذج الذى قدمه كل من سينكلير وكالتارد (1975م)[39]. وفيما يلى نجمل اهم المحاور والنتائج التى ضمها هذا البحث:

(اولاً) تعد حلقات البحث وقائع اتصالية متعددة الأطراف، ويعطى فى هذه الوقائع ثقل عظيم لعناصر التفاعل الصوتية. ولم يعول جوسلنج على هذا الشريط السمعى وحده فى استقاء معلومات كافية لتحليل السلوك الاتصالى تحليلاً وظيفياً؛ فقد دون جوسلنج ملحوظاته فى الوقت نفسه الذى أجرى فيه التسجيل. وإذا لم تتح لنا المعطيات البصرية Visual data، سنفقد قدراً عظيماً: من يخاطب الآخر، ومن يصغى عياناً إلى الآخر، وإلى أى درجة، وفى أى الموضوعات، وهل يحاول أحد الأشخاص الدخول فى المناقشة. إن الإخبار عن الحالة أو السلوك، مما يمكن نقله ايضاً بوسائل غير صوتية non-vocal means، وعلى نحو ما تكون ردود الأفعال على المتكلمين، فإن الإيماءات مثال عظيم على ذلك ايضاً.

(ثانياً) يبدو الاتصال غير الصوتى على أهمية عظمى فى مظاهر التفاعل بين الأشخاص، عندما لا تتاح القنوات الصوتية؛ لأنها مشغولة بالفعل. ويرتبط المظهر البارز من وظيفة الخطاب، المتحقق على نحو غير صوتى، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأخذ الدور turn taking وبتعيين المتكلم speaker – nomination.

(ثالثاً) تظهر أنواع الوظيفة التفاعلية المتحققة بوساطة السلوك الاتصالى غير الصوتى، تظهر ارتباطاً مشتركاً بالفونولوجيا أقوى من ارتباطها بالمستويين الشكليين الأخرين: النحو grammar ، والدوال المعجمية lexis.

---

(39) وذلك فى كتابهما : Sinclair, J. Mc. H., and Coulthard, R., M.,: Towards an Analysis of Discourse, Oxford uni. Press. London (1975).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(رابعاً) يمكن أن تنقسم المنطقة غير اللفظية إلى منطقة صوتية ومنطقة غير صوتية. ويصعب رسم الخط الفاصل بينهما، لا سيما من وجهة النظر الفسيولوجية، وذلك أن المقطع المنبور نبراً عالياً – على سبيل المثال – سيكون مصحوباً بشد عضلي يرافقه في مناطق أخرى. ومن المفيد – من الناحية الوصفية – أن نميز بين السلوك الذي يختص اختصاصاً مباشراً بالتصويت phonation وبين السلوك الذي لا يختص به. ونسمي الأول بالصوتي vocal، بينما نسمي الآخر بغير الصوتي non – vocal. ونبدو هنا علاقة مباشرة بين السلوك غير الصوتي والتنغيم أقوى من العلاقة بين هذا السلوك وبين المستويات الأخرى كالنحو، والدوال المعجمية. إن كلا من التنغيم والسلوك غير الصوتي أشد ربطا لوجهة نظر المشارك بـ «الغير» في حدود توجه الخطاب discourse orientation (أي انتقاء النغمات الدلالية أو الإبلاغية) واستخدامه النغمة للدلالة – إلى جانب أشياء أخرى – على درجة التعاكس أو درجة التوازن contrastive – or – equativeness، والدلالة على إمكانية استمرار المنطوق أو توقفه.

(خامساً) يبدو أن هناك جسراً بين بعض مظاهر السلوك غير الصوتي وبين التنغيم، وهو ما بينه كيندون Kendon (1972م) حين ذكر أن تمثلا للمحكومة كان ينقر بإصبعه على المنضدة في إيقاع ثابت مستريح، ثم يشرع في الكلام بعد حوالي عشر ثوان. وقد لوحظ في هذه المجموعة النغمية الأولى أن المقطع النغمي يتوافق مع نقر الإصبع[40].

وهناك أعمال تبين أن إيقاعية منطوق بعينه تدعم بحركة تزامنه[41]. ولا نجد وجهاً لتشكك جوسلنج في أن موضع هذه الحركة من النغمة هو الذي يجعل تلك

---

(40) المرجع السابق ص 161 – 162.

(41) راجع مثلاً :

Ekman, P., and Friesen, W.V.: Hand Movements, in: Journal of Communication, 22 (1972) pp. 353 – 374.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقاطع تبين ما فيها من بروز رئيسى[42]، وذلك أن البروز النغمى أداته غير الصوتية هى – إذ ذاك – الحركة، والحركة ردفه فى الزمن.

(سادساً) من الثابت أن السلوك غير الصوتى هام جداً فى توصيل المعنى بأنواعه المختلفة بين الناس. وفى الخطاب متعدد الأطراف – لا سيما حال مقدرة المتكلمين على أن يخاطبوا بأنفسهم أى مشارك أو مشاركين – يتبين لنا من تأمل انتفاء الأثر الصوتى وحده أن أى محاولة لتأسيس العلاقة بين المرسل والمستقبل، ستكون عديمة الجدوى إذا لم يرجع فيها إلى الإشارات أو التلميحات البصرية Visual Cues. ويتضمن هذا – فى ذاته – تبريراً أو تأييدا للإقدام على علم السلوك الحركى الخطابى discourse kinesics فى مثل تلك المواقف الكلامية التى تصنع – بالطبع – غالبية التفاعلات التخاطبية الإنسانية.

(سابعاً) كان هاليداى قد اقترح إطاراً عاماً للمستويات، صممه لبيان التنظيم الداخلى للنص المنطوق والمكتوب. وتتحقق الوظائف الخطابية على ثلاث مستويات شكلية هى: النحو، والدوال المعجمية، والاختيارات التنغيمية. وقد نظر إلى الفونولوجيا على أنها مستوى بينى، يربط المادة الصوتية بالصيغة. ومعروف أن النص ينطلق من كونه مبدأ لفظياً بالضرورة. وإذا استوعبنا التفاعلية الإنسانية على أنها مكون النص، أو استوعبنا وظيفة الخطاب – بخاصة – على أنها عنصر بارز أو ملح فى مبادلة المعانى بين المشاركين فى تفاعل المواجهة، فإن حالة من التوسع فيما يضمه مستوى الصيغة العام، سوف تحصل إذ ذاك. سنظل نقطع بأن الصيغة تشخص بوساطة النماذج اللغوية المتكررة التى تحقق – بألحاء متنوعة – وظائف لغوية.

وبناء على هذا الأساس الذى وضعه هاليداى لمقولات نظرية لغوية، يبدو معقولا – فى نظر جوسلنج – توسيع مستويات الصيغة، من أجل احتواء كل المناطق التى تحقق – على نحو منتظم – وظيفة خطابية. ويقترح جوسلنج أن يكون المستوى

---

(42) Gosling, P. 162.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجديد المبتكر مدعوا باسم «علم السلوك الحركي» الذى يضم كل الحركات الجسمية الدالة أو متواليات الحركات الجسمية التى تحقق وظائف تفاعلية فى المواقف الاتصالية القائمة على المواجهة face – to – face communicative situations[43]. ينظر هنا إذن إلى السلوك الحركى على أنه مستوى من مستويات الصيغة اللغوية ذاتها.

(ثامناً) وقد سعى جوسلنج إلى محاولة وصف بعض الوظائف التفاعلية العامة لهذا المستوى الحركى الجديد، باعتبار ما يقدمه من إخبار نافع عن مشاركة المشاركين، أو حالات اللعب states of play فى نقاط بعينها من الواقعة الكلامية. ومن أهم استعمالات الحركة الجسمية خطابياً وتفاعلياً ما يلى:

أ- تقدم الحركة الجسمية بديلا غير صوتى للوظيفة الخطابية؛ إذ تجعل إماءة بهز الرأس علامة على الموافقة، كأنها كلمة "نعم"، وهى تستخدم – إذ ذاك – كأنها عبارة عن تقيد بوعد.

ب- وربما كان من الأفضل أن ننظر إلى السلوك الحركى على أنه يساعد فى ربط الوظائف الخطابية – بطرق مختلفة – بخصائص الموقف الخارجة عن النص، إذ ننظر إلى الموقف هنا على أنه العلاقات الديناميكية الدائرة بين المشاركين.

ج- كذلك، فإن دراسة السلوك الحركى تميط اللثام عن عدد من الوظائف التى لا تتحقق هويتها بين غيرها من الوظائف التى تتبدى على المستويات الشكلية الأخرى. وربما دل السلوك غير الصوتى لجماعة المستمعين على هذا المعنى: "إنه دورك" (أى كف عن الكلام).

د- يشير السلوك التفاعلى غير الصوتى إلى تقويم المتكلم – لحظة لحظة – حالة التقارب أو الاتجاه إلى نقطة واحدة فى زمان التكلم ومكانه.

هـ- إن تأسيس علم السلوك الحركى على أنه مستوى شكلى مستقل، يعد شيئاً هاماً، باعتباره أداة تفسيرية، تقف إلى جانب الاعتبارات النظرية الأخرى تماماً.

---

(43) المرجع السابق ص 162 – 163.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

و- في أى خطاب، يمكن أن تشخص نقاط التكملة أو التكملة المحتملة فى المنطوق Utterance أو فى الدورة turn بواسطة التكملات على مستويات شكلية متنوعة، ويعد السلوك الحركى أحد هذه المستويات. ومن الأمثلة على ذلك، أن المرء – فى إنهاء الدورة على نحو حاسم حقاً – يتوقع فاصلاً جملياً، ليس أكثر من إطالة الوقت بمركبات جملية متعالقة أو مترابطة. وقد يحدث ذلك عن طريق النهاية المنخفضة، أو عن طريق النظرة غير المركزة unfocused gaze (وقد تكون متبوعة بتعيين عينى eye nomination، ولكن هذا يشفر على أنه مادة تابعة)، أو عن طريق ثنى الأيدى، أو عن طريق الإعلان عن النهاية بحال من السكوت. وربما كانت هذه الفواصل فى حلقة بحث بين المتكلمين متبوعة بصمت، قبل أن يتكلم متكلم جديد، وربما كان هناك – قبل ذلك – شئ من السلوك غير الصوتى. وهذا شبيه بعلم الأسلوب، حيث نجد فى الشعر توافقاً لطيفاً بين الوحدات الفونولوجية كالبيت الشعرى أو السطر، وبين الوحدات النحوية كالجملة أو العبارة.

ز- ومن الأسباب الأخرى لجعل السلوك الحركى مستوى شكلياً من مستويات تحقيق الوظيفة الخطابية، أنه يبدو ممكنا استعمال السلوك غير الصوتى للإبقاء على دورة التكلم (أى مواصلة حقوق التكلم)، بالرغم من أن الدورة – فى حدود التحقيقات على مستويات أخرى – يمكن لها أن تكون قد وصلت بالفعل إلى نهايتها. إن وضع المشاركين وحقوقهم التالية فى الكلام أو فى المقاطعة، تبدو هنا أيضاً حقوقاً مشتركة، ولكن يتوقع أن كثيراً من تلك الحقوق مما يمكن شرحه وتوضيحه فى حدود السلوك الحركى. بعبارة أخرى: يتعرف الناس على علامات الغلبة الحركية Kinesic signals of dominance من الآخرين، باعتبار ذلك جانباً من جوانب تنشئتهم الاجتماعية وتعلمهم، مع أشياء أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ح- على أية حال، فليست هناك علاقة ضرورية بين المستوى اللغوى من المادة الإدراكية الواردة The linguistic level of a perceived input item ووضعها فى تدرج من الوحدات من ناحية، وبين هذا المستوى ووضع الاستجابة الصادرة المناظرة المناسبة من ناحية أخرى. على سبيل المثال، فإن رفع حاجبى العينين إلى أعلى، ونظر المستمع نظرة تصميم وعزم، ينبغى لهما ان يحملا المتكلم الذى يشاهده على اختيار مواده المعجمية التالية فى عناية أشد مما كان سابقاً، لا سيما إذا كانت علاقات الحالة Status relations لصالحة المستمع.

ط- وإذا افترضنا - عودة إلى مسألة أخذ الدور - أن نقطة التكملة المحتملة قد وصلت إلى نهايتها فى الخطاب، فإننا نجد عند هذه النقطة - من الناحية النظرية - إمكانيات عدة: يمكن لمتكلم آخر أن يأخذ دورا بعد وقت ما، وقد تكون هناك وقفة مربكة. ويمكن للمتكلم الأصلى أن يواصل كلامه، وقد يشد الصمت كأنه الحجر القاسى (تعد الثوانى الثلاث - فى الواقع - وقتا طويلاً جدا). وربما سبقت الوقفة أو علمت بالمهمهة البسيطة: م م، أو بإيماءات بهز الرأس nods.

ى- يلزم - مع مسألة أخذ الدور - أن ننظر إلى السلوك الحركى على أنه مستوى شكلى له مكانته الخاصة. ومما يلاحظ هنا أن المتكلم - مع نهاية دورته أو عند اقتراب هذه النهاية - يشغل بتأسيس اتصال بصرى eye - contact مع عضو آخر من المجموعة، ويقع هذا الشخص - من ثم - تحت ضغط مؤثر، أن يشرع فى كلامه بعد الأول. ولمنزلة المتكلم الأول ضغطها الأشد على هذا الشخص.

إن استخدام الاتصال البصرى فى التأثير فى اختيار المتكلم التالى، مما يبدو سمة مميزة عامة من سمات التفاعل اللغوى وجهاً لوجه فى الحضارة الغربية (والعربية أيضاً). إن تجنب المرء الاتصال البصرى، يعنى أن ليس عنده ما يلزمه بالكلام. ويعد

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الاتصال البصرى (أو التعيين البصرى) وسيلة تكتيكية تنال اهتماماً عظيماً من الملحين مع طلابهم.

وقد يرغم المرء فى الاتصال البصرى على الاستعانة بالقناة اللفظية. ويعد الاتصال البصرى – فى مثل هذا الموقف – وسيلة غير ناطقة أو عجماء – brutal device، ويحتاج إلى تخفيف أو تلطيف لفظى لاحق – Subsequent verbal mitigation، وهو يبين أن هناك علاقة من نوع ما بين المستويات المختلفة. إن المشاركين يودون الكلام فى نشاط وإيجابية ناشدين اتصالا بصرياً، وموجهين نظرتهم – بناء على ذلك – إلى المتكلم الذى يمتلك الخبرة فى تحقيقه[44].

ك – وتتعامل البحوث عن «حركية المجموعة Group dynamics » مع الأوضاع النسبية لأجسام المشاركين ومواقعهم. ويلاحظ أن الموقع Position يؤثر فى إنتاج حركات جسمية بعينها؛ فالمشارك يدير رأسه عندما يلتفت إلى مخاطبه. وتعتمد هذه الاستدارة على المواقع النسبية لكلا المشاركين. وتعد المسافة بينهما هامة أيضاً من الناحية الحركية الجسمية. ومن الطريف أن من يمتلك حقاً أكبر فى الكلام – سواء فى التعليم الصفى التقليدى أو فى حوارات المحاضرات العلمية – يحظى أيضاً بحرية موقعية أكبر، إذ يمكنه أن يقف وأن يتكلم حولهم، مما قد يؤدى إلى انتشار الحركات الجسمية وتوزعها.

وعندما يدخل شخصان أو أكثر فى تفاعل اتصالى، فإن شرائحهما التعاملية تتداخل، ومن ثم يتنجان – فى آن واحد– «صيغة مواجهة» تعرض ظروف تبدل النطوق؛ كالتلميحات والحركات الجسمية التى تتكون منها الخطابات.

وكان عمل كيندون Kendon قد كشف -- فى وضوح – عن توازيات بين نظام بعض مظاهر السلوك غير الصوتى التى تبدو وظيفية خطابياً وبين العمل المتحقق فى الخطاب، لاسيما على مستوى المبادلة exchange والتعامل transaction. إن

---

(44) المرجع السابق ص 163 – 166.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التحية البسيطة الروتينية، تؤدى – فى أى مكان للعمل – بتبادلية النظرة، بالإضافة إلى الحواجب المنخفضة، فإذا فعل احد المشاركين حواجبه، فعل المشارك الآخر الشيء نفسه. وهذا مما يمكن أن ينظر إليه على انه مبادلة حركية Kinesic exchange، وإن أمكن أن نجعله حقاً مبادلة أولية تعاملية. ويمكن لنا ايضاً أن نجعله موازياً تماماً لتحقيقات المستويات الصوتية. إذا أنتج احد المشاركين الإخبارية Hi – فى نغمة متوسطة – فعل الآخر مثل فعله.

ومن محددات المبادلة الحركية، تعيين المتفاعلين الموقف، ودرجة التزامهم، ونحو ذلك من المحددات التى تؤثر فى اختيارهم التحقيق على المستوى الحركى. من هنا، فإن التمييز بين الوظيفة التفاعلية العامة والوظيفة الخطابية المحددة، يعد تمييزا مفيدا: فالتحية تظل تحية خطابياً، حتى بالرغم من إمكان اختلاطها بالتحقيقات التى تمنع من عوامل اخرى، كالوضع التأثيرى affective state الذى يعد هاماً فى حدود التفاعل[45].

ل- ويتضمن مشروع علم السلوك الحركى الخطابى discourse Kinesics عزل السلوكيات غير الصوتية ووصفها، تلك السلوكيات المتنوعة التى تحقق – على نحو منتظم – وظائف تفاعلية، لا سيما الوظائف الخطابية منها. وبناء على ذلك، فإن البحث عن المواد الحركية الجسمية الدالة بحثاً مباشراً وفى حد ذاته، لا يعد منجهاً مفيداً، وذلك انه لا يفيد فى تأمل أهمية وقوع هذا السلوك غير الصوتى الذى تدعمه وتبينه الموضوعات والقضايا المصوغة لفظياً – verbalized propositions. والأحرى أن ننظر إلى السلوك الحركى فى حدود عدد كاف من الاختيارات بين المواد المحققة لوظيفة خطابية، والتى يملى مكانها من النظام دورها الاتصالى.

م- وهناك معطيات أخرى تقدمها تحليلات جوسلنج، تتضمن أموراً هامة للوظيفة التفاعلية، وإن لم يكن لها – بالضرورة – وظيفة خطابية. تعرض هذه المعطيات

---

(45) المرجع السابق ص 168 – 169.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

انواعاً من التغير المرتبط بالجلسة، أو الوقفة أو الوضع الجسمى الخاص، أو التغير المرتبط بالحركة الجسمية. وتنتج هذه التغيرات من سلوك المشاركين فى آن معاً فى مواضع بعينها من المحادثة. ومن الأمثلة على ما سبق: تقطيب الوجه الذى يستخدم – فيما هو شائع بين الناس – للإشارة إلى اختلاف أو نزاع محتملين مع ما قيل للتو (أو مع ما فعل للتو). ويحقق التغير الوضعى والتغير الحركى الجسمى وظائف تفاعلية، فتشابه المشاركين فى هذه التغيرات، يوحى بالتماسك أو التضامن فى اعتراضهم أو قبولهم ما سمعوه لتوهم. ومن المعمول به – مثلا – فى نظام الموسات إظهار الأيدى عند أخذ الأصوات فى جلسة بعينها. ولهذا التمييز بين الموافقة والمعارضة – فى المجال غير الصوتى – توازيات مع ميادين أخرى من علم اللغة، ومن ذلك عمل جيلس Giles عن التقارب النبرى والتباعد النبرى – accent convergence/divergence، ومنه أيضاً نموذج بورتون Burton عن المحادثة العرضية أو المفاجئة (casual conversation)[46].

وغنى عن البيان أن المشاركين يختارون بين دورين اثنين ممكنين: دور المتكلم أو دور غير المتكلم. وبالنظر إلى فحص كيفية ممارسة هذين الدورين من الناحية السلوكية الحركية، نلحظ أن السلوك الحركى – بطبيعته المؤكدة emphatic – يمكن المرء من الاتصال دون تكلم، ولهذا دلالاته الهامة على بحثه بحثاً منظماً. إن السلوك الحركى المرتبط بالكلام، يصبح ذا وظيفة خطابية عندما يحقق تبادلية بين المشاركين فى نقطة ما.

ومما يبدو هاماً ودالا على وظيفة خطابية متحققة على المستوى السلوكى الحركى: تغير الهيئة أو الوضع الجسمى Postural change. فهذا الوضع يدل على استقبال المرء قطعة من الخطاب، ويشير إلى رغبة أحدهم فى تغيير المتكلم مثلاً.

---

(46) ربيع

Burton, D. : Towards an Analysis of Casual Conversation. Nottingham linguistic circular, 17,2, (1978) PP. 137 – 159.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويستطيع غير المتكلم – أثناء دورة بعينها – أن يغير وضعه الجسمى و نظره ناحية المتكلم تغييراً فجائياً تماماً. ولهذا التغيير علاقته بدرجة انشغاله بالموضوع الذى يدور حوله الحديث للتو. ويمكن أن يعد هذا مكوناً من مكونات الوظيفة الخطابية، وهى هنا – على وجه التحديد –: الرغبة فى التكلم أو طلب الدور turn claim.

وبالإضافة إلى الإسهامات الممكنة فى الوظيفة الخطابية التى يقدمها تغير الوضع الجسمى، فإن الوضع الرئيس ذاته يؤثر أيضاً فى تحقيق حركات جسمية أخرى هامة خطابياً؛ وذلك أن الطريقة التى يستخدم بها المتكلم ذراعيه ويديه – على سبيل المثال – تبدو متأثرة بدوره فى الوضع الجسمى الكلى.

وفى حدود الوضع الجسمى الرئيس – فى علاقته بدور المتكلم – يبدو لنا أن الحركات الجسمية الأولية التى ترتبط بـ «دورة المتكلم» هى وضع الجسم نصف قائم، مع رأس منخفضة فى البداية، متجهة ناحية المتكلم السابق.

ن- إذا عدنا إلى النظرة والاتصال البصرى، وجدنا أنفسنا فى أوسع أقاليم السلوك الحركى. نلحظ هنا أن المتكلم النمطى يميل إلى بدء دورته نتيجة تبادلية النظرة مع المتكلم السابق. وينظر ذلك المتكلم – بعد هذا – بعيداً، ثم يوزع نظرته على المجموعة، مركزاً – دون إطالة – على الأعضاء المنفردين، وينظر – من حين إلى آخر – إلى أسفل، أو ينظر متفرساً المكان دون تركيز. ويعتقد أن الوظيفة الخطابية الإضافية لما سبق، هى الالتماس الارتدادى أو الارتجاعى feedback request، الذى يتحقق عن طريق معاودة النظرة التنبيهية المترددة. ويبدو أن مثل هذا السلوك سلوك يميز النقاش الديمقراطى. ويمكن له أيضاً أن يرتبط بالرغبة فى مواصلة حقوق التكلم: فإذا نشأ الاتصال البصرى مع متكلم بعينه، فإنه ينبغى – إذ ذاك – أن يحدث تغيير فى المتكلم. ويمكن لمتلقى النظرة أيضاً أن يربط نفسه بأفكار المتكلم، أو بمضمون المتكلم Speaker's content. وقد لاحظ جولنج أيضاً أن الكلام الموجه إلى عضو واحد، يتميز بثبات اتجاه النظرة ثباتاً أشد.

ويبدو هذا النوع من الاتجاه المركز للنظـرة مرتبطاً بنوع بعينه من السلوك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاعتراضي الذى يستقدم كذلك درجة أعلى من التركيز Concentration والشد العضلى Muscular tension .[47]

ومن الأشياء الأشد نمطية فى المادة التى اعتمد عليها جوسلنج الميل العام عند المتكلمين – عند نهايات الدورات – إلى محاولة تعيين شخص أو أكثر تعيينا بصرياً. ويلاحظ – عند تعيين أكثر من شخص – أن حقوق التكلم تصبح عند المتكلم أكثر انفتاحاً من ذى قبل. ويمكن أن يظل التعيين البصرى ممتدا حتى يوجد المتكلم التالى المحتمل[48].

س- ويمكن البرهنة – إلى حد ما – على أن السلوك الحركى، أو القدر العظيم من الحركة الجسمية Body movement، إنما يكون – بوجه عام – لخدمة النظرة أو الاتصال البصرى. إن المرء لا يستطيع أن يقيم اتصالا بصرياً، دون النظرة فى اتجاه الآخر. ولا يمكن لهذه النظرة – بدورها – أن تقع دون حركة الرأس، وربما اقتضت تغيير الوضع الجسمى كله[49].

ع- ولما كان التوجيه السلوكى الحركى هاماً جداً لأخذ الدورة، فإنه يمكن أن نجعل هذا السلوك بنية فوقية محتوية على فضلة، تستحق الاعتبار، لاسيما فى علاقتها بمواضع تغيير المتكلم المحتمل، من أجل إنتاج علامات سلوكية حركية مدركة بالعين، لا لبس فيها، للمشاركين معاً فى خطاب Co-participants .

ويبين لنا النظر الواسع إلى المحيط الأشمل للوقائع الكلامية Speech events أن الشروع فى الكلام يستلزم مكوناً سلوكياً حركياً متقاطعاً معه.

لقد ثبت أن الوظائف الخطابية يمكن أن تتحقق بأى من المستويات الثلاثة: النحو، والدوال المعجمية، والتنغيم. ويمكن أن يستخدم أحد هذه المستويات للاحتفاظ بقوة الارتكاز على تنميط السلوك الحركى. على سبيل المثال، فإن تلك المستويات

(47) Gosling, ibid, PP. 172 – 174.

(48) المرجع السابق ص 174

(49) المرجع السابق ص 182

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الثلاثة، يمكن – على انفصال، وإن كانت متزامنة عادة – أن تحقق «نهاية الدورة». ويدل الدليل بقوة على أن السلوك الحركى يلعب دوراً إضافياً وحيوياً فى هذا الأمر، لا سيما فى التفاعل متعدد الأطراف[50].

ف- بالنظر إلى الوظائف اللغوية الكبرى التى سبق إلى تحديدها هاليداى – فيما رأينا فى الفصل الأول – وهى وظيفة الربط بين الأشخاص، والوظيفة الفكرية أو نقل الأفكار، والوظيفة النصية، تبدو وظيفة الربط بين الأشخاص فى تفاعل المواجهة ناتجة حركياً Kinesically.

لقد رئى أن تحقيقات السلوك الحركى الموظف خطابياً، تنتج من حركات جسمية دالة، وهى تتضمن – لكى تصبح فعالة – عنصراً من عناصر التبادلية mutuality فى نقطة ما، مثل الاتصال البصرى. وقد ثبت أن مثل هذه التبادلية عبارة عن الحال الراهنة التى تصنعها بنية متجددة من حركة جسمية عنيفة إلى حركة جسمية خفيفة عبر الوقت. مثل هذه الحال الراهنة المؤهلة تسمى باسم حال التشكيل الوجهى Face in formation state. وفيما يلى مثال توضيحى على التعامل بالسلوك الحركى فى حلقة البحث بخاصة (انظر جدول رقم 7).

(50) المرجع السابق ص 183.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

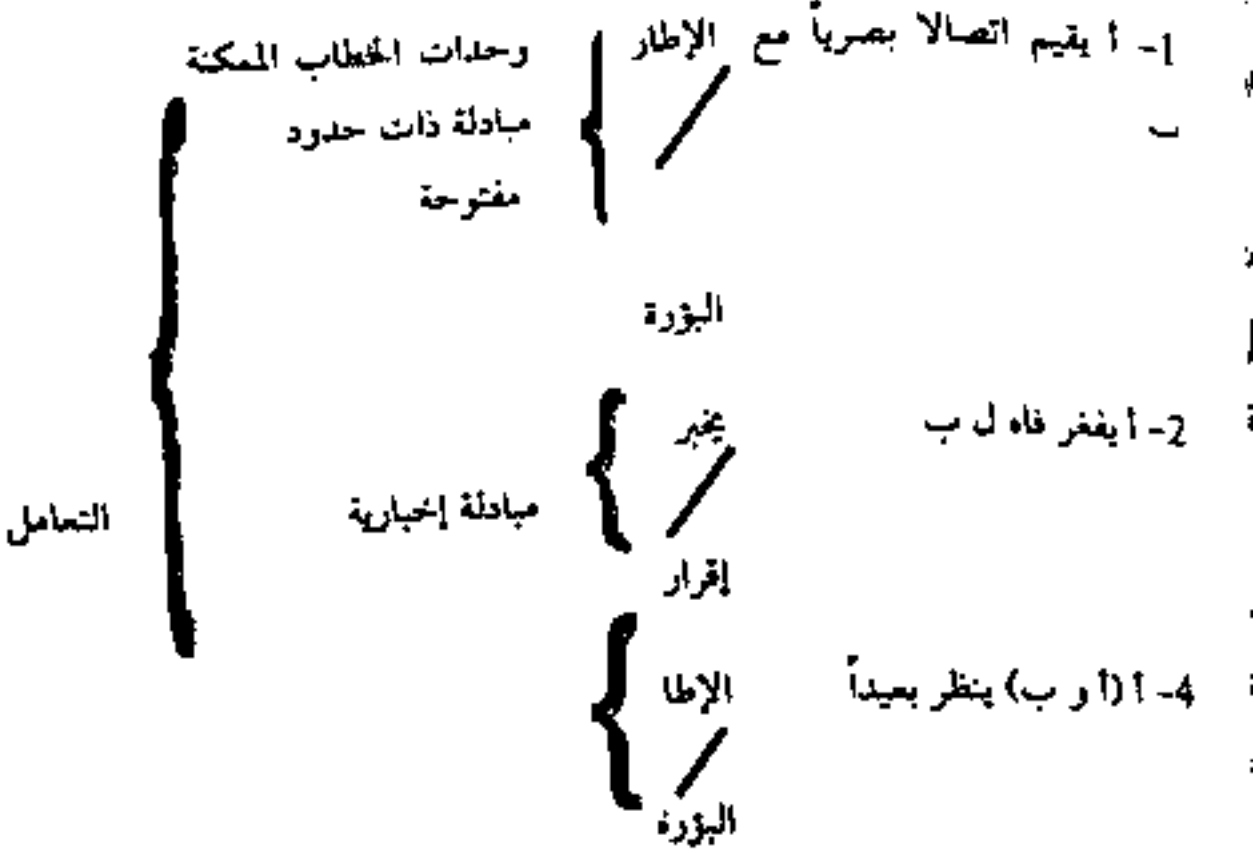

جدول رقم (7)[51]

إن تحليلات جوسلنج محاولة لوضع أسس عملية لبحث الوظائف الخطابية والتفاعلية المختلفة للسلوكيات الحركية. وما زالت حتى الآن أهم التحليلات في هذا المجال. وقد تميزت بالدقة والسهولة في آن معاً. وتثبت هذه التحليلات – على هذا النحو – أن السلوك الحركي ينبغي له أن يعد مستوى من المستويات الشكلية ذات المكانة الخاصة في عملية التفاعل الكلامي. من ناحية أخرى فقد أثبت جوسلنج أن هناك علاقة عامة بين المستويات في إنتاج الخطاب. فقد بين بالفعل أن المشاركين ينتجون غالباً استجابة سلوكية حركية سريعة جداً للشروع في الكلام، وليست المواد الصغرى للارتباط، كإيماءات الرأس، إلا استجابات سلوكية حركية متكررة للواردات السمعية بخاصة auditory inputs.

---

(51) المرجع السابق ص 184.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبالرغم من المعلومات والنتائج فائقة القدر التي أثمرتها تحليلات جوسلنج، فقد فاته التنويه بالعلاقة بين الاستخدام المتكرر للسلوك الحركي ومنزلة المشارك. ومما نلاحظه هنا أن مستويات التحقيق الشكلية الأخرى، تطغى على مستوى السلوك الحركي إذا كان المتكلم أدنى منزلة من السامع، أو إذا كانت العلاقات الاجتماعية الموجودة سلفاً pre – existing social relations بينهما ضعيفة. كذلك، فإن جوسلنج – في حديثه عن الاتصال البصري – لم يلتفت إلى أن اتجاهية النظرة من أشد السلوكيات الحركية تقيداً بالسلوك الكلامي؛ فنظر المتكلم إلى أحد المشاركين لا يعني دائماً تعيينه متكلماً تالياً، إنما يعني – في حالات غير قليلة – أن يلتمس عنده استجابة ما لكلامه، وقد لا يعني إلا شد انتباهه إلى ما يدلي به من كلام.

ومن تحليلات جوسلنج ما كان يسمح بجمع الإشارات المتضادة والمتفرعة من أصل واحد، ونقصد بالتضاد هنا التضاد الاتجاهي، فإشارة إصبع الإبهام – مثلاً – إلى أعلى تعني الفوز والغلبة، وقد تعني الرضا والزهو بما تم، فإذا جعلت هذه الإشارة ذاتها إلى أسفل، دل الاتجاه – إذ ذاك – على العكس، بل قد يدل على الازدراء والاستهزاء.

كذلك، فإن تحليلات جوسلنج – ومادتها من حلقات بحث يتوقع معها أن يكون المشاركون من الجنسين – كانت تقدر أن تعير انتباها إلى التمايز الحركي بين الرجل والمرأة، وإلى ما يمكن أن نجعله من السلوكيات الحركية خاصاً بالمرأة، كالنظرة في طبقات معينة، أو ما نلاحظه من ضرب ظهر الكف اليسرى ببطن الكف اليمنى استغراباً، أو ضرب الصدر ببطن الكف اليمنى عادة تحسراً، أو ما شابه ذلك. وربما التمسنا له في ذلك عذرا لسببين: أولهما: أنه ربما كانت طبيعة المادة المسجلة والملحوظة لا تسمح بمثل هذه الحركات، والآخر: أنه ربما كانت مثل هذه الحركات مما اختصت به العادات الكلامية في البيئة العربية.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

العبارة والإشارة وموقف التراث العربى

حدّ القدماءُ اللغةَ بانها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. وعرضوا لمقاييس الجودة فى الخطاب الأدبى من زاوية العلاقة بين اللفظ والمعنى وأبطلوا من كل وجه أن تكون الفصاحة وصفاً للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان. وأبانوا عن امر النظم، وأنه ليس شيئاً غير توخى معانى النحو فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعانى اولاً فى نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ فى نطقك، وأن الألفاظ لا تخلو من المعانى، فلو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعانى لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب ووقفوا على وجوه الخطاب والمخاطبات، وأن الكلام يخرج على ظاهره إلى أغراض اخرى فيما يدخل فى منطوق الكلام ومقصد المتكلم. ونظروا إلى العبارة، ووجدوا أن العبارة فى الكلام ذاته أكثر من الإشارة (بمفهومها اللفظى البلاغى)، وأن التصريح اغلب من التلويح. ولكنهم لاحظوا التعريض والإيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وادق النظر وميزوا فى الكلام بين الاختصار المفهم والإطناب المفخم. وعرفوا وجوه الاتساع والتفنن من كناية ومجاز. وأحاطوا بأكثر من ذلك مما يدور حول مسائل المنطوق وقضاياه وظواهره، فهل اهتموا بالمحددات والعوامل الموقفية المختلفة التى تؤثر فى الاتصال اللفظى المنطوق؟ وهل أدركوا أن الاتصال ليس كله اتصالاً لفظياً، وأن هناك نوعاً آخر هو الاتصال غير اللفظى؟.

1- العوامل والمحددات الموقفية الاتصالية :

تدلنا آراء القدماء العلمية من ناحية، ورواياتهم عن السلوكيات الكلامية فى المواقف الاتصالية الفعلية من ناحية أخرى، على معرفتهم الكافية بطائفة من المحددات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأساسية غير اللغوية للموقف الاتصالي اللغوي، ويمكننا أن نحصر أهم ما لاحظوه من محددات موقفية فيما يلي:

أ- محدد الرؤية :

روى عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: «لا تكون بليغاً حتى تكلم أمك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادي قومك»[1]. ويفهم من هذا ضمناً صعوبة الاتصال في الظلمة. والاتصال في الظلمة يعرض مهارة خاصة عند المتكلم. بعبارة أخرى، يفهم من النص احتياج المشاركين في الاتصال إلى رؤية أحدهما الآخر؛ لما في الرؤية من غناء عن بعض ما يلزم الاتصال، من سؤال عن رد الفعل ونحوه.

ويذكرنا هذا بما رواه ابن جني (ت 392 هـ)، قال: «قال لي بعض مشايخنا - رحمه الله - أنا لا أحسن أن أكلم إنساناً في الظلمة»[2]. ولعل ربط إحسان التكلم بالضوء، أي بالرؤية، لأن المتكلم يرى في وجه سامعه أثر كلامه، ويتاح لأحدهما - آنذاك - أن يرى فاعلية إشارات الآخر وحركاته وتعبيراته، في توجيه مجرى الخطاب وسياسة الموقف الاتصالي على نحو أو آخر.

ب- محدد النظر والإصغاء :

ومما يدخل في صميم الموقف الاتصالي اللفظي النظر إلى المتكلم والإصغاء إليه. وقد عرف العرب ذلك فيما رووه عن ابن عباس - رحمه الله - قال : «لجليسي عليّ ثلاث : أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصغي إليه إذا حدث»[3].

---

(1) المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف - بيروت، د. ت، 1/246.

(2) ابن جني (أبو الفتح عثمان) : الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت د.ت 1/247.

(3) الكامل 1/102 - 103.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والرمي بالطرف عند الإقبال، والتوسعة في المكان، والإصغاء وقت الحديث، علامات على رغبة المستمع، أو أحد طرفي الاتصال، في إقامة الاتصال أو فتح قناته. ولعل التوسعة للجليس في كلام ابن عباس مما يمكن ربطه – على نحو ما – بالتقريبية، وتهيئة مسافة مناسبة للتخاطب.

ج- محدد مقام الصوت :

عرف العرب كذلك – في الاتصال اللفظي المنطوق – ما كان هايمز أسماه بالمفتاح، أو ما يسمى بالخصائص الصوتية فوق التركيبية؛ كتغيير مقام الصوت. ومن ذلك ما يروى عن الحجاج أنه «كان إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه، ثم تكلم رويدا فلا يكاد يسمع، ثم يزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه، ويزجر الزجرة، فيفزع بها أقصى من في المسجد»[4].

د- محدد الحركات والتصويتات السلبية :

وقد لاحظوا في الاتصال اللفظي سلوكيات حركية سلبية، تدل على عي في الخطاب؛ قال المبرد (ت 285 هـ): «وربما تشاغل العيي بفتل إصبعه، ومس لحيته، وغير ذلك من بدنه، وربما تنحنح. وقد قال الشاعر يعيب بعض الخطباء في شعره:

ملئ بيهر والتفات وسـعلة ومسحة عثنون وفتل الأصابع»[5]

ويفهم مما سبق أن التنحنح عند العرب علامة عي عن مواصلة التخاطب. أما فتل الإصبع ومس اللحية، فحركات سلبية؛ لأنها زائدة غير دالة. وفي التراث روايات تعكس موقفاً شخصياً من الإشارات والحركات المصاحبة للكلام.

ومن طريف ما يروى هنا أن أبا شمر كان إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم

---

(4) المرجع السابق 1/ 179.

(5) المرجع السابق 1/ 20.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقلب عينيه، ولم يحرك رأسه، حتى كان كلامه إنما يخرج من صدع صخرة. وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته. وكان يقول: «ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره»، حتى كلمه إبراهيم بن سيار النظام عن أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجة، وبالزيادة في المسألة، حتى حرك يديه وحل حبوته وحبا إليه حتى أخذ بيديه»[6].

وتبدو سمة مستحسنة ما تضمنته رواية الجاحظ عن ثمامة بن أشرس؛ قال الجاحظ: «وكان لفظه في وزن إشارته»[7].

هـ- تحدد العرف والعادة :

ومن نظرهم في الاتصال اللفظي الفعلي إلى حال السامع، ما يجعلونه في الكلام من حذف استخفافاً؛ لعلم السامع بما يريد القائل، وهذا من أهم ما يميز الشفرة المنطوقة في قناة الاتصال اللفظي؛ كقولك: «الهلال والله، أي هذا الهلال. وأغنى عن قوله (هذا) القصد والإشارة. وكان يقال لرؤبة: كيف أصبحت؟ فيقول: خير عافاك الله (بكسر الراء)، فلم يضمر حرف الخفض، ولكنه حذف بكثرة الاستعمال»[8].

وكان ابن جني (ت 392 هـ) يفسر حذف الباء في كلام رؤبة السابق بدلالة الحال عليها بجرى العادة والعرف بها[9]. والعادة والعرف من العوامل الاتصالية التداولية غير اللغوية والمؤثرة في بنية العلامات اللغوية ذاتها.

وقد فطن ابن جني إلى ما رأيناه عند اللغويين المعاصرين من عناية بأثر الموقف - بما فيه من حضور ومشاهدة - في الاستغناء أحياناً عن بعض المنطوقات التي تكون

---

(6) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البيان والتبيين، دار الفكر للجميع (1968م) 1/ 66.

(7) المرجع السابق 1/ 79

(8) الكامل 1/ 294.

(9) الخصائص 1/ 285.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معروفة بين المشاركين أو وقوع حلف فيها. وكان ابن جنى يجعل من ذلك ما رواه سيبويه، أن أحدهم يقول: الا تا؟ أى تجىء، فيقول الآخر: بلى فا، أى فاقبل ونحوه[10].

ويروى ابن جنى أيضاً أن أبا بكر كان يتوقف – للأمر السابق ذاته – عن كثير مما أسرع إليه أبو إسحاق من ارتكاب طريق الاشتقاق. قال ابن جنى: «واحتج أبو بكر عليه بأنه لا يؤمن أن تكون هذه الألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها، ولم ندر ما حديثها، ومثل له بقولهم (رفع عقيرته) إذا رفع صوته. قال له أبو بكر: فلو ذهبنا نشتق لقولهم (ع ق ر) من معنى الصوت لبعد الأمر جدا، وإنما هو أن رجلاً قطعت إحدى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأعلى صوته، فقال الناس: رفع عقيرته؛ أى رجله المعقورة. قال أبو بكر: فقال أبو إسحاق: لست ادفع هذا. ولذلك قال سيبويه فى نحو من هذا: أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر، يعنى ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال والأوائل»[11]. وفى المثال الذى ذكره أبو بكر ما يبين العلاقة الوثيقة بين الصوت والصورة، أو المنطوق والحركة. ولعل (الصفقة) – بهذه المناسبة – ترجع فى العربية إلى ما كان يتخذ للإعلان عن السلع فى الأسواق من صفق أو تصفيق بالأيدى.

و- محدد دلالة الحال :

ويقود الكلام السابق إلى التنويه بفطنة القدماء إلى محدد دلالة الحال الذى يدنو من السياق الموقفى عند المحدثين. كان ابن جنى قد عرض فى (باب فى أن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان فى حكم الملفوظ به، عرض لما أسماه بـ «دلالة الحال»، وجعل «من ذلك أن ترى رجلاً قد سدد سهما نحو الغرض ثم أرسله، فتسمع صوتاً، فتقول:

---

(10) المرجع السابق 1/ 247.

(11) المرجع السابق 1/ 248.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القرطاس والله (بفتح السين)؛ أي أصاب القرطاس. فـ (أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة؛ وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به»[12].

إن المتكلم – فيما سبق – يتوصل إلى الحال بالرؤية، ويدل عليه بالمنطوق الذي داخله الحذف؛ لأنه يدرك أن المستمع – وهو هنا صاحب السهم – يمكنه أن يكمل المحذوف بدلالة الحال، وهي إصابته الغرض. والرؤية ودلالة الحال على المحذوف عوامل ومحددات موقفية تداولية التفت إليها ابن جني منذ ألف سنة أو يزيد.

ز- محدد الإبقاء على إقامة الاتصال :

فضلاً عما سبق، فقد عرفوا في اللغة المنطوقة، ظاهرة أسموها بـ «الاستعانة»، وهي تسمية تعود إلى أبي العباس المبرد (ت 285 هـ). والاستعانة عنده أن يدخل في الكلام ما لا حاجة بالمستمع إليه، ليتذكر به ما بعده، وهذا ما لاحظه أبو العباس في كثير من كلام العامة، مثل قولهم: ألست تسمع؟ أفهمت أين أنت؟ وما أشبه ذلك[13]. ولعل هذا يماثل ما أشار إليه ياكوبسون في وظيفة إقامة الاتصال، التي تهدف إلى توكيد الاتصال وتثبيته، أو إيقافه. وكان ياكوبسون – بناء على هذا الأساس – يصنف كل العلامات التي تنشئ بالضرورة الاتصال، أو تسعى إلى إطالته أو إيقافه، كما تعمد إلى التأكد من فاعلية الاتصال (ألو، أتسمعني؟) أو إلى لفت انتباه المتحدث أو التثبت من عدم إهماله الخط (قل، أتسمعني؟)[14].

ح- محدد السكوت :

وإذا كان الموقف الاتصالي المباشر يقوم على التفاعل اللفظي بين المشاركين بمبادلة المنطوقات، فربما استخدمت فيه وسيلة مضادة تماماً، هي السكوت. ونعني به

---

(12) الخصائص 1/ 284 – 285.

(13) الكامل 1/ 19.

(14) فيرو (بيار) : السيمياء، مرجع سابق ص 12.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هنا السكوت الدال أو الإيجابى الذى يتخذه أحد المشاركين رداً أو استجابة لمنطوق بعينه. وقد عرف العرب ذلك، ودلوا عليه فى أمثالهم، يقولون: «ربما كان السكوت جواباً». قال الميدانى : «هذا كقولهم : ترك الجواب جواب»[15].

وقال أبو عبيد: «يقال ذلك للرجل الذى يحل حصره عن أن يكلم بشىء فيجاب بترك الجواب»[16].

2- هل عرف القدماء السلوكيات الحركية قناةً للاتصال؟

كان العرب فى مألوف نهجهم فى الأخبار والروايات، يحرصون على تعيين ما صاحب الاتصال اللفظى فى مجالسهم من إشارات وحركات جسمية، باعتبارها من مكملات الموقف الاتصالى بعامة، بل بما هى بدائل – فى بعض الأحيان – عن المنطوقات، أو بما هى عاكسة آثار المنطوقات على المخاطب. ومن ذلك مثلاً ما حدث به محمد بن المنتشر بن الأجدع الهمدانى أن رسول الحجاج أتاه، فأمر بالمسير إليه، فوجد الحجاج متقلداً سيفه، فطلب منه الحجاج الدنو، فخشى ذلك، قال محمد بن المنتشر : «فقلت له: أيها الأمير، والله ما غششتك منذ استنصحتنى، ولا كذبتك منذ استخبرتنى، ولا خنتك منذ ائتمنتنى، ثم حدثه الحديث، فلما صرت إلى ذكر الرجل الذى المال عنده، أعرض عنى بوجهه وأومأ إلىّ بيده، وقال: لا تسمه»[17].

ومن ذلك أيضاً، ما رواه أبو العباس المبرد أن سفيان بن عيينة قال لجلسائه يوماً: إنى أرى جارنا هذا السهمى قد أثرى وانفسحت له نعمة..... فمم ذاك؟ يعنى يحيى ابن جامع. فقال له جلساؤه: إنه يصير إلى الخليفة، فيتغنى له. فقال سفيان: فتقول ماذا؟ فقال أحد جلسائه: يقول:

---

(15) الميدانى (أبو الفضل احمد بن محمد) : مجمع الأمثال 1/ 202...

(16) المرجع السابق 1/ 302.

(17) الكامل 1/ 178.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أطـــوف نهـــارى مـــع الطائفيـــن وأرفـــع مـــن منـــزرى المســـبل

فقال سفيان : ما أحسن ما قال؟ فقال الرجل:

وأســـهر ليلـــى مـــع العاكفـــين وأتلـــو مـــن المحكَـــمِ المـــنزل

قال: حسن والله جميل. قال: إن بعد هذا شيئاً. قال سفيان: وما هو؟ قال:

عســـى فارج الكـــرب عن يوسف يُسَـــخِّر لـــى ربـــةَ المـــخْـــمَلِ

فزوى سفيان وجهه، وأومأ بيده أن أكف، وقال: حلالا حلال»[18].

ولعل تغير وجه سفيان وإيماءته بالكف، لما فى الشطر الثانى من خروج على المعايير المعترف بها اجتماعياً، وهو ما يذكرنا بما رأيناه من قبل عند جامبرز، وأن التفاعل اللفظى يعد نسقاً اجتماعياً، تختار فيه المنطوقات وفقاً للمعايير والتوقعات المعترف بها بين أفراد الجماعة الكلامية.

أما عطاؤهم الفكرى الذى حملته لنا مصادر التراث اللغوى والبلاغى، فإنه يؤكد لنا فطنتهم إلى منزلة الإشارة فى السلوك الكلامى ودورها فى الكشف عن مقاصد المتكلمين، أو اعتيادها لأغراض بلاغية فيما أنتجوه من نصوص أدبية رفيعة. وبعض ذلك لمحات مقتضبة عارضة، وبعضه مما أفردت له الأبواب وحصلت فيه المسائل تقصياً حقيقته.

أما هذه اللمحات العارضة، فنعرفها فى غير موضع، نحو لمحة الخطيب القزوينى (ت 739 هـ) إلى ما يعتاده المتظرفون فى فنون القول وشجون الحديث من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء[19].

---

(18) الكامل 1/ 393.

(19) القزوينى (الخطيب) : الإيضاح فى علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجى، منشورات دار الكتاب اللبنانى، ط4 (1395هـ - 1975م) 1/ 286.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأما هذه المحاولات التي اجتهدت في تقصي حقيقة الإشارة، فإننا سوف نقف هنا عند محاولتين متميزتين في تراثنا العربي لكل من الجاحظ (ت 255 هـ) وابن جني (ت 392 هـ).

(أ) الإشارة ونظرية الجاحظ البيانية :

لعل أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ) أول من فطن من علمائنا القدماء إلى قناة الاتصال غير اللفظية وسيطاً للتفاهم بين الناس. في (باب البيان) من كتابه القيم (البيان والتبيين):

أ- يحدد الجاحظ البيان بأنه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي. وينبه إلى أن البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل[20]. ومن ذلك يستنتج أن البيان أوسع من أن تتخذ له وسيلة واحدة، ولا يكفي به الدليل اللفظي وحده.

ب- فإلى جانب الدليل اللفظي، يمكن أن يتسع البيان لدلائل أخرى، تؤدي وظيفة التبليغ وتوضيح المعاني؛ لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع – كما يقول الجاحظ – إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع[21].

ج- وإذا جعلنا الاتصال – مبدئياً – مرادفاً للإفهام أو الدلالات على المعاني عنده، فإن الجاحظ قد وضع يده منذ أكثر من ألف سنة على نوعي الاتصال الرئيسين: اللفظي وغير اللفظي، بل وضع يده عليهما مستخدماً هذه المصطلحات ذاتها. لقد نظر

---

(20) البيان والتبيين 1/ 55.

(21) المرجع السابق 1/ 55.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجاحظ إلى أصناف الدلالات على المعاني، من جهة اللفظ؛ فجعلها في نوعين رئيسين اثنين: الدلالة اللفظية على المعنى، والدلالة غير اللفظية. ومن جهة الدلالة على المعنى باللفظ وغير اللفظ، تضم أصناف الدلالات – فيما يحصيه تحديداً – خمسة أشياء: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. وهذه الخمسة الأشياء متمايزة، ولكنها تكشف – في الجملة – عن المعاني. ولعل تعيينها في هذا الترتيب، بوصفه – فيما نرى – إلى تمايزها في كثرة الاستعمال أكثر من تمايزها في القيمة أو الوظيفة. فإذا كانت الوظيفة العامة الجامعة بينها هي الإبانة، فإن لكل نوع وظيفته الخاصة التي عينت له محلا طبيعياً في هذا التمييز، ومن ثم يسقط التفاضل الوظيفي بينها، ليقوم التكامل. يقول الجاحظ: «وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحالة الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف. ولا تقصر عن تلك الدلالات. ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجاً وساقطاً مطرحاً»[22].

بناء على كلام الجاحظ السابق، سيصبح اللفظ أساساً للدلالة اللفظية على المعنى، بينما تبنى الدلالة غير اللفظية على الأنواع الأربعة الأخرى، وهي – على الترتيب – : الإشارة، والعقد، والخط، والنصبة.

---

(22) المرجع السابق 1/ 56.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وربما جاز لنا – في ضوء نظرية الاتصال الحديثة – أن نجعل اللفظ والخط ممثلين معاً للاتصال اللفظي، من جهة القصد باللفظ الاتصال اللفظي المنطوق، والقصد بالخط الاتصال اللفظي المكتوب. ولعل الجاحظ نفسه قد رمى إلى شيء من ذلك، بدليل تطرقه إلى تحديد الخواص الفارقة بين النطق والكتابة. يقول الجاحظ: "والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره» [23]. ويستعين في تحديد تلك الخواص بكلام الآخرين أيضاً، يقول: «وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحض الذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام. وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الخالن، مثله للقائم الراهن» [24].

د- ولعل مفهوم العقد عند الجاحظ، مما يؤكد إدراجه مع العلامات غير اللفظية؛ فالعقد عنده الحساب. وهو الحساب دون اللفظ والخط؛ كمعرفة الحسابات الفكلية[25]. وكان سوسنكي – على نحو ما رأينا – قد أجاز إدراج القوالب الحسابية والرياضية في العلامات اللفظية، فهي تتوسل في عملها بعلامات خطية على الأقل.

أما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ. وذلك – كما يقول الجاحظ – ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام... الخ[26]. إن ما يبدو لنا صامتاً، هو ناطق أيضاً؛ «فالصامت ناطق من جهة الدلالة»[27]. وهو ناطق –

---

(23) المرجع السابق 1/ 58.

(24) المرجع نفسه 1/ 58.

(25) انظر المرجع السابق 1/ 58 – 59

(26) المرجع نفسه 1/ 59

(27) المرجع نفسه 1/ 59

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلا شك – من جهة الدلالة على عجزه عن الكلام، تماما كالعجماء التي هي معجزة من جهة البرهان على عجمتها وعيها عن البيان.

ويحسب أن النصبة من العوامل الخارجة عن نطاق اللغة ؛ لأنها ليست مفهوم الشيء ذاته إنما هي دلالة حاله التي يستنبطها المستخدم.

هـ – أما الإشارة، فهي – كما يبين ترتيب الجاحظ نفسه – رأس العلامات غير اللفظية، كأنها تحتل المركز الأول بين العلامات غير اللفظية من حيث الوظيفة الاتصالية أو الدلالة على المعنى، وكأنها – بالتالي – تحتل المركز الثاني (بعد اللفظ) بين وسائط الاتصال على الإطلاق.

ولنا أن نزهر بما فطنت إليه عقلية الجاحظ – منذ أكثر من ألف سنة – من جوانب النظر إلى الإشارة :

1 – فالإشارة عنده اصطلاح يتسع لجميع أشكال السلوكيات الحركية : كتعبيرات العين والوجه، والحركات الجسمية، والأوضاع البدنية الدالة. الإشارة عنه باليد، وبالرأس، وبالعين، والحاجب، والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب والسيف[28]. ولنا أن نستنبط من قوله «تباعد الشخصان» فطنته المبكرة إلى المسافات الفيزيقية الفاصلة بين المشاركين في الاتصال، وما لهذه المسافات من أثر في تعيين السلوك الحركي أو الإشاري المناسب.

2– وقد لاحظ الجاحظ الوظيفة الاتصالية التي تشغلها الإشارة، وتفاوت هذه الوظيفة بتفاوت هيئة الإشارة. وهذا ما يستنبط من قوله: «وقد يتهدد راقع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً»[29].

---

(28) المرجع السابق 1/ 56 – 57 .

(29) المرجع السابق 1/ 57.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3- التفت الجاحظ فى بحثه الإشارة إلى أهم جوانب النظر فى السلوكيات الحركية فى العصر الحديث؛ ونعنى وظيفتها فى علاقتها باللفظ (أو المنطوق) من ناحية، وفى نيابتها عن اللفظ (المنطوق) من ناحية أخرى. يقول الجاحظ: «والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هى له، ونعم الترجمان هى عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ»[30].

وإذا كان الجاحظ قد أجمل فى قوله: «وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة على اختلافها فى طبقاتها ودلالاتها»[31]، فإن شاغله فى المقام الأول هو – بالطبع – السلوك الكلامى أو ما يسميه «صناعة الكلام». ويكفيه – آنذاك – ملاحظة اختلاف الإشارات فى الطبقات والدلالات؛ فإشارة العين – مثلاً – تعرف طبقات متفاوتة من النظر والغمز ورفع الحاجب ونحوها من الطبقات الأخرى التى ترتبط كل منها بدلالة خاصة فى موقف اتصالى بعينه.

4- بل يلتفت الجاحظ أيضاً إلى مزية فى الإشارة يفتقدها المنطوق؛ فالإشارة – بما هى قناة بصرية – تمكن من قصر المشاركة فى الاتصال على من تريد، بما يكون فى الإشارة من إمكان الستر والخفاء. أما المنطوق، فيمثل قناة سمعية آلتها الصوت. لن يكون ظهور هذه القناة إلا بظهوره. يقول الجاحظ : «وفى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، من أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس»[32].

---

(30) المرجع نفسه 1/ 57.

(31) المرجع نفسه 1/ 57.

(32) المرجع نفسه 1/ 57

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5- في محاولة للربط بين السلوك الكلامي والسلوك الحركي، برهن الجاحظ على أسبقيته إلى فكرة النظر إلى السلوكيات الحركية، باعتبارها – على نحو ما رأينا آنفا – من مكملات الكلام أو متمماته. يقول الجاحظ في استخلاص يشبه القانون: « وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان»[33].

على هذا النحو، فإن كلام الجاحظ قد دار حول ستة اعتبارات جوهرية تصلح – فيما نرى – أن تصنع نواة نظرية للاتصال بنوعيه، لاسيما هذه الالتفاتات الفذة إلى السلوكيات الحركية، وهي:

أولاً : توفيقه في تقديم تصنيف عام للدلالات على المعاني إلى اللفظية وغير اللفظية.

ثانياً : الإشارة واللفظ شريكان.

ثالثاً : تنوب الإشارة عن اللفظ كثيراً.

رابعاً : تميز الإشارة – دون اللفظ – بالخفاء.

خامساً : حسن الإشارة (باليد والرأس ونحوهما) من تمام حسن البيان باللسان.

سادساً : الإشارة اصطلاح عام تدخل في حوزته الإشارة والإيماءات والحركات الجسمية وتعبيرات الوجه والعينين جميعاً؛ فالإشارة عنده هي – في اختصار – المصطلح المقابل للعبارة.

وبناء على ما تقدم، يمكننا القول بأن الجاحظ هو واضع البذرة الأولى لنظرية السلوك الاتصالي الحركي في التراث العربي بخاصة والتراث الإنساني بوجه عام.

---

(33) المرجع نفسه 1/57.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ب) ابن جنى ومشاهدة الأحوال :

فى كتاب (الخصائص) يعقد أبو الفتح عثمان بن جنى (ت 392 هـ) بابا بعنوان (باب فى أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نبناه إليها وحملناه عليها). فى هذا الباب، يبقى الأهم هو التفات ابن جنى إلى ما نسميه الآن بالسياق غير اللغوى أو السياق الخارج عن النص أو سياق الموقف، وهو ما يسميه بـ (الغائب) بما يضم من أحوال شاهدة مختلفة صاحبت السلوك الكلامى:

أ- ويعرّف ابن جنى «الغائب» بقوله: «فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها، وتطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها من استخفافها شيئاً أو استثقاله، وتقبله أو إنكاره، والأنس به أو الاستيحاش منه، والرضا به أو التعجب من قائله، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود، بل المخالفة على ما فى النفوس»[34].

ب- ويضرب ابن جنى على الحال الشاهدة بالقصد مثلا بقول الشاعر نعيم بن الحارث بن يزيد السعدى :

تقول – وصكّتْ وجهها بيمينها – أبعلى هذا بالرحى المتقاعسُ[35]

والشاعر يسوق هنا كلامه على لسان امرأة كان قد عقد له عليها النكاح ولم يدخل بها بعد، فمرت به فى نسوة وهو يطحن بالرحى لضيف نزلوا به، فقالت: أبعلى هذا؟! تعجبا واحتقارا له، فقال الأبيات. وهذه الأبيات عند المبرد (ت 285 هـ)

تقول – وصكت صدرها بيمينها –

أبعلى هذا بالرحى المتقاعسُ

---

(34) الخصائص 1/ 245

(35) المرجع السابق 1/ 245 والمتقاعس الذى يخرج صدره ويدخل ظهره – وتلك هيئة من يطحن بالرحى

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

فقلـــت لـهـــا : لا تعجبـــي وتبينـــي
بـــلانـــي إذا التفّـــتُ علـــيَّ الفـــوارسُ
الـــت اردُّ القـــرن يـــركـــب درعَـــهُ
وفيـــه ســـنـــان ذو غـــرارتـــن يـابـس
إذا هـــاب أقـــوامٌ تجشمـــتُ هـــولَ مـــا
يهـــاب حبـــاء الألـــدُّ المـــداعـــس
لَعَمْـــرُ ابيـــك الخبـــر إنـــي لخـــادمٌ
لضيفـــي، وإنـــي إن ركبـــتُ لفـــارس[36].

استخدم الشاعر في بيته الأول – وهو ما يعنينا هنا – قناتين اثنتين : أولاهما لفظية، والأخرى غير لفظية. اعتمد في القناة اللفظية السمعية على حكاية كلامها باللفظ (أبعلي هذا .....)، فأعلم أنها كانت متعجبة منكرة. ولكنه اتخذ – في الوقت ذاته – قناة غير لفظية بصرية مصاحبة، اعتمد فيها على حكاية سلوكها الحركي حال الكلام (وصكت وجهها ....)، فأعلم بذلك عن دهشتها البالغة وإنكارها الشديد هيئة زوجها الذي رأته – في تقاعسه بالرحى – على غير ما يرى الرجال. هذا كله ما فطن إليه ابن جني، قال: «فلو قال حاكياً عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس – من غير أن يذكر صك الوجه – لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال فقال: (وصكت وجهها) علم بذلك قوة إنكارها، وتعاظم الصورة لها. هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل (ليس المخبر كالمعاين). ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر

(36) الكامل 1/ 23.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حال هذه المرأة بقوله: وصكت وجهها، لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها»[37].

يتبين من ذلك إدراك ابن جني الواعي الفرق بين الاقتصار – في الإخبار – على قناة اتصال واحدة، والجمع بين قناتين اثنتين في آن معاً : سمعية ومرئية؛ فسماع حكاية الحال تجعلك عارفاً بالمقصد، ولكن مشاهدتها تجعلك بالمقصد أعرف وبحقيقته أبين.

ج- إن نقل الأحوال الشاهدة باللفظ أفضل في الكشف عن المعنى وتفسيره وإبانته بالذهن من تركها. كذلك، فإن مشاهدة تلك الأحوال ذاتها ومعاينتها وحضورها تفيد أكثر مما تفيده بسماعها فحسب. يقول ابن جني: «وليست كل حكاية تُروى لنا، ولا كل خبر يُنقل إلينا، يشفع به شرح الأحوال التابعة له، المقترنة – كانت – به. نعم ولو نقلت إلينا لم نفد بسماعها ما كنا نفيده لو حضرناها»[38].

د- إن مشاهدة إنسان عادي الأحوال ذاتها، تمكنه من استيضاح المقصد، على نحو لا يستطيع اللغوي المتخصص تحصيله؛ وذلك لما في الواقعة الاتصالية من مقابلة العين، ومشاهدة الوجوه، ورؤية الحركات والإشارات الدالة المقترنة بشدة الإصغاء، والكلفة بالكلام (مما يقارن معه بين موقف قراءة الشعر وموقف حضور الشعر ينشده صاحبه)، وكيفيات التبليغ وتحديد المقاصد والأحداث الإنجازية المختلفة وقت الكلام. يقول ابن جني: «ويعده فالحمالون، والحماميون، والسائسة، والوقادون، ومن يليهم ويعتد به منهم، يستوضحون من مشاهدة الأحوال ما لا يحصله أبو عمرو من شعر الفرزدق إذا أخبر به عنه، ولم يحضره ينشده. أو لا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر، فأراد أن يخاطب به صاحبه، وينعم تصويره له في نفسه، استعطفه ليقبل عليه؛ فيقول له يا

(37) الخصائص 1/ 245 – 246.

(38) المرجع السابق 1/ 246

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلان، ابن أنت، ارنى وجهك، اقبل علىّ احدثك، أما أنت حاضر باهناه، فإذا اقبل عليه، واصغى إليه، اندفع يحدثه او يأمره او ينهاه، او نحو ذلك. فلو كان استماع الأذن مغنياً عن مقابلة العين، مجزئاً عنه، لما تكلف القائل، ولا كلف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه. وعلى ذلك قال:

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها

من العداوة أو ود إذا كانا

وقال المذلى (أبو خراش خويلد بن مرة) :

رقونى وقالوا : يا خويلد لا ترع

فقلت – وانكرت الوجوه – : هم هم

أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلاً على ما فى النفوس. وعلى ذلك قالوا: «رب إشارة أبلغ من عبارة»[39].

وكان بعض شيوخ ابن جنى قد سبقوا – كما المحنا من قبل – إلى إدراك أثر المشاهدة فى إنجاز التخاطب، قال ابن جنى: «وقال لى بعض مشايخنا – رحمه الله – : انا لا احسن ان اكلم إنساناً فى الظلمة»[40].

إن المشاهدة والحضور – فيما يؤكد ابن جنى – يؤديان فى معرفة وجوه الخطاب وتحديد المقاصد والأغراض ما لا تؤديه الحكايات ولا تضبطه الروايات. وفى المشاهدة والحضور غناء عن تأويل يُعنىّ به اللغوى نفسه او الاضطرار إلى القصود وغوامض ما فى الأنفس. يقول ابن جنى: «فليت شعرى إذا شاهد أبو عمرو وابن أبى إسحاق،

---

(39) المرجع نفسه 1/246 – 247 ورقونى: سكنونى، وقالوا: لا بأس عليك. وقوله هم هم اى هم اللبن اخلف.

(40) المرجع السابق 1/247.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

ويونس، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، وأبو الحسن، وأبو زيد، وخلف الأحمر، والأصمعي، ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد له من أغراضها، الا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات، ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب، وغوامض ما في أنفسها، حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة. لا عبارة، لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقاً فيه، غير متهم الرأي والنحيزة والعقل»[41].

ونلحظ أن الإشارة في كلام ابن جني اسم جامع للإشارات والإيماءات والتلويحات والحركات الجسمية ونحوها، على النحو ذاته الذي استخدمت به الإشارة عند الجاحظ من قبل. الإشارة عندهما إذن هي الاصطلاح المقابل للعبارة.

هـ- للإشارة إذن – بأنواعها المختلفة – مثل هذه المقدرة على الدلالة على الأغراض. وقد التقط منها ابن جني تعبيرات وجه المتكلم المصاحبة لسلوكه الكلامي، والتي يراها المستمع أو المشارك في الاتصال، في هيئة أو أخرى، فتغنيه – بدلالاتها العرفية – عن بعض المنطوقات. يقول ابن جني: «وكذلك إن ذممت إنساناً، ووصفته بالضيق، قلت: سألناه وكان إنساناً! وتزوى وجهك وتقطّبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً أو لحزا أو مبخلا أو نحو ذلك»[42].

وإذا كانت محاولة الجاحظ السابقة قد انطلقت من منظور بياني، بؤرته الدلالة على المعنى بوسيط من الوسائط المختلفة وإبانته، فإن محاولة ابن جني هذه قد انطلقت من منظور لغوي أقرب ما يكون إلى نهج السيميائية الاجتماعية، بؤرته معرفة أغراض المتكلمين ومقاصدهم في ضوء مشاهدة الأحوال. من هنا كانت عناية ابن جني

(41) المرجع نفسه 1/ 248.
(42) الخصائص 1/ 247.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجوهرية بدور المشاهدة في الإلمام بمحددات الموقف الاتصالي المتباينة من خلفيات تاريخية وما ينتج عن المشاركين من إشارات وسلوكيات حركية مصاحبة للكلام أو متممة له أو نائبة عنه أو مساعدة في تفسيره.

ويتكامل المنظوران السابقان في التنبيه إلى أن التأريخ للسلوكيات الاتصالية الحركية في الفكر اللغوي والسيميائي الإنساني، ينبغي له أن يبدأ من التراث العربي منذ منتصف القرن الثالث الهجري على وجه التقريب، سواء من حيث وظائفها قناة للاتصال، أو من حيث هي وسيط للدلالة على المعنى بعامة، أو من حيث هي إحدى المحددات المعرفية للسياق الموقفي أو دلالة الحال الشاهدة.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الرابع

السلوك الحركى من اللغة المكتوبة

رأينا قبل ذلك أن الإشارات والحركات وتغيير الأوضاع الجسمية، علامات مميزة للغة المنطوقة، وهى جزء منها. أما اللغة المكتوبة، فإن الكاتب يجب أن يخبر القارئ المنفصل عنه مكانياً بالموقف، والإشارات من أهم محدداته التى يخبر عنها لغوياً فحسب. وهذا يعنى من البداية، أن تحويل لغة مكتوبة إلى مادة صوتية، يجعل الإشارات، والحركات الجسمية، وتعبيرات الوجه، تفسيرية وغير مقيدة ببنية الحدث الكتابى.

وفى محاولتنا الآن تحليل الإشارات والحركات الدالة فى اللغة المكتوبة، إنما تقودنا أهداف مختلفة؛ منها أن السعى إلى التحليل الإثنوجرافى – أو الأنثروبولوجى بوجه عام – للسلوكيات الكلامية عند العرب، ينبغى له – فيما نرى – أن ينطلق من أقدم ما أنتجوه من نصوص، حتى نصل إلى المواقف الكلامية والوقائع الكلامية فى التخاطب اليومى الآن. ومن هذه الأهداف أن اللغة المكتوبة مصدر وليس من مصادر التعرف على ما يمكن أن نسميه بالإشارات والحركات والأوضاع الجسمية الموروثة حال التكلم عند العربى. ومنها الوقوف على أشيع الحركات والإشارات المصاحبة للسلوك الكلامى فى البيئة العربية. ومنها توكيد حقيقة نراها مهمة فى تفسير النص المكتوب، وهى أن وصف الواقعة الكلامية وأوضاع المشاركين فيها وصفاً كلياً متكاملاً، إنما يفيد فائدة مباشرة فى تفسير النص وفهمه ومعرفة الوسائل غير اللغوية المتخذة فى توليد المعنى اللغوى. ومنها تشخيص العادات الاتصالية عند الجماعات

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الكلامية العربية بوجه عام. ومصادرنا في ذلك كله النص القرآني، والحديث النبوي، والشعر العربي: الشرقي والأندلسي.

وفضلاً عن السلوكيات الحركية التي نص عليها في النص القرآني والحديث النبوي والشعر، على نحو ما سنرى – وهي تمثل قناة اتصال بصرية – فإننا لا نعدم إشارات إلى قنوات اتصال أخرى، كالقناة الشمية، ومن ذلك قول علية بنت الخليفة المهدي:

ومغتربٍ بالمسرج يبكي لشأنه ... وقد غاب عنه المسعدون على الحِبِّ

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه ... تنشَّقَ يستشفي برائحةِ الرُّكْبِ[1]

أما وقوفنا على نماذج متنوعة من السلوكيات الحركية، فإنما يكون – بالطبع – على الإشارات والحركات الاختيارية ذات الوظيفة الاتصالية، وذلك أن هناك حركات اضطرارية تعرض للجسم أو لعضو من أعضائه، مما لا يكون للإنسان فيها اختيار، ومنها ما ارتبط عند العرب بأمر بعينه، كخلجة العين التي كانت تعني عندهم أن الحبيب مواشك القرب. ومن ذلك مثلاً قول عمر بن أبي ربيعة على لسان محبوبته:

فلما اكفهر الليل، قالت لخُرَّدٍ

كواعبَ في ريطٍ وعصبٍ مسهم

لقد خلجتْ عيني، وأحسب أنها

لِقُرْبِ أبي الخطاب، ذلك مزعمي[2]

---

(1) السيوطي (جلال الدين): نزهة الجلساء في أشعار النساء، شرحه وعلق عليه سمير حسن حلبي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة (1989م) ص 63.

(2) ديوانه، دار الكتاب العربي، بيروت، ط (1411هـ – 1992م) ص 309

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هـذا، ويقود استقراؤنا النصـوص اللغوية المختلفة ذاتها، إلى التمييز بين ثلاثة أنواع رئيـسية للسلوكيات الحركية، هي :

1- تعبيرات الوجه والعينين.

2- الإشارات والحركات الجسمية.

3- الهيئات والأوضاع.

وقد بنى هذا التصنيف على أساسين اثنين: أولهما طبيعة الاتصال بين الوحدات الحركية المتشابهة أو المتقاربة، والآخر الوظائف الاتصالية المشتركة الجامعة بين عناصر كل نوع، والتى تميزه – بعامة – عن وظائف اتصالية أخرى لنوع آخر.

وإذا كان صنيعنا مع النصوص التى استقرأناها أقرب إلى الفحص الأولى منه إلى المسح الكـامل، فقـد كانـت تلك النصوص – فيما أحسـب – كافية لبيان أنواع فرعية متنوعة داخل كل نوع رئيس ومزودة بمعطيات مهمة لنظرية السـلوك الحركى ذاتها.

(1) تعبيرات الوجه والعينين :

يعرف العربى دور الوجه والعينين فى الاتصال. وتنقل تعبيرات الوجه المختلفة – بالهيئة العامـة أو بالحـركة الدالة – ما يرمى أحد المشاركين إلى توصيله إلى غيره فى واقعـة اتصالية بعينها: رضا أو غضب، سرور أو نفور، حض أو تحذير، وكذلك تقول العيـنان.

فـى أمـثال القـوم مـا يدل على وعيهم بما سلف: يعرفون أن البغض تبديه لك العيـنان، ومثـلهم: «إذا قـرح الجـنان بكت العيـنان»[3]، و «شاهد البغض اللحظ»[4]،

---

(3) الميدانى (أبو الفضـل احمد بن محمـد النيـسابورى): مجمع الأمثال، حققه محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة (1374 هـ - 1955م) 1/ 76.

(4) المرجع السابق ص 1/ 361.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعرفون أن العين أنم من اللسان، قال خالد بن صفوان: «احترس من العين، فوالله لهى أنم عليك من اللسان»[5]. ويقولون: «رب عين أنم من لسان»[6]. ويعرفون كذلك أن «رب طرف أفصح من لسان»[7].

وإذ جئت إلى أشعارهم تستطلع دور تعبيرات الوجه والعينين فى الاتصال عندهم، قال لك زهير:

متى تك فى صديق أو عدو ... تخبرك الوجوه عن القلوب[8]

وقال العباس بن الأحنف:

يدل على ما بالمحب من الهوى ... تقلب عينيه إلى شخص من يهوى

وإن أخر الحب الذى فى فؤاده ... فإن الذى فى العين والوجه لا يخفى[9]

ويحدثنا عمر بن أبى ربيعة كثيراً عن علمه لغة العيون، يقول مثلاً :

ولما التقينا بالثنية، أومضت ... مخافة عين الكاشح المتنمم

أشارت بطرف العين، خيفة أهلها ... إشارة محزون، ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً ... وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم[10]

كان عمر كأنما ينقل نظرة العين وتعبيرها المرئى إلى منطوقات مسموعة:

نظرت إليك، وذو شبام دونها ... نظرا يكاد بسرها يتكلم

فأبان رجع الطرف أن لا ترحلن ... حتى يجن الناس ليل مظلم[11]

---

(5) المرجع نفسه ص 1/ 314.
(6) المرجع نفسه ص 1/ 204.
(7) المرجع نفسه ص 1/ 306.
(8) ديوانه، دار صادر – بيروت، د.ت ص 16.
(9) ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر (1406 هـ - 1986م) ص 18.
(10) ديوانه، مرجع سابق، ص 311.
(11) المرجع السابق ص 327 وذو شبام: اسم جبل. ورجع الطرف: نظرته وتردده.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

ويقول عمر:

وإذا رنت، نظر النزيف، بعينها فعرفت حاجتها، وإن لم تنطق[12]

ويقول أبو تمام جامعاً فى أبيات قليلة أنواعاً عدة مما يسمى باللغات الصامتة:

ألـيس عجيباً أن بيتاً يضمنى وإياك لا نشكو ولا نتكلم

إشارة أفواه، وغمز حواجب وتكسير أجفان، وكف يسلم

وألسنتا ممنوعة عن مرادنا وأبصارنا عنا تجيب وتفهم[13]

والآن، كيف كان الجمع بين الاتصال اللفظى والاتصال غير اللفظى، ممثلا هنا فى تعبيرات الوجه والعينين، فى النص المكتوب؟ وكيف اتخذت هذه التعبيرات علامات غير لفظية على كشف سياقات المنطوقات اللفظية ذاتها من أجل تفسيرها تفسيراً مناسباً؟.

نعرف أن أصل الوجه الجارحة. ولما كان الوجه أول ما يستقبلك، وأشرف ما فى ظاهر البدن، استعمل فى مستقبل كل شىء وفى أشرفه ومبدئه، فقيل : وجه كذا ووجه النهار[14]. وبناء على ذلك، كانت دواخل الإنسان وأحواله الباطنة أول ما تلحظ على وجهه.

---

(12) المرجع السابق ص 244.

(13) أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى): ديوانه، فسر ألفاظه ووقف على طبعه محيى الدين الخياط، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة، د. ت، 463.

(14) الأصفهانى (الراغب) : المفردات فى غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلانى، دار المعرفة – بيروت د.ت. ص 513.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(أ) القرآن الكريم :

وفي القرآن الكريم، كان الوجه دالا على تلك الحالات المتباينة. واتخذ لذلك السوء والمنكر والسواد والغبرة والقترة وغيرها؛ في حال الغم والغضب والخوف من العقاب. كذلك، فقد اتخذ البياض والإسفار في حال الرضا واطمئنان النفس.

من الحال الأولى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ (الملك 27). والسوء كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية[15]. ومن تلك الحال أيضاً قوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ﴾ (الحج 27). والمنكر كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة[16]. كأنما ظهر على وجوههم ما هَمّوا به يفعلونه من منكر، كأن يسطون بالذين يتلون عليهم آيات الله، والسطو : بطش برفع اليد.

ويعبر عن تغير الوجه للغم بالغبرة والقترة؛ قال تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ (عبس 40 – 42).

والغبرة : ما يعلق بالشيء من الغبار وما كان على لونه. والقترة: شبه دخان يغشى الوجه من الكذب[17]، وكأنما عبر بهذه الأشياء المرئية عما في النفس من مشاعر الغم وما في القلب من فجور.

ويعبر بعلامات بصرية أخرى عما في النفس من حالات مختلفة؛ كالألوان. والسواد أهول لون عند العرب، وقد جعل من ملامح الوجه الدالة على الحزن والغم

---

(15) المفردات ص 252.

(16) المرجع السابق ص 505.

(17) المرجع نفسه ص 393.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عند البشارة بالأنثى، قال تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (النحل 58). قال الزركشي (ت 794 هـ)، وأما قوله ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ فهو على الأصل، لظهور الصفة نهاراً، والمراد الدوام أيضاً، أي استقرت له الصفة نهاره[18] وقال تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (الزخرف 17).

وقد جعل السواد غاشياً من الكذب أيضاً، قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ (الزمر 60)

والبياض أفضل لون عند العرب وقد عبر عن الفضل والكرم بالبياض حتى قيل لمن لم يتدنس بما يعاب. هو أبيض الوجه[19] وابيضاض الوجوه عبارة عن مسرة وقد اتخذ اللونان: الأبيض والأسود علامات على حالتين متضادتين ومصيرين متعاكسين، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (آل عمران 106 - 107)

وعلى نحو الابيضاض قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة 22)، وقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ (عبس 38 - 39) والنضرة : الحسن والرونق والسرور[20] والإسفار إشراق اللون سروراً[21]

---

(18) الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله). البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (1972م) 3/ 71

(19) المفردات ص 66

(20) المرجع السابق ص 496

(21) المرجع نفسه ص 233

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعبوس من تعبيرات الوجه المعروفة؛ فهو تطوب الوجه من ضيق الصدر[22]. ومنه قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ (عبس 1-2). والأعمى: هو المكى القرشى عبد الله بن أم مكتوم، الذى أعرض عنه الرسول ﷺ، وعبس فى وجهه، وتولى نحو نفر من سادات قريش املاً فى ان يسلموا، ويكونوا عزا لدين الله.

أما تعبيرات العين، بما هى سلوك بصرى، فإن النص القرآنى يعرض لها حالات متنوعة:

(أ) فقد يعبر عن العفة بنوع النظرة أو طبقتها؛ كالإغضاء الذى أمر به المؤمنون فى قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ (النور 30)، كما أمرت به المؤمنات فى قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ (النور 31). فالإغضاء إذن سلوك بصرى مستحسن.

والطرف فى اللغة تحريك الجفن، وعبر به عن النظر؛ إذ كان تحريك الجفن لازمه النظر، كما يقول الأصفهانى[23]. ويحسن من المرأة قصر الطرف. وهى قاصرة الطرف إذا كانت لا تمد طرفها إلى ما لا يجوز؛ قال تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ (الرحمن 56). وهو عبارة عن إغضائهن لعفتهن.

(ب) وهناك سلوكيات بصرية مرغوب فيها، مستقبحة، ومنها الغمزة؛ فاصل الغمز الإشارة بالجفن طلباً إلى ما فيه معاب[24] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(22) المرجع السابق ص 320.

(23) المفردات ص 302.

(24) المرجع السابق ص 365.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴿ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ (المطففين 29 - 30).

وفى القرآن الكريم ما يدل على سلوك يتبع فيه صاحبه المعاب أيضاً، كاللمز والهمز؛ ولكنهما – فيما يبدو – يدلان على سلوكيات لفظية، من حيث إن همز الإنسان اغتيابه[25]، ومن حيث إن اللمز الاغتياب وتتبع المعاب[26].

(جـ) وتتخذ حركة العين ومقدار انفتاحها واتجاه نظرها، تتخذ علامات على حالات نفسية متفاوتة. ومن ذلك النظر الخفى، والنظر الخاشع، والنظر الشاخص، والنظر الزائغ، والنظر الدائر، والنظر المزلق.

من النظر الخفى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ (الشورى 45). والنظر الخفى هو النظر المستتر إنه - كما يقول أبو عبيدة (ت 210 هـ) – نظر لا تفتح معه العين، إنما ينظر ببعضها[27] ويعبر به – كما يبدو هنا – عن المذلة والإحساس بالخيبة والخسران. ولعل النظر الخفى يدل أيضاً على استسلام لا مفر منه !.

ومن النظر الخاشع قوله تعالى: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ (القلم 43)، وقوله: ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج 44). والخشوع: الضراعة. وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على

---

(25) المرجع السابق ص 546

(26) المرجع نفسه ص 454

(27) أبو عبيدة (معمر بن المثنى التيمى) مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق عليه د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجى بمصر، د. ت. 2/ 201

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجوارح. والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد فى القلب[28]. وهو هنا – كما تفهم الآيات – خشوع الذلة لا ضراعة الإيمان.

ومن النظر الشاخص قوله تعالى: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (الأنبياء 97)؛ اى ان أجفانهم لا تطرف، كما يقول الأصفهانى[29]، كأنما نزع هول يوم العرض عنها حركتها المعهودة.

ومن النظر الزائغ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (الأحزاب 10)، وقوله: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (ص 63). وكأنما الزيغ حركة تخرج عن حد الاستقامة الذي يكون فى المواقف العادية لنظر العين. وهو تعبير عن شدة الخوف أيضاً. وقال الأصفهانى: «ويصح أن يكون إشارة إلى ما قال يورثهم مثليهم رأى العين»[30].

ومن النظر الدائر قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (الأحزاب 19). فهو إذن دوران غشيان، مصدره الخوف، لا دوران إحاطة مدركة واعية بالمكان والأشياء. وهذا ما أفاده السياق اللغوى بالتشبيه، للإبانة وكشف الهيئة.

وإذا كانت أنواع النظر الأربعة الأخيرة، تعبر عن درجات مختلفة من الخوف، فإن هناك النظر المزلق، الذى يعبر عن شدة الكراهية، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ (القلم

---

(28) المفردات 148.

(29) المفردات 256.

(30) المفردات ص 217.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[5]. قال الأصفهانى: «والمزلق: المكان الدحيض، قال. (ليزلقونك بأبصارهم)، وذلك كقول الشاعر:

نظرا يزيل مواضع الأقدام

ويقال : زلقه وأزلقه فزلق. قال يونس : لم يسمع الزلق والإزلاق إلا فى القرآن»[31]. كأنما حمل نظرهم الداحض هذا – دحضهم الله – ما فى قلوبهم من كراهية الرسالة والرسول!.

(ب) الحديث النبوى :

وإذا انتقلنا الآن إلى الحديث النبوى الشريف، رأينا من دقة الرواية وإحكامها الحرص البالغ على تسجيل أثر الكلام على وجه الرسول الكريم. بعبارة أخرى رأينا الحرص على بيان التفاعل بين السلوك الكلامى والسلوك غير الكلامى المرئى. وفى أحاديث عدة نلقى عبارات تدل على هذا، نحو : فتمعر وجهه ، و فغضب حتى احمرت وجنتاه[33]، و أحمر وجهه[34]، و تغير وجهه[35]، و فغضب النبى صلى الله عليه وسلم حتى رؤى فى وجهه[36]، و فعرفت فى وجهه الكراهية[37]، و فتلون وجهه[38] ... إلخ.

---

(31) المرجع السابق ص 215.

(32) البخارى (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) متن البخارى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (1978م) 2/ 65

(33) المرجع السابق 1/ 29

(34) المرجع نفسه 1/ 29

(35) المرجع نفسه 2/ 207

(36) المرجع نفسه 2/ 249

(37) المرجع نفسه 2/ 249

(38) المرجع نفسه 2/ 262

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتدلنا سياقات الأحاديث اللغوية على أن تغير الوجه – بعامة – علامة سر عدم الرضا من تقصير سائل في فهمه، أو إساءة في رد أو تصرف، أو تقدير أمر. ومن ذلك ما روى «عن زيد بن خالد رضي الله عنه أن اعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن اللقطة، قال عرفها سنة، فإن جاء أحد يخبرك بعفاصها ووكائها وإلا فاستنفق بها. وسأله عن ضالة الإبل، فتمعر وجهه، وقال: مالك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر، دعها حتى يجدها ربها»[39]، وفي رواية: «فغضب حتى احمرت وجنتاه، أو قال : احمر وجهه»[40]. قال العسقلاني (ت 852 هـ) : «قوله (فغضب): إما لأنه كان نهى قبل ذلك عن التقاطها، وإما لأن السائل قصر في فهمه، فقاس ما لا يتعين التقاطه على ما لا يتعين»[41].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما، قال : «جاء نفر من بني تميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : يا بني تميم أبشروا. قالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجهه ... » – الحديث[42].

وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها أخبرته أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على الباب، فلم يدخل، فعرفت في وجهه الكراهية ...' – الحديث[43].

---

(39) متن البخاري 2/ 65.

(40) المرجع السابق 2/ 66.

(41) العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر): فتح الباري بشرح صحيح الإمام ابي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قام على ترقيمه وتصحيحه: محمد فؤاد عبد الباقي وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت 1/ 187 . والوكاء – بكسر الواو – ما يربط به. العفاص بكسر العين المهملة – الوعاء، والمراد بالسقاء أجوافها، لأنها تشرب فتكتفي به أياماً. حذاؤها: المراد هنا خفها.

(42) متن البخاري 2/ 207.

(43) المرجع السابق 3/ 256.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

وعن عبد الله قال: «لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسمة حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فتغير وجهه ...» – الحديث[44]

وقد يكون من الرسول الكريم العجب لتصرف القوم، فيتسم لذلك. روى أن أبا عبيدة بن الجراح قدم بمال الجزية من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما انصرف، تعرضوا له، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ...' – الحديث[45].

وقال كعب رضي الله عنه : "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه[46]. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يضحك تصديقاً لقول حتى تبدو نواجذه[47].

أما تعبيرات العين، فلا نكاد نجد لها إشارة إلا ما كان من نظر النبي الكريم إلى المتكلم رعاية منه صلى الله عليه وسلم لحقه في السماع منه، وما ينبغي أن يتحلى به الناس من أدب أثناء المشاركة في الخطاب. بيد أنه قد روى عن عدي بن حاتم، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة[48]. وإذا كانت الإشاحة حركة بالوجه كله، فالنظر المتكرر – في وجل – هو مسببها، وهو – في وجله – أول ما يتراءى للمخاطبين، فينقل إليهم غرض الخطاب.

---

(44) المرجع السابق 3/ 70

(45) المرجع نفسه 3/ 13

(46) المرجع نفسه 3/ 89

(47) المرجع نفسه 3/ 185

(48) المرجع نفسه 4/ 135

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(ج) الشعر العربي :

أما الشعر، فقيه حشد من الأبيات التي تصف الحال الشاهدة وانعكاسها على الوجوه والعيون. يبدى الجبان نواجذه من شدة الذعر عند اللقاء، يقول عنترة:

لما رآنـي قـد نزلـت أريـده أبـدى نواجـذه لغيـر تبسم[49]

والناجذ آخر الأضراس، كأنما فغر فاه إذا استبد به الفزع واستغرب الهلع!

ويعبر بتقلص الشفتين عن الجبن أيضاً، كما في قوله:

ولقـد حفظـت وصـاة عمي بالضحى إذ تقلـص الشـفتان عـن وضـح الفـم

في حومة الحرب التي لا تشتكـي غراتها الأبطـال غيـر تغمغم[50]

ومن الطريف حقاً أن يعبر بعرق الجبين عن شدة الخجل، وهو ما يعرفه الناس اليوم، وكان عرفه حاتم الطائي في قوله:

وكـلمة حاسـد، مـن غـير جـرم سمعـت، وقلـت: مـرى، فانقذيـني

وعابـوهـا علـي، فلم تعبني ولـم يعـرق لهـا، يوماً، جبيني[51]

وكثيراً ما يعبر – في خطاب المواجهة – عن الضيق بتجهم الوجه، كقول عمر:

فطرقـت بـاب العامـرية موهنـا فعـل الرقـيب أتـاهم لـلموعد

فـإذا وليدتها، فقلـت لهـا: افتحي لتـريم صـب الفـؤاد مصـيد

فتجهمت لمـا رأتـني داخـلا بتلهـف مـن قولهـا وتهـدد[52]

---

(49) ديوانه، قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت د.ت ص 192.

(50) المرجع السابق ص 193.

(51) ديوانه، دار صادر، بيروت (1401 هـ – 1981م) ص 90.

(52) ديوانه ص 110.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعبر بالعبوس كثيراً عن الجد للأمر وعند الخطب، وهو مما يمدح به عندهم، كقول ابن زيدون:

هو في ضمان العزم، يعبس وجهه للخطب، والخلق الندى الضحاك[53]

وربما كان المدح بنقيضه، وهو نوع ثقة بالذات، واستصغار ما بدا جللا، ومنه قول الخنساء عن صخر:

إذا ما الضيق حل إلى ذراه تلقاه بوجه غير بسر[54]

ويصبح التبسم – في بعض الحالات – الذي يعد سلوكاً بصرياً غير لغوى بديلاً عن اللغة في مثل قول عمر:

حييتها، فتبسمت، فكأنها عند التبسم مزنة تتبسم[55]

وتختلف نظرات العين، فتختلف تعبيراتها. ولا يكاد يخلو ديوان من إشارات إلى تعبيرات العين. ويعكس هذا ما عرفه العرب في مخاطباتهم اليومية من دور النظرة في كشف المقصد، أو في إكمال المنطوقات اللفظية ذاتها. فهناك النظر بحاجة، كما في قول النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود[56]

ويعبر بالنظر الشزر عادة عن الغضب الذي يبدو في نظر الناظر كبرا وأنفة، كقول النابغة أيضاً :

---

(53) ديوانه، شرح دكتور يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، ط1 (1411 هـ - 1991م) ص 123.

(54) ديوانها، المكتبة الثقافية، بيروت د.ت ص 42.

(55) ديوانه ص 328.

(56) ديوانه، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1405 هـ - 1984م) ص 108.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ينظرن شـــزرا إلى مـــــن جاء عن عرض بأوجه منكرات الـــــرق، أحـــرار[57]

ويعـبر بالطـرف المشدود عن الجفاء، وبالطرف الكليل – فى هذا السياق – عن المودة والمحبة، ومن ذلك قول طريف بن أبى وهب العبسى

وشد إلى الطرف متـــن كـان طـرفـــه بعهد عبيـــــد الله وهـــو كليـل[58]

ويعبر عن المعنى ذاته بالحاجب الأشوس، كما فى قول كثير عزة:

يحيـــــون بساميـــــن طـــورا وتـــارة يحيون عباسين شـوس الحواجـــب[59]

وتتخذ غمزة الحاجب بديلا بصرياً عن الاتصال اللفظى، عند التحية، كقول ذى الرمة:

ولم يستطع إلـــــف لإلـــف تحيـــة من الناس إلا أن يســـلم حاجبـه[60]

وشـعراء الغـزل هم أكثر الناس حديثاً عن العين. وطالما ربطوا بين نظرة المحبوبة الساجية ومعنى الحياء والدلال، كقول كثير عزة:

قامت تراءى لنا والعيـــــن ساجيـــة كأن إنسانها فى لـجـــة غـــرق[61]

ولعـل إيماءة العين من أشد السلوكيات البصرية احتياجاً إلى منطوقات الاتصال اللفظى لتفسيرها، بل ربما لا يتحدد معناها إلا من خلال الموقف الاتصالى الاجتماعى، بما فيه من معرفة مشتركة وما لـه من خلفيات اتصالية تاريخية بين المشاركين فى

---

(57) المرجع السابق ص 123.

(58) أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى) : ديوان الحماسة، شرح العلامة التبريزى، دار القلم – بيروت د.ت 1/ 443.

(59) ديوانه، قدم له وشرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربى، بيروت ط1 (1413 هـ - 1993م) ص 46.

(60) ديوانه، بتحقيق دكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت ط1 (1402هـ - 1982م) 2 / 832 أى يغمز بحاجبه خوف الرقباء.

(61) ديوانه ص 130 وإنسان العين ناظرها وسوادها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخطاب. ويبدو لنا أن عمر بن أبى ربيعة هو أكثر شعراء العربية على الإطلاق احتفاء بإيماءات العين واعتناء بفهم ما تحكيه. ومن ذلك قوله:

أومـــت بعينيهـــا مـــن الهـــودج لولاك فى ذا العـــام لم أحجـــج[62]

(2) الإشارات والحركات :

ونعنى بها حركات الأطراف والأعضاء وأجزاء الجسم المختلفة. وما يهمنا هنا – بالطبع – هو الحركات الاختيارية التى يؤديها الإنسان إزاء موقف أو حدث أو سلوك لفظى بعينه. ويمكننا – من واقع تأمل هذه الحركات والإشارات فى القرائن المختلفة – أن نجد لها نوعين رئيسين اثنين هما :

(أولاً) الحركة الجسمية البسيطة : وهى التى تصدر بكاملها عن عضو بعينه أو عن جزء محدد من الجسم.

(ثانياً) الحركة الجسمية المركبة: وهى التى تصدر عن عضو بعينه فى علاقته بأعضاء أو أجزاء أخرى من الجسم، بحيث لا تبدو هيئة الحركة مكتملة إلا بمثل هذه العلاقة. بعبارة أخرى: لا تقع الحركة المركبة من العضو وحده، بل منه فى علاقته الحركية الوظيفية بعضو آخر. وقد يكون هذا الآخر من جنسه أو لا يكون.

(أ) القرآن الكريم :

(أولاً) الحركة الجسمية البسيطة :

فى القرآن الكريم – وهو الأساس الذى اعتمدنا عليه فى بناء التصنيف السابق – نلحظ أن حالات الحركات البسيطة تفوق كمياً نظيرتها المركبة. أما من الناحية الكيفية، فإننا نلحظ أيضاً أن الحركة من الحركات البسيطة – بالرغم من أنها موصوفة

---

(62) ديوانه ص 92.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهذه الصفة – فإن لها – أحياناً – أن تصنع هيئة أو وضعا جسمياً هي منتجه والسبب فيه. ومن ثم، فإن تعبيريتها ينبغي أن توصل بهذه الهيئة أو الوضع الكلي الناشئ. وفيما يلي هذه الحركات:

1- حركة اللسان : يتخذ هذا العضو الذي ينتج الاتصال اللفظي بأسره، وظيفة أخرى، عندما تتخذ هيئته الحركية – باعتبار ارتباطه بهذه الوظيفة الأساسية والأهم – تتخذ علامة على التظاهر بالانخراط في اللفظ بالشيء، في الوقت الذي يكون فيه منها التحريف والميل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران 78). قال الشوكاني (ت 1250 هـ): «أي طائفة من اليهود يلوون، أي يحرفون ويعدلون به عن القصد. وأصل اللي: الميل، يقول: لوى رأسه؛ إذا أماله ... وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (وإن منه لفريقا ...) قال : هم اليهود ، كانوا يزيدون في الكتاب ما لم ينزل الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : يحرفونه»[63]. وقال الراغب الأصفهاني : «ولوى لسانه بكذا كناية عن الكذب وتخرص الحديث»[64].

2- حركة الخد : ويكون الفعل (صعر) مع (الخد) مصاحبة لفظية أرساها القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (لقمان 18). قال أبو عبيدة (210 هـ) : «مجازه : ولا تقلب وجهك،

---

(63) فتح القدير، مرجع سابق 1/ 354 – 355.

وقارن : محمد العبد (دكتور): المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 2 (1426 هـ - 2006م) ص 150

(64) المفردات ص 457.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولا تعرض بوجهك في ناحية من الكبر. ومنه الصعر الذي يأخذ الإبل في رءوسها حتى يلفت أعناقها عن رءوسها. قال عمرو بن حيّ التغلبي»:

وكنـــا إذا الجبـــار صعـــر خـــده أقمنـــا لـــه مـــن ميلـــه فتقومـــا

والصعر داء يأخذ البعير في عنقه أو رأسه، فيشبه به الرجل الذي يتكبر على الناس[65]. وقال السيوطي (911 هـ): «ولا تصعر خدك للناس: لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك»[66].

3- حركة العنق : ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ (آل عمران 153). قال الشوكاني (1250 هـ): ومعنى (تلوون) تعرجون وتقيمون: أي لا يلتفت بعضكم إلى بعض هرباً، فإن المعرج إلى الشيء يلوي إليه عنقه أو عنق دابته (على أحد) أي على أحد ممكن معكم؛ وقيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[67]. والعضو الذي صدرت عنه الحركة مفهوم من السياق اللغوي بدلالة الفعل (لوى).

4- حركة الرأس : وقد وقعت في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المنافقون 5)، وقوله: ﴿ فَسَيُقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (الإسراء 51). ويقال: لوى رأسه ويرأسه أماله. و (لووا رءوسهم) أمالوها[68]. وإمالة الرأس هنا حركة تعبر عن الصد والاستكبار كما أوضح سياق الآيات اللغوي. ولعل

---

(65) مجاز القرآن 2/ 127.

(66) الإتقان 1/ 117.

(67) فتح القدير 1/ 389.

(68) المفردات ص 457.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه التلوية لا تخلو من استهزاء؛ قال البخارى فى معناها: «حركوا، استهزأوا بالنبى صلى الله عليه وسلم»[69].

أما إنغاض الرأس، فهو هزها، قال السيوطى (فسينغضون). يهزون[70] وذكر السيوطى أيضاً أن (ينغضون) : يذهبون، بلغة الخزرج[71]. وقال الراغب: «الإنغاض تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه، قال: (فسينغضون إليك رؤوسهم) يقال: نغض نغضا إذا حرك رأسه، ونغض أسنانه فى ارتجاف»[72].

اتخذت الحركة فيما سبق سلوكاً اتصالياً خاصاً دالاً على الصد فى استهزاء، او على الإنكار والاستبعاد: تلوية للرأس أو إنغاضاً، فى هذه الهيئة المرئية المقابلة للاتصال اللفظى، بما هى استجابة غير لفظية.

5- حركة الكف : ومنها حركة تقليب الكف علامة على الندم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف 42). قال الزركشى : فأصبح يقلب كفيه أى نادماً[73]. وكان الزركشى قد عقد فصلاً فى الإجمال ظاهراً، ولاحظ أن ما فيه من الإجمال فى الظاهر كثير، وعدد أسبابه، ومنها كثرة استعماله التى منها الموضع السابق[74]. وقال الراغب: «وتقليب اليد: عبارة عن الندم ذكرا لحال ما يوجد عليه النادم. قال تعالى: (فأصبح يقلب كفيه) أى يصفق ندامة»[75].

---

(69) متن البخارى 3/ 203.

(70) الإتقان 1/ 115.

(71) المرجع السابق 1/ 135.

(72) المفردات ص 500.

(73) البرهان 2/ 213.

(74) راجع البرهان 2/ 209 – 213

(75) راجع المفردات ص 621.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

(ثانياً) الحركة الجسمية المركبة :

يمكننا – وفقاً لتحديد المقصود بالحركة الجسمية المركبة فيما سلف – أن نجد لها الأشكال الفرعية الأربعة التالية :

1– اليد مع الوجه : كقوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (الذاريات 29). قال السيوطى : فصكت : لطمت[76].

وكنا قد وقفنا فى الفصل الثالث على كلام لابن جنى عن بيت نهيم بن الحارث بن يزيد السعدى، الذى ورد فيه صك الوجه أيضاً، وكيف أبان ابن جنى عن ان إشارة الشاعر – فى منطوقه اللفظى – إلى هذا السلوك الحركى، قد أعلمت قوة إنكار زوجته وتعاظم صورته لها. وهذا السلوك الحركى يشبه فى مغزاه العام ما عرضت له الآية الكريمة، مع اختلاف – بالطبع – فى مسببات الحركة بين الحالين. فى الآية الكريمة كان صك الوجه علامة تعجب من أمر أن تلد عجوز عقيم. وفى الآية الكريمة حكاية فعلها. وصك الوجه مما جرت به عادة النساء فى أقوالهن وأفعالهن عند التعجب، كما يقول ابن كثير[77]. وتكشف الحركة، وهى من السياق غير اللغوى، عن المحذوف لفظا، أى (أتلد عجوز عقيم؟) أو (أعجوز عقيم تلد؟). وهذا من المواضع الدالة دلالة واضحة على علاقة التأثر والتأثير بين السياق غير اللغوى والسياق اللغوى، أو بين العلامات الحركية والمنطوقات اللفظية.

2– اليد مع الفم : كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ

(76) الإتقان 1/ 117.

(77) مجاز القرآن 1/ 336.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (إبراهيم 9) قال أبو عبيدة: «مجازه مجاز المثل، وموضعه موضع كفروا عما أمروا بقوله من الحق ولم يؤمنوا به ولم يسلموا ويقال: رد يده في فمه؛ أي أمسك إذا لم يجب»[78]. وقال الزركشي: «أي لم يتلقوا النعم بشكر»[79]

هذا السلوك الحركي المركب إذن علامة مرئية على الإمساك عن الإجابة، ومنا إجابة النعم بشكر.

3- اليد مع الإسنان : ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان 27). ويعبر هذا السلوك الحركي – وتامل استخدام المثنى "يديه" في المنطوق – عن الندم الشديد أو الحسرة العظيمة على ما فات، وما ارتكب من فعل وخيم العاقبة.

وقد يكون باعث العض الغيظ؛ كقوله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ (آل عمران 119). وهنا نلحظ مواءمة لفظية لطيفة بين باعث العض وهو الغيظ (لا الندم الشديد) وبين الشيء المعضوض وهو الأنامل (وليس اليدين). ويقول الشوكاني: «وإذا خلوا ....» تأسفا وتحسرا ، حيث عجزوا عن الانتقام منكم . والعرب تصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان[80].

4- الأصابع مع الآذان : وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (البقرة 19) ، وقوله : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ

---

(78) مجاز القرآن 1/ 336

(79) البرهان 2/ 213.

(80) فتح القدير 1/ 376.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ [نوح 7]

قال الراغب في استغشاء الثياب: «أي جعلوها شعارا على أسماعهم، وذلك عبارة عن الامتناع من الإصغاء. وقيل: استغشوا ثيابهم، كناية عن العدو، تقول هم بشر دبلا وألقى ثوبه»[81].

وبالرغم مما يذهب إليه بعض القدماء من تفسير الأصابع بالأنامل على اعتبار من حيث إنه تسمية الجزء باسم الكل[82]، فإن في التعبير عن الأنامل بالأصابع - كما لاحظ الزركشي نفسه - حكمة الإشارة - في آية البقرة - إلى أنهم يدخلون أناملهم في آذانهم بغير المعتاد، فرارا من الشدة، فكأنهم جعلوا الأصابع[83]. وفي آية نوح كان وضع الأصابع في الآذان من باب منعها تماماً من الإصغاء للدعوة، وهو معنى مؤكد بهيئة استغشاء الثياب.

(ب) الحديث النبوي :

(أولاً) الحركة الجسمية البسيطة :

تنوعت - في روايات الحديث النبوي الشريف - حركات الجسم وإيماءات اليد ونحوها تنوعاً كبيراً. وقد تفاوتت أنواع تلك الحركات والإيماءات، قلة وكثرة. وهي تبين - في مجملها - أن الرسول الكريم كان يرى - في حالات بعينها - ضرورة أن تكون العبارة مقرونة بالإشارة الدالة بوضوح على المراد، وحتى يدرأ عنهم الالتباس.

وتتنوع الحركة الجسمية البسيطة كمياً بطبيعتها الحركية. وقد تنوعت أشكالها

---

(81) المفردات ص 361

(82) ينظر مثلاً: الإيضاح للقزويني ص 399، والبرهان 2/ 262

(83) البرهان 2/ 262

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ووظائفها. وهناك أبواب أفردت للإشارة نحو (باب الإشارة في الطلاق والأمور)[84]. و (باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس)[85]. ومن باب اللسان (إذا قذف الأخرس امرأته بكتابة أو إشارة أو بإيماء معروف فهو كالمتكلم)[86].

1- حركة الرأس : ومن ذلك ما روى في باب (من سأل وهو قائم عالما جالساً)، «عن أبي موسى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً، فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل»[87]. وتبدو وظيفة الحركة هنا من باب فتح قناة الاتصال بالسائل وإبداء الإصغاء إليه، فيما يتطلبه خطاب المواجهة.

2- إشارة اليد والأصابع : وهي أكثر الإشارات وروداً في متون الأحاديث ولها حالات ووظائف مختلفة:

أ- فقد تكون الإشارة لمجرد تحديد المشار إليه أو تعيينه أمنا للبس؛ ومن ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة، وأشار بيده على أنفه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين....» – الحديث[88].

ب- وقد تبدو الإشارة مصاحبة المنطوق من باب تدعيمه؛ ومن ذلك ما روى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل في حجته، فقال: «ذبحت قبل أن

---

(84) متن البخاري 3/ 276.

(85) المرجع السابق 1/ 27.

(86) المرجع نفسه 3/ 278.

(87) المرجع نفسه 1/ 36.

(88) متن البخاري 1/ 148 وانظر أمثلة أخرى 1/ 283، 2/ 325، 3/ 26، 277

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أرمي، فأرمي بيده، قال: ولا حرج»[89]. قال: «حلقت قبل أن أذبح، فأرمي بيده، ولا حرج» قال العسقلاني (ت 852 هـ): «وقوله (فقال) يحتمل أن يكون بياناً لقوله (أوسأ)، ويكون من إطلاق القول على الفعل... ويحتمل أن يكون حالاً، والتقدير فأرمي بيده قائلاً لا حرج، فجمع بين الإشارة والنطق. والأول ألبق بترجمة المصنف»[90].

ولعل الإيماء هنا يأخذ هيئة دفع الظن بالحرج فيما فعل، ولذلك جعلنا هذه الإشارة مدعمة للمنطوق اللفظي.

جـ- وقد تكون الإيماءة باليد موضحة هيئة الشيء أو كيفية حدوثه، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ويكثر الهرج، قيل: يا رسول الله، وما الهرج؟ فقال: هكذا بيده، فحرفها كأنه يريد القتل»[91]. قال العسقلاني: «قوله (فقال هكذا بيده) هو من إطلاق القول على الفعل. قوله (فحرفها) الفاء فيه تفسيرية، كأن الراوي بين أن الإيماء كان تحريفا. قوله (كأنه يريد القتل)، كأن ذلك فهم من تحريف اليد وحركتها كالضارب، لكن هذه في معظم الروايات وكأنها من تفسير الراوي عن حنظلة، فإن أبا عوانة عن عباس الدوري عن أبي عاصم عن حنظلة، وقال في آخره: «وأرانا أبو عاصم كأنه يضرب عنق الإنسان»[92].

ولعل من الحالات الدالة على ذلك أيضاً ما روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة، فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو

---

(89) المرجع السابق 1/ 27.

(90) فتح الباري 1/ 181.

(91) متن البخاري 1/ 27

(92) فتح الباري 1/ 182.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قائم يصلي، يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه، وأشار بيده يقللها»[93]. وفي رواية أخرى ما بين هيئة هذه الحركة، وهو قول أبي هريرة: «وقال بيده ووضع أنمله على بطن الوسطى أو المختصر»[94]. قال الزين بن المنير: «الإشارة لتقليلها هو للترغيب فيها والحض عليها؛ ليسارة وقتها وغزارة فضلها»[95].

ومن ذلك أيضاً ما روى عن سهل بن سعد الساعدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أو كهاتين، وقرن بين السبابة والوسطى»[96] . والقرن بينهما – كما هو واضح – علامة على شدة القرب والدنو، بحيث إن ما يتراءى من مسافة ليس بشيء.

ومن ذلك أيضاً ما روى عن سهل قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً»[97].

د- وإذا كانت وظيفة الإيماءة كيفية في الحالة السابقة، فهي لبيان الكم في حالات أخرى. ومن ذلك ما روى عن جبلة بن سحيم قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم : «الشهر هكذا وهكذا، وخنس الإبهام في الثالثة»[98]. يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين.

ومن ذلك أيضاً ما رواه سلمة، قال: «رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيدي، قال: مالك؟ قلت له: فداك أبي وأمي! زعموا أن عامراً حبط عمله.

---

(93) متن البخاري 1/ 166.

(94) المرجع السابق 3/ 277، وانظر أمثلة أخرى: 2/ 233، 3/ 212، 4/ 30، 99.

(95) فتح الباري 2/ 416.

(96) متن البخاري 3/ 278.

(97) المرجع السابق 3/ 278.

(98) متن البخاري 1/ 327.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال النبي صلى الله عليه وسلم: كذب من قاله، إن له لأجرين، وجمع بين إصبعيه»[99]. والجمع بين الإصبعين إشارة واضحة على العدد المقصود.

وكانت العرب قد تواطأت على إشارات بعينها للعد. قال الصنعاني (ت 1182 هـ) عن الإشارات التي اتخذت للآحاد والعشرات والمئين: «أما الآحاد فللواحد عقد الخنصر إلى أقرب ما يليه من باطن الكف. وللاثنين عقد البنصر معها كذلك. وللثلاثة عقد الوسطى معها كذلك. وللأربعة حل الخنصر. وللخمسة حل البنصر معها دون الوسطى..وللستة عقد البنصر وحل جميع الأنامل. وللسبعة بسط الخنصر إلى أصل الإبهام مما يلي الكف. وللثمانية بسط البنصر فوقها كذلك. وللتسعة بسط الوسطى فوقها كذلك. وأما العشرات فلها الإبهام والسبابة: فللعشرة الأولى عقد رأس الإبهام على طرف السبابة. وللعشرين إدخال الإبهام بين السبابة والوسطى. وللثلاثين عقد رأس السبابة على رأس الإبهام عكس العشرة. وللأربعين تركيب الإبهام على العقد الأوسط من السبابة وعطف الإبهام إلى أصلها. وللخمسين عطف الإبهام إلى أصلها. وللستين تركيب السبابة على ظهر الإبهام عكس الأربعين. وللسبعين إلقاء رأس الإبهام على العقد الأوسط من السبابة ورد طرف السبابة إلى الإبهام. وللثمانين رد طرف السبابة إلى أصلها وبسط الإبهام على جنب السبابة من ناحية الإبهام. وللتسعين عطف السبابة إلى أصل الإبهام وضمها بالإبهام. وأما المئين فكالآحاد إلى تسعمائة في اليد اليسرى. والألوف كالعشرات في اليسرى»[100].

هـ- وقد تكون الإشارة بديلاً عن المنطوق ذاته؛ أي تحل الإشارة محل العبارة،

---

(99) المرجع السابق 3/ 49.

(100) الصنعاني (محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني): سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، تحقيق إبراهيم عصر، دار الحديث، القاهرة، د.ت، 1/ 320.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

او النقل: الاكتفاء بالإشارة المفهمة عن التصريح. ومن ذلك ما روى عن كعب رضي الله عنه أنه تقاضى ابن أبي حدرد دينًا كان له عليه في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيته فخرج إليهما، حتى كشف سجف حجرته، فنادى: يا كعب، قال: لبيك يا رسول الله، قال: ضع من دينك هذا، فأومأ إليه، أي الشطر، قال: لقد فعلت يا رسول الله[101].

وفضلاً عن إفادة الحديث وضوح إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم لمخاطبه، وهو شرط بديهي للإشارة وظيفتها، فإننا نلمح في جعل الإشارة بديلاً عن العبارة ملمحا لطيفاً، هو قدرة الإشارة على بيان المقصد مع تحقيق التلميح في الطلب في مثل هذه الحال، وإيثار ذلك على المباشرة والتصريح. ولعل هذه الإشارة كانت تلويحاً بحد الكف، كأنما نشطر شيئاً إلى شطرين.

(ثانياً) الحركة الجسمية المركبة :

ويمكننا أن نميز بين حركتين اثنتين على الأقل، هما:

1- تشبيك الأصابع : وتشبيك الأصابع حركة مركبة باعتبار العلاقة بين أصابع اليدين التي تصنع الهيئة المقصودة للحركة، حتى تكتسب مغزاها. ومن ذلك ما روى عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»[102].

وتبدو لنا هذه الحركة أصدق من غيرها وأدق في تصوير هيئة المؤمنين في تماسكهم وتآزرهم، وهي لتوكيد المنطوق الذي صاحبته وتدعيمه بتصوير معناه.

---

(101) متن البخاري 2/ 61.

(102) المرجع السابق 1/ 95.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2- ضـرب الفخذ: ومن ذلك ما رواه الزهري قال: «أخبرني علي بن حسين ان حسين بن علي أخبره أن علي بن أبي طالب أخبره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة، فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: وكان الإنسان أكثر شيء جدلا» [103].

قال العسقلاني (ت 852 هـ): قوله : «يضرب فخذه» فيه جواز ضرب الفخذ عند التأسف»[104]. ونقل ابن بطال عن المهلب قال: «وأما ضربه فخذه وقراءته الآية، فدال على أنه ظن أنه أحرجهم فندم على إتباعهم»[105] وقال العسقلاني فيما ذهب إليه المهلب: «وأقره ابن بطال، وليس بواضح، وما تقدم أولى»[106]. وقال النووي: «المختار أنه ضرب فخذه تعجباً من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بما اعتذر به»[107]. وتفسير الحركة على نحو ما قال النووي، هو ما نميل إليه أيضاً. وهذه الحركة – بناء على ذلك – علامة بصرية على التأسف لما اعتذر به.

(جـ) الشعر العربي :

(اولاً) الحركة الجسمية البسيطة :

فضلاً عن توارد الاستخدامات البلاغية التعبيرية الكنائية المبنية على عناصر إشارية وحركية في نصوص شعرية وغيرها، فإن هناك حالات متعددة اتخذت فيها تلك

---

(103) فتح الباري 3/ 10.

(104) المرجع السابق 3/ 11

(105) المرجع نفسه 3/ 11

(106) المرجع نفسه 3/ 11

(107) المرجع نفسه 3/ 11

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإشارات والحركات – وهذا ما يعنينا الآن – لوظائف اتصالية مختلفة، تدعمها – عادة – المواقف الاتصالية اللفظية المباشرة بين المشتركين في التخاطب. وكثيراً ما يحدثنا الشعراء، لاسيما الغزلين منهم، عن التخاطب من غير كلام، وعن توسيط الإشارة في حالات بعينها لا تناسبها العبارة. يقول العباس بن الأحنف مثلاً:

يا للرجـــــال العاشقيـن توافقـــا فتخاطباً من غيـــــــر أن يتكلما

حتـى إذا خشيـــا الوشـــاة وأشفقـــا جعلا الإشارة بالأنامـــل سُلمـــا[108]

وكانت المرأة تأمن الإشارة باليد أو العين، وتجعل من ذلك رسائلها الموجهة إلى من يهمه الأمر. وهو أمر طبيعي في البيئة العربية. تقول علية بنت الخليفة المهدي:

صـــــــحائفنا إشـــــــارتنا وأكـــــثر رســـــلنا الحـــــدق

لأن الكتـــــــب قـــــد تقـــــرأ وليـــــس برسلنـــــا نثـــق[109]

وتوثق استخدامات بعض الحركات عرفية دلالاتها بين الجماعة الكلامية. ومن ثم كانت تلك الحركات والدلالات قاسماً مشتركاً بين الشاعر ومستمعيه. إن قرع السن – مثلاً – علامة على الندم، يقول أبو تمام:

ولـــو أنـــي أطعـــتـــك فـــي أمـــور

قرعـــت ندامـــــة، مـــن ذاك، سنـــي[110]

ورفع الأنف علامة على الإباء والشمم، ومنه قول كثير عزة:

أنـــاس يشـال المـاء قـبـل شفـــاههم

لـــه واردات العـــرض شـــم الأرانـــب[111]

---

(108) ديوانه ص 266.

(109) نزهة الجلساء في أشعار النساء، مرجع سابق ص 62.

(110) ديوانه ص 139.

(111) ديوانه ص 45.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن الطريف أن الشاعر قد يجد في اتخاذ إشارة بعينها ، في موقف اتصالي بعينه، ما يزري به ويقلل من شأنه ، وهو جانب من الدلالة الاجتماعية التي أحاطت ببعض الإشارات عند العرب في حالات محددة ، نرى منها مثلا إشارة السلام في قول ابن زيدون :

فقيم أرى السلام إشارة تسوغ بي إزراء من شاء أن يزري[112]

ولعل حرارة العرب في التحية جعلت ابن زيدون يرى في الاكتفاء بالإشارة ، ردا على السلام ، ما يفسح المجال أمام تحقيره بين الناس ، لو الشماتة به على الأقل !

ويمكننا – الآن – أن نتأمل أشكال الحركات الجسمية البسيطة على النحو التالي:

1- حركة الإصبع: وتوظف هذه الحركة غالباً في أمرين رئيسين اثنين:

(أ) فقد يعبر بثني الأصابع عن معنى التقدم في الفضل والمنزلة، كقول أبي العلاء المعري:

يشار إليك بدعاعة ويثنى على فضلك الختصر[113]

وقول ابن زيدون :

زعيم لأبناء السيادة بارع عليهم به تثنى الخناصر، إن عدوا[114]

ب- وتتخذ إشارة البنان – أطراف الأصابع – علامة على معان عدة، أهمها التحية أورد التحية؛ فتكون في الحالين بديلا سلوكياً حركياً عن منطوقات لفظية، ومن ذلك قول عمر:

أشارت إلينا بالبنان، تحية فرد عليها مثل ذاك بنان[115]

---

(112) ديوانه ص 105.

(113) أبو العلاء المعري: ديوان سقط الزند المجموعة الكاملة شرح وتحقيق دكتور ن. رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت ص 130.

(114) ديوانه ص 79.

(115) ديوانه ص 359.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتبدو لنا حالات تستلزم فيها الإشارة وعي المرسل والمستقبل بملابسات الموقف الاتصالي وخلفيته التاريخية الخاصة، حتى يتضح مقصد الرسالة الإشارية. ويمكننا أن نلمح ذلك في مثل قول عمر:

إن نساءً غربة بهند، فإنها ... قد خشينا أن لا تقارب حينا
فأشارت بأن قلبي مريض ... من هواكم يحن وجدا رصينا[116]

فالكلام هنا دال بغيره؛ وهو الإشارة، ومن هنا يبدو ضرباً من التعبير التمثيلي البانتوميمي.

2- حركة اليد : وهي تتخذ شكلين اثنين غالباً :

أ- فقد تكون الإشارة باليد بديلاً عن الكلام؛ كقول عمر:

فلما تقضى الليل إلا أقله ... وكانت توالى غمه تتغور
أشارت بأن الحيَّ قد حان منهم ... هبوب ولكن موعد منك عزور[117]

ب- وقد يعبر بخلع يد من يد عن الفراق. وهو – فيما يبدو لنا – تعبير كنائي، لكنه يقدر في واقعة اتصالية مباشرة أن يحمل المعنى ذاته. ومن ذلك ما أنشدته امرأة البهناوي لي زوجها:

لما غدا لأكيد عهدي ناقضا ... وأراد ثوب الوصل أن يتمزقا
فارقته، وخلعت من يده يدي ... وتلوت لي ولـه: "وإن يتفرقا[118]

3- قرع السن : وهو تعبير عن الغيظ والندم، ومنه قول عمر:

أطعت الوشاة الكاشحين، ومن يطع ... مقالة واش، يقرع السن من ندم[119]

---

(116) ديوانه ص 389 يحن: يحبو ويستر. رصينا: ثابتاً.

(117) ديوانه ص 126 وهبوب : نهوض من النوم. عزور : اسم مكان.

(118) نزهة الجلساء ص 86.

(119) ديوانه ص 321 والكاشحون : المبغضون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقول ابن زيدون :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى، إذ شيعك[120]

4- حركة القدم : ويعبر بنقل القدم عن علو المركز، ومنه قول ابن زيدون :

أيا المعالى نحن في راحة فانقل إلينا القدم العالية[121]

5- حركة الوجه : وهي حركة الصد بالوجه تعبيراً عن عدم الرغبة في الرؤية أو السماع، أي تعبيراً عن رفض إقامة الاتصال مع الآخر. ومن ذلك قول عمر:

واعلمي أنني أصبت بداء داخل في الضلوع دون الحجاب
ثم صدت بوجهها عمد عين زينب للقضاء أم الحباب[122]

6- حركة الرأس : وتتخذ أشكالا ووظائف اتصالية مختلفة، من أهمها:

أ- قد يعبر بلي الرأس عن الرفض والمخالفة، ومن ذلك قول عمر:

ولوت رأسها ضرارا وقالت إذ رأتني : اخترت ذلك أنتا
حين آثرت بالمودة غيري وتناسيت وصلنا وملتا[123]

ب- وقد يعبر بهز الرأس عن التعجب من أمر، ومن ذلك قول عمر أيضاً:

ألا هل هاجك الأظعا ن إذ جاوزن مطلحاً
نعم، ولو شك بينهم جرى لك طائر سنحا

---

(120) ديوانه ص 209.
(121) ديوانه ص 321.
(122) ديوانه ص 66.
(123) ديوانه ص 84 ، وضرارا : مخالفة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سلكن الجنب من ركك ... وضوء الفجر قد وضحا
فمن يفرح ببينهم ... فغيرى إذ غدوا فرحا
فهززت رأسها عجباً ... وقالت : مازح مزحا[124]

ومنه قوله أيضاً فى موقف آخر:

لقد أرسلت جاريتى ... وقلت لها : خذى حذرا
وقولى فى ملاطفة ... لزينب : تولى عمرا
فهززت رأسها عجباً ... وقالت : من بذا أمرا[125]

جـ- وقد يعبّر بهز الرأس عن معنى آخر هو إبداء الأسف والحسرة. يقول عمر أيضاً:

فقلت لأسماء اشتكاء، وأخضلت ... مسارب عينى الدموع السواجم
أبينى لنا، كيف السبيل إلى التى ... نأت غربة عنا بها ما تلائم
فقالت، وهزت رأسها، لو أطعتنا ... تجنبتها أيام قلبك سالم[126]

وربما نبهنا اختلاف وظيفة الحركة فى الموضعين الأخيرين إلى ما كان من اختلاف فى اتجاه حركة هز الرأس، أو طبقة هذه الحركة؛ كأن تكون الحركة عمودية فى حال الدلالة على العجب، بينما تبدو أفقية فى حال الدلالة على الحسرة والأسف.

د- وتتخذ طأطأة الرأس علامة على الحزن وانكسار البال، ومن ذلك قول

---

(124) ديوانه ص 93.
(125) ديوانه ص 181 وانظر نماذج أخرى ص 197، 278.
(126) ديوانه ص 316.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الخنساء:

نعمري لقد أوهيت قلبي عن العزا وطأطأت راسي والفؤاد كئيب[127]

(ثانياً) الحركات الجسمية المركبة :

ويمكننا أن نتأمل أهم هذه الحركات وأهم وظائفها على النحو التالي:

1- الأصابع مع الأسنان : وتشغل هذه الحركة المركبة وظائف اتصالية مختلفة، ومن أهمها:

أ- أن تكون علامة على الحزن، ومن ذلك قول عنترة:

غدا تصبح الأعداء بين بيوتكم تعض من الأحزان كل بنان[128]

ب- وقد تدل بعض الأصابع – في سياق لغوي آخر – على الغيظ والندم، كقول رجل من بني بكر:

ولقد هديت الركب في دهومة فيها الدليل يعض بالخمس[129]

يعني حينما يضل يصيبه غيظ وندم، فيعض أصابعه الخمسة.

جـ- وربما كان عض الإبهام – في واقعة اتصالية أخرى – علامة على التوجس، كقول عمر:

دخلت على خوف، فارقت كاعبا هضيم الحشا ريا العظام

فهبت فطيع الصوت نشوى من الكرى كمغتبق الراح المدام شمولا

فعضت على الإبهام منها، مخافة عليَّ، وقالت: قد عجت دخولا[130]

---

(127) ديوانها ص 24.

(128) ديوانه ص 225.

(129) ديوان الحماسة 2/ 386 ، والدهومة : الأرض الواسعة، كأنها يدوم فيها السراب.

(130) ديوانه ص 283.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتعلو طبقة الخوف إلى الذعر لمفاجأة، بدلالة الحركة ذاتها في قول عمر أيضاً

فحيـيـت إذ فـاجـأتهـا فتـولـهـت

وكـادت بمخـمـوض التحيـة تجهـر

وقالـت – وعضـت بالبنان – : فضحتنـي

وانـت امـرؤ ميـسور أمرك أعـسر[131]

د- وقد يعبر بعضّ الإبهام أيضاً عن الأسف والارتباك، كقول عمر أيضاً:

فلما تقضى الليل، قالـت فتاتهـا

أرى قبـل أن يستيقـظ الحي أرتق

وعضّت على إبهامهـا، وتنكبـت

قريـباً، وقالـت: إن شرك ملحق[132]

2- الكف على الكبد : يشير وضع الكف على الكبد إلى ما يلحق من عناء أو تعب في السير. وهذه الإشارة – مرتبطة بالمرأة – علامة على اكتنازها باللحم، كقول عمر:

تظـل مـن زور جـارتهـا واضعة كفهـا علـى الكبـد[133]

وفي وقائع اتصالية أخرى، يعبر بوضع الأنامل على الأكباد عن الفزع، كقول احد شعراء الحماسة (ولم يسمه أبو تمام):

لـمـا رأهـم لم يجـسوا مدركـا

وضـعوا أناملهـم على الأكبـاد[134]

---

(131) ديوانه ص 125.

(132) ديوانه ص 248 ، فتاتها: وصيفتها. أرتق: أسهل وافضل. تنكب. عدل وابتعد. ملحق: نازل لا حق.

(133) ديوانه ص 119.

(134) ديوان الحماسة 1/ 452.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

3- الكف مع الوجه: وهي حركة اللطم، ويعبر بها عن الروع أو الفزع الشديد، كقول عمر:

فجئت أمشي ولم يصدر الأولى سمروا

وصاحبي هنداوتي به أثر

فلم يرعها، وقد نفضت بجلدها

إلا سواد وراء البيت يستتر

فلطمت وجهها واستبهت معها

بيضاء آنسة من شأنها الحذر[135]

4- الكف مع النحر أو الصدر : ويعبر بصك النحر - وهي حركة ثانية عادة - عن الإنكار أو التعجب من أمر غير لائق. ومن ذلك قول المذلول بن كعب العنبري:

تقول - وصكت غرها بيمينها -

أبعلي هذا بالرحى المتقاعس[136]

فصكها وجهها حين القول (ممثلاً في هذا الاستفهام الإنكاري) توكيد سلوكي حركي مرئي لاستنكارها الشديد إقدامه على عمل من أعمال النساء، هو الطحن بالرحى لأضياف، وقد ظهر في جلسة مزرية بالرجال متقاعساً؛ أي دخل ظهره وخرج صدره.

وربما صدرت هذه الحركة من الرجل، لاسيما عند الشعراء الغزلين المترققين ذوي القلوب الضعيفة!، كقول العباس بن الأحنف:

إذا القلب أومى أن يطير صبابة

ضربت له صدري وألزمته كفي[137]

---

(135) ديوانه ص 136.

(136) ديوان الحماسة 1/ 289 ، والصك: الضرب الشديد بشيء عريض، أو هو الضرب مطلقاً.

(137) ديوانه ص 208.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإن كان الضرب هنا أداة تثبيت وتصبر، ومن ثم نتوقع أن تتفاوت طبقته عما سلف، فتدوم الكف على الصدر مدة أطول، ويكون قرارها عليه أثبت وآكد مما رأينا عند زوجة العنبرى، ويدعم ذلك قول العباس – فى بيته السابق – : (وألزمته كفى). وهذا من أهم ما ينبّه إلى تفاوت طبقات الحركة أو الإشارة مع تفاوت وظائفها التبليغية.

5- اليد مع الجبين : وذلك أن صك الجبين يتخذ علامة بصرية على تمكن الشيء من الإنسان. ومن هذا قول العباس بن الأحنف أيضاً:

فلا هى تفتر من مرها
ولا نحن من شربها فاترونا

إذا أمكنت بعضنا لم يزل
يرفعها أو يصك الجبينا[138]

6- اليد مع اليد : وهى حركة مسح اليدين: إحداهما بالأخرى. وهى علامة على الانتهاء من الشئ أو تركه أو إهماله. وهى من أطرف الحركات التى نجد لها امتدادا فى بعض استخداماتنا فى العصر الحديث. وقد وردت تلك الحركة فى قول العباس:

من هاب فيك عدوًا أو أخا ثقةٍ
فامسح يديك، وكن منه على الياسِ[139]

---

(138) ديوانه ص 289.

(139) ديوانه ص 180.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(3) الهيئات والأوضاع الجسمية :

يقصد بالهيئة الحالة التى يكون عليها الشيء محسوسة كانت أو معقولة، لكن فى المحسوس أكثر[140]. ويقصد بالوضع هنا الهيئة فى حال تغيرها من صورة إلى صورة مع تغير موضوع الكلام أو حالة الخطاب.

وغنى عن البيان أن الحركات الجسمية السابقة – لا سيما الحركات المركبة – مما يجعل الجسم آخذا هيئة بعينها أو يسلك وضعاً بدنياً خاصاً. وإذا كانت تلك الحركات فى مجملها – مقارنة بما سنراه الآن من حالات – تتسم بالجزئية ومحدودية ما تنتجه من تغير بدنى، فإن لنا أن نجعل الحركات المركبة ممثلة أوضاعاً جزئية. ومن ثم، سوف نمحض كلامنا هنا للأوضاع الحركية الجسمية الكلية أو الكبرى.

ولا شك أن الإبانة عن الهيئة أو الوضع، مما يكسب الواقعة الاتصالية – فى النص المكتوب – حيوية ودقة استحضار فى الخيال.

وحرى بالإشارة هنا أن العرب قد نظروا إلى بعض الحركات على أنها حركات مستكرهة؛ لأن الهيئات الجسمية التى تنتج عنها تنافى ما تحب العين أن تقع عليه؛ ومن ذلك وضع اليد فى الخاصرة، وهو ما يستقبحه العربى حتى اليوم. روى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها، أنها كانت تكره أن يجعل يده فى خاصرته، وتقول : إن اليهود تفعله[141].

(أ) القرآن الكريم :

فى النص القرآنى مواضع عدة لتعيين سلوكيات جسمية تتخذ هيئات وأوضاعاً دالة تعبيرياً. ويمكننا أن نميز بين عشر هيئات وأوضاع أساسية على الأقل، وهى:

---

(140) المفردات ص 548

(141) متن البخارى 2/ 257

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1- هيئة الخشوع : ويعبر عنها بخر الأذقان، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ (الإسراء 107)، قوله : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (الإسراء 109). ومعنى خر: سقط سقوطاً يسمع منه خرير.

والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو[142]. ولعل استعمال الخر فى الآية تنبيه على اجتماع أمرين. السقوط، وحصول الصوت منهم بالبكاء خشوعاً. وقد جعل الزركشى الأذقان فى الآية من إطلاق اسم الجزء على الكل؛ فالأذقان عنده الوجوه[143].

2- هيئة التواضع : ويعبر عنها بحفظ اليد أو الجناح، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر 88)، وقوله : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء 215) ، وقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ (الإسراء 24). قال السيوطى فى آية الشعراء: «(وبلغة بنى حنيفة: الجناح : اليد).[144] وقال أبو عبيدة : (واخفض جناحك) أى ألن جانبك وكلامك»[145]. وقال الزركشى فى آية الإسراء: «فإنه يستحيل حمله على الظاهر؛ لاستحالة أن يكون آدمى له أجنحة، فيحمل على الخضوع وحسن الخلق»[146].

3- هيئة المذلة والقهر: وهى رضا فى مذلة، كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ (التوبة 29)، والصاغر: الراضى بالمنزلة

---

(142) المفردات ص 144.

(143) البرهان 2/ 266.

(144) الإتقان 1/ 135.

(145) مجاز القرآن 2/ 91.

(146) البرهان 2/ 206.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

الذلة[147] ويدخل في ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر 60). قال الأصفهاني: «أي أذلاء، يقال: أدخرته؛ أي أذللته فذل»[148].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (السجدة 12)، وقوله: ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء 64 – 65). قال أبو عبيدة : «ثم نُكسوا على رءوسهم مجازه قُلبوا. ويقال: نكست فلانا على رأسه، إذا قهره وعلاه ونحو ذلك»[149]. وقال الراغب: «النكس: قلب الشيء على رأسه»[150]

وقال الزركشي في آية السجدة السابقة: «أخرج في صورة الخطاب لما أريد العموم؛ للقصد إلى تفظيع حالهم، وأنها تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها، فلا تختص بها رؤية راء مخصوص به، بل كل من يتأتى منه رؤية داخل في هذا الخطاب»[151].

ويعبر عن تلك الهيئة أيضاً بإخضاع العنق، كقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ (الشعراء 4).

4- هيئة الارتداد والتولية : ويعبر عنها بالانقلاب على الأعقاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (البقرة 143)، وقوله:﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

---

(147) المفردات ص 282.

(148) المرجع السابق 166

(149) مجاز القرآن 2/ 40

(150) المفردات ص 505

(151) البرهان 1/ 114

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ (آل عمـــران 144)، وقـولـه: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ (الأنعام 71).

قـال أبـو عبـيدة : «انقلبـتم على اعقابكم» : كل من رجع عما كان عليه، فقد رجـع على عقبيه[152] . وقال : «ونرد على أعقابنا» : يقال : رد فلان على عقبيه؛ اى رجـع ولم يظفـر بمـا طلب ولم يصب شيئاً[153]. والعقب: مؤخر الرجل... ورجع على عقبه: إذا انثنى راجعاً، وانقلـب عـلى عقبيـه نحـو رجـع عـلى حافـرته[154]. وقـال الشـوكاني: «اى كـيف ترتدون وتتركـون دينه إذا مات او قتل مع علمكم أن الرسل تخلو وتمـسك أتباعهم بدينهم»[155].

ويعبر عن هذا المعنى بالنكوص على الأعقاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ ﴾ (الأنفال 48). قال ابو عبيدة: «نكص على عقبيه» مجازه: «رجع من حيث جاء»[156]. وقـال ابن كثير (ت 774\ هـ): «قال ابن جرير: قال ابن عباس في هذه الآية : لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين وألقى في قلوب المشركين ان احداً لن يغلبكم وإني جار لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة (نكص على عقبيه) قال:

---

(152) مجاز القرآن 1/ 104.

(153) المرجع السابق 1/ 196.

(154) المفردات ص 340.

(155) فتح القدير 1/ 385.

(156) مجاز القرآن 1/ 247.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

رجع مدبراً، وقال إني أرى ما لا ترون: وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال، جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رايته، في صورة رجل من مدلج، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس... فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من ترابه، فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين»[157]

5- هيئة الضيق : ويعبر عنها بتصعد الصدر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنعام 125).

6- هيئة اللهو : ويعبر عنها برفع الرأس، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴾ (النجم 59 – 61). والسامد: اللاهي الرافع رأسه، من قولهم : سمد البعير في سيره[158].

ومن هذه الهيئة ايضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ (إبراهيم 42 – 43). يقال مطع الرجل ببصره: إذا صوبه، ويعبر مهطع: إذا صوب عنقه[159]، وأقنع رأسه رفعه[160]. وقال المبرد (ت 285 هـ): «وقال الله جل وعز (مقنعي رءوسهم): ومن قال: هو الرافع رأسه، فتأويله عندنا أنه يتطاول، فينظر ثم يطأطئ رأسه، فهو بعد يرجع إلى الإغضاء والانكسار»[161].

---

(157) تفسير القرآن العظيم 2/ 317.

(158) المفردات ص 241.

(159) المفردات ص 543.

(160) المرجع السابق ص 413.

(161) الكامل 2/ 97

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

7- هيئة التأبي : ويعبر عنها بشد الراس إلى خلف. وهو هنا التأبي عن الانقياد للحق، والغفلة عن الإنذار. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ (يس 8). وجاء في مسائل نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس، قال: «أخبرني عن قوله تعالى: (مقمحون)، قال: المقمح: الشامخ بأنفه المنكس رأسه. أما سمعت قول الشاعر.

ونحن على جوانبها قعود ... نغض الطرف كالإبل القماح[162]

ولعل غض الطرف هنا علامة التغافل عن الشيء إهمالاً له وكبرا عليه، لا علامة حياء.

وقال الراغب: «والقمح رفع الرأس لشف الشيء، ثم يقال لرفع الرأس كيفما كان قمح. وقمح البعير رفع رأسه، وأقمحت البعير شددت رأسه إلى خلف. وقوله: (مقمحون) تشبيه بذلك، ومثل لهم، وقصد إلى وصفهم بالتأبي عن الانقياد للحق وعن الإذعان لقبول الرشد، والتأبي عن الانفاق في سبيل الله. وقيل: إشارة إلى حالهم في القيامة»[163].

8- هيئة التكبر : ويعبر عنها بسلوكيات حركية عدة، منها إبعاد الجانب أو تثنيه، أو مد الظهر. من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ (الإسراء 83). قال أبو عبيد: «ناى بجانبه» أي تباعد بناحيته وقربه[164].

ومنها قوله ايضاً : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الحج 8-9). قال ابو عبيدة:

---

(162) الإتقان 1/ 130.

(163) المفردات ص 412.

(164) مجاز القرآن 1/ 389.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«ثانى عطفه» يقال «جاءنى فلان ثانى عطفه: أى يتبختر من التكبر»[165]

ومن مد الظهر تبخترًا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴾ (القيامة 33). وقال الفراء (ت 207 هـ): يتمطى يتبختر؛ لأن الظهر هو المطا، فيلوى ظهره تبخترا، وهذه خاصة فى أبى جهل[166]

وقد يدل على هذه الهيئة أيضاً بتصعير الخد، وقد نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ (لقمان 18)

«والصعر: ميل فى العنق، والتصعير: إمالته عن النظر كبراً»[167]

9- **هيئة الإهمال** : ويعبر عنها بنبذ الشئ وراء الظهر. ومن ذلك قوله تعالى. ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة 101)، وقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ (آل عمران 187)، وقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ (هود 92). قال أبو عبيدة: «واتخذتموه وراءكم ظهريا» مجازه : ألقيتموه خلف ظهوركم، فلم تلتفتوا إليه. ويقال للذى لا يقضى حاجتك ولا يلتفت إليها: «ظهرت بحاجتى وجعلتها ظهرية أى خلف ظهرك»[168]

---

(165) المرجع السابق 2/ 45

(166) الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد): معانى القرآن، عالم الكتب، بيروت ط3 (1401 هـ 1983م) 3/ 212.

(167) المفردات ص 281

(168) مجاز القرآن 1/ 298 ومثل ذلك قال به أيضًا المبرد (الكامل 1/ 15) والراغب (المفردات ص 817) والشوكانى (فتح القدير 1/ 119)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

10- هيئة التقتير : ويعبر عنها بتقييد اليد إلى العنق، وقد نهى عن التقتير، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ (الإسراء 29). قال أبو عبيدة: «مجازه في موضع قولهم: لا تمسك عما ينبغي لك أن تبذل من الحق، وهو مثل وتشبيه»[169].

11- هيئة الاستخفاء : ويعبر عنها بثني الصدر، كقوله تعالى: ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ (هود 4-5). وقد أبان المنطوق اللفظي عن تعبيرية هذا السلوك الحركي (ثني الصدور): بير عنهم – وسفههم موفور – للاستخفاء من الخالق جل شأنه. ولعل ثني الصدر – باعتبار ارتباطه بالعنق والرأس من جانب وبالجذع من جانب آخر – مما يعرض هيئة جسمية أو وضعاً بدنياً كاملاً، تختفي فيه ملامح الشخص الظاهرة والدالة عليه. ولعل هذه الهيئة علامة مرئية على سرائر مخفية. قال الزركشي: «وقوله (ألا إنهم يثنون صدورهم) أي يُسِرّون ما في ضمائرهم»[170]. وقال مجاهد: «يثنون صدورهم»: شك وامتراء في الحق ليستخفوا منه من الله إن استطاعوا»[171].

(ب) الحديث النبوي :

ما نص عليه من هيئات وأوضاع في متون الأحاديث النبوية الشريفة أقل بكثير جداً مما كنا قد رأينا مع الحركات البسيطة والمركبة. وهذا أمر طبيعي، بل ربما كان مميزا للاتصال المكتوب بعامة. وفي الاتصال المنطوق يلاحظ أيضاً قلة الأوضاع والهيئات الجسمية التي يتخذها المتكلم أثناء التخاطب قلة ملحوظة إذا ما قيست بالسلوكيات

---

(169) مجاز القرآن 1/ 375.

(170) البرهان 2/ 213.

(171) متن البخاري 3/ 141.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحركية الأخرى.

ولعل أهم ما يميز الأوضاع والهيئات التي نص عليها رواة الحديث، ارتباطها الحميم بمجرى التكلم وبتغير الموضوع أو المحور.

ويمكننا أن نميز هنا بين هيئتين اثنين هما:

1- هيئة تغير المخاطب.

2- هيئة التأهب (لنطوق خاص).

ومهما يكن من أمر، فإن اتخاذ الرسول الكريم تلك الأوضاع في مخاطباته، مما يبين - بوضوح تام - المواءمة اللطيفة الفعالة دلاليًا بين السلوك الاتصالي اللفظي والسلوك الاتصالي الحركي.

من الهيئة الأولى وصية الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمته يوم النحر: «يا أيها الناس: أيُّ يوم هذا؟ قالوا: حرام. قال: فأي بلد هذا؟ قالوا بلد حرام. قال: فأي شهر هذا؟ قالوا شهر حرام. قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا. فأعادها مرارًا، ثم رفع رأسه، فقال: اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت!» [172].

وبالرغم من أن رفع الرأس في ذاته، يبدو لنا - للوهلة الأولى - حركة جسمية بسيطة صادرة عن عضو بعينه، فقد جعلناها هنا من الهيئات والأوضاع؛ لأنها غيرت وضع الجسم من حال إلى حال مرتبطة بتغير حالة الخطاب ومحوره. أما حالة الخطاب، فقد تغيرت من مخاطبة المخلوقين إلى مخاطبة الخالق. وأما المحور، فقد تغير من التبليغ ذاته إلى الإشهاد عليه.

ومن هيئة التأهب (لنطوق خاص) ما روى عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن

---

(172) متن البخاري 4/ 48.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبيه رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال : الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس، فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور. ألا وقول الزور وشهادة الزور. فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت[173]. وفي رواية: «فما زال يكررها حتى قلنا ليته يسكت»[174].

وتغيير الوضع الجسمي هنا علامةٌ على تغير محور الخطاب في حد ذاته من ناحية، وعلامةٌ على التنبيه إلى أهمية ما يلي من ناحية أخرى[175]، ولا سيما أنه تغير من اتكاء (بما فيه عادةً من استرخاء واطمئنان) إلى جلوس (بما فيه من إظهار هيئة التنبيه والإحاطة). وقد استخدم المنطوق ذاته وسيلةً لفظية لتوكيده؛ وهي التكرار. وينبغي لنا ابتداءً تأمل المنطوقات المكررة بألا الاستفتاحية، المنبهة إلى ما بعدها، وأن نتأمل أيضاً تحرّي الاختصار بحذف عامل النصب في (قول)؛ وهو الفعل (أخص). واختزال المنطوق – على هذا النحو – يناسب الغرض الإنجازي الذي أراده، وهو التحذير.

ونستطيع – بناء على ذلك – أن نلمح الملاءمة القوية بين هيئة السلوك الحركي والفعل الإنجازي الذي تضمنه المنطوق الذي تلاها. وهذه المواءمة توطد – دون شك – التضافر بين الحركة والمنطوق؛ فإذا افترضنا أن حركة من النوع السابق (بما هي علامة على التأهب لقول شيء مهم) وقعت في واقعة اتصالية أخرى، وقد تلاها

---

(173) المرجع السابق 2/ 102.

(174) المرجع نفسه 2/ 102.

(175) والأصل في الزور تحسين الشيء وتزيينه بخلاف صفته، حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه أنه بخلاف ما هو به. وفي القرآن ترهيب من الوقوع في شهادة الزور (النساء 135، المائدة 8، الفرقان 72، البقرة 140، الطلاق2، الحج 30، الأعراف33)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منطوق يحمل مضموناً تالفها، فإن التوافق الدلالي بينهما سيختل، وستصبح تلك الحركة فارغة من مغزاها.

(جـ) الشعر العربي :

أما الهيئات والأوضاع في الشعر العربي، فمن أهمها ما يلي :

1- هيئة المذلة : ويعبر عنها بخفض الرأس، كقول محرز بن المكعبر الضبي (جاهلي):

ساروا إلينا وهم صيدٌ رءوسهم

فقد جعلنا لهم يوماً كأيام[176]

2- هيئة الحيرة والانشغال : ويعبر عنها بعدّ الحصى، أو الخط في الأرض. وربما اتخذ الجسم – إذ ذاك – وضعاً خاصاً، مع حركة اليد وقسمات الوجه الدالة على تلك الحيرة. ومن ذلك قول عنترة.

يا عبل كم من فارس خليته في وسط رابية يعدُّ حصاها[177]

ومن ذلك أيضاً قول ذي الرمة:

وما يرجع الوجد الزمان الذي مضى

وما للفتى في دمنة الدار مجزع

عشية ما لي حيلةٌ غير أنني

بلقط الحصى والخط في الأرض مولع[178]

3- هيئة القلق : ويعبر عنها بنبوّ الجنب عن المضجع، ومن ذلك قول ابن زيدون:

---

(176) يحيى الجبوري (دكتور): قصائد جاهلية نادرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2 (1408 هـ 1988م) ص 198.

(177) ديوانه ص 242.

(178) ديوانه ص 2/ 720.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وانكـــــو نبـــوّ الجنب عـــن كل مضجع

كمـــا يتجـــافى بالأســـير ظراب[179]

4- هيئة الاستغراب أو الدهشة الشديدة : ويعبر عنها بالتنفس صعدا، ومن ذلك قول عمر:

قالـــت هذا الصغـــرى وقـــد حلفـــــت:

بالله لا يـــأتيـــكـــمـــا شهـــرا

فتنفـــــــت صعـــــدًا لحلفتِـهـــــا

وهـوَتْ فشقّـتْ جيَبهـــا فطـــــرا[180]

قال محقق الديوان: «تنفست صعدا: تنفست بارتياح بعد تعب»[181]. وغاب عنه تحديد معنى الحركة من خلال الموقف؛ فالحركة الواحدة قد تدل على معان متعددة بتعدد المواقف أو الوقائع الاتصالية والأغراض. وإذا كان التعبير «تنفس الصعداء» في موقف مناسب يعني الارتياح بعد تعب، فهو في هذا الموقف يعني ما حدّدناه له، وهو الدهشة الشديدة أو العجب من أمر مستبعَد، بدليل شق الثوب شقاً في الشطر الثاني من البيت.

نتائج التحليل للتطبير :

مما سبق نلاحظ – بوجه عام – أن السلوكيات الحركية بأنواعها وفروعها المختلفة، قد لعبت دوراً كبيراً في إنتاج المعنى على نحو غير مباشر، مما يناسب الطبيعة الجمالية والفنية للنصوص المكتوبة المحللة. وتستطيع تلك التحليلات – وقد استوعبت

---

(179) ديوانه ص 44 والظرب : ما نتأ من الحجارة.

(180) ديوانه ص 170.

(181) المرجع السابق ص 170

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهم الحالات والنماذج – أن تقدم بعض المعطيات والنتائج ذات الاعتبار لنظرية السلوك الحركي بخاصة، ولنظرية الاتصال بوجه عام، ونقدمها – في إيجاز – على النحو التالي:

1- الواقعة الاتصالية الكلية: لفظية وغير لفظية، أساسية في تعيين معنى الحركة أو الإشارة أو الهيئة السلوكية الحركية؛ فالإشارة الواحدة – كالوحدة اللغوية الواحدة – تتعدد معانيها خارج الموقف أو الواقعة الكلامية، ولكنها تتخصص داخلها. وقد رأينا في التنفس صعداً – في بيت عمر السابق – كيف أخطأ المحقق في تعيين المعنى؛ بأنه لم ينظر إليه في ضوء الواقعة الكلامية الخاصة.

2- هناك وقائع اتصالية تبنى كاملة على سلوكيات حركية فحسب، أي تبنى كاملة على علامات غير لفظية، على نحو ما رأينا في شعر العباس بن الأحنف. ومحددات المغزى – إذ ذاك – هي طبيعة العلاقة بين المرسل والمستقبل، والمعرفة المشتركة بينهما، وخلفية الاتصال التاريخية، وعرفية معنى السلوك الحركي داخل جماعة كلامية بعينها، وهي كلها محددات تداولية موقفية.

3- تؤكد التحليلات السابقة حقيقة جوهرية في بحث السلوكيات الحركية؛ هي أن تلك السلوكيات تستخدم – في حالات كثيرة، لا سيما في الوقائع الاتصالية المباشرة؛ أي المنظورة تفاعلياً بين المتكلم والمخاطب – تستخدم بديلاً بصرياً عن العلامات اللغوية السمعية. في مثل تلك الحالات، يغلب أن يكون استخدام الاتصال اللفظي مبدوءاً به من طرف المرسل، وأن يكون رد الفعل الاتصالي السلوكي الحركي من طرف المستقبل. وفضلاً عما رأينا من حالات سابقة، نذكر هنا – للتوضيح – هذا الموقف الاتصالي البسيط الذي يحكيه العباس بن الأحنف:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقلت لها : يا فوز، هـل لى إليكـم سبيلٌ؟ فقالت بالإشـارة : أبشر[182]

4- القول بالإشارة – لا بالعبارة – فى مثل ما سبق، هو استدعاء قناة اتصال بصرية، يسمح به الاتصال المباشر الذى يجمع طرفى الاتصال: المتكلم والمخاطب زمنياً ومكانياً. وهناك سلوكيات حركية يعسر جداً أن تُحوّل من رسائل غير لفظية إلى تعبيرات لغوية. وإذا أمكن ذلك مع مثل تلك السلوكيات، فسيظل هناك بون فاصل بين الصورة الذهنية والصوت المعبر عنها. ولذلك نجعل تحويل الصورة المرئية إلى صوت معبر، أى إلى تعبير لغوى، نوعَ تحدٍّ واضح للتحديد اللفظى. فإذا رأينا العربية فى النصوص المكتوبة المختلفة على هذه المقدرة من حكاية الإشارة إلى عبارة، أمكننا أن نشهد للعربية بقوة طاقتها التعبيرية والبيانية وقدرتها على عمل صور فى العقل. وإذا كانت الحركات والإشارات، تمثل – سيميائيا – نوعًا من الرمزية الاتصالية؛ فهناك – على أية حال – صنف آخر أشد خصوصيةً من هذه الرمزية الاتصالية: بصرية أو سمعية؛ كعلامات التدخين، ونفير النداء فى الجيش، وأضواء السكك الحديدية ونحوها مما نعرفه اليوم. وهذه جميعاً وسائط اتصالية يسهل على المرء معها – وإن لم تترجم حرفياً بالرجوع إلى الكلام – أن يعبر بالكلام عن مقصد الاتصال؛ كأن يقول : ممنوع التدخين، أو هيواء، أو : قف، ونحوها.

5- لقد وسعت تلك السلوكيات الحركية اللغة العربية بالحيوية والحركية، وزودتها – تعبيرياً – بطائفة من التعبيرات اللغوية الاصطلاحية، وجملة من الأمثال التى اتخذت الحركة أو الإشارة مرتكزا جوهرياً لبنيتها الدلالية. وإذا أردنا أن نتعرف على عدد من تلك التعبيرات اللغوية الحركية، من خلال مصدر لغوى واحد من مصادر التراث، فلنعد – مثلاً إلى (الألفاظ الكتابية) لعبد الرحمن بن عيسى الهمذانى (ت 320 هـ)[183]، لنقرأ فيه ما يلى:

---

(182) ديوانه ص 142.

(183) الهمذانى (عبد الرحمن بن عيسى): الألفاظ الكتابية، راجعه وقدم له الدكتور السيد الجميلى، دار الكتاب العربى، ط1 (1406هـ - 1986م).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نكص على عقبيه وارتكس (ص 19).

- أغضيت عنه جفنى (ص 20).

- جعلته دبر أذنى (ص 21).

- ويقال : فلان فى قبضتك (ص 22).

- عجمت عوده العجم: العضّ. وعجمت عوده: اى بلوت أمره وخبرت حاله (ص 33).

- ويقال : جبر كسر فلان (ص 36).

- ويقال : قد استشرف فلان للفتنة أو للأمر: يطمح فيه، وتطاول له، واشراب إليه، وسما إليه، ومدّ عنقه، ورمى بطرفه إليه، وطمح ببصره إليه ونحوه، وفغر فاه ونحوه، وشحا له فاه (ص 36).

- فى باب إظهار العداوة : أبدى صفحته (ص 39).

- وفى باب المعارضة والمواربة : يكاشره مكاشرة (ص 40).

- وفى باب حسم الفساد : زمت لسانهم (ص 44).

- وفى باب الجبان : انتفخ سَحْرُه أى رئته من الجبن (ص 50).

- وفى باب الخوف : ارتعدت فرائصه فرقًا، ...، وتغيّر له لونه (ص 51).

- وفى باب التنجية : رخيت خناقه (ص 55).

- وفى باب الحلم : خافض الجناح (ص 60).

- وفى باب السخاء : أرحب صدره، وأبسط كفه (ص 63).

- وفى باب الاستغاثة : شد على عضده (67).

- وفى باب الانحراف : ثنى عطفه عنه، وطوى كشحه عنه (ص 76).

- وفى باب الخيبة : تقول العرب للمنصرف عن حاجته بالياس والقنوط والفوت : جاء يضرب أصدريه، وأزدريه (ص 80).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وفى باب الاحتراز وشحذ الرأى : تشمر ... وضم جناحيه، وضم أطراف (ص 81 – 82).

- وفى باب التكبر: يقال : شمخ بأنفه، ونفخ بأنفه، وزم ... ويقال: هو أصيد وأشوس، وأزور، إذا كان مائل العنق من الكبر (ص 82).

- وفى باب خذل المتكبر : طأطأت من إشرافه، وقصرت من بصره (ص 82).

- وفى باب الحزن والامتعاض: أغض طرفى،...، وأخشع طرفى، ونكس بصرى (ص 91).

- وفى باب أجناس السرور: رفع ناظرى (ص 92).

- وفى باب شراسة الخلق: المتشاوس الذى ينظر إلى جانب (ص 98).

- وفى باب رفع الشأن : مررت بضبيعه (ص 119).

- وفى باب بمعنى فلان مجرب فى الأمر ومدرب: قد عض على ناجذه: أى اسن وجرب (ص 124).

- وفى باب الدهش: سُقِطَ فى يده، وكُسِر فى ذَرْعه (ص 124).

- وفى باب الموت : لعق إصبعه (ص 145).

- وفى باب القِرى والحلول فى المكان: خفض له جناحه (ص 153).

وربما نقلت حركة إنسانية نقلاً مجازياً إلى مجال دلالىّ آخر، على نحو ما نجد فى باب انتهاء الليل وورود الصباحْ من قولهم فى ذهاب الليل:

- ولّى قفاه (ص 164).

ونحسب أن مثل التعبيرات اللغوية السابقة – وقد وجد الهمذانى المتوفى فى عام 320 هـ فى نصوص العربية رصيداً هائلاً منها مدّه بمادة هامة فى أبواب كتابه – نحسب أنها لم تكن وقفاً على الاستخدامات الأدبية الخاصة، إنما كان قدرٌ كبير منها على الأقل، مما اعتاده الناس فى مخاطباتهم اليومية المنطوقة.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

ولعل وفرة الأمثال التي عولت على الحركة والإشارة – بما لتلك الأمثال من تداولية الاستخدام بين الجماعة الكلامية – مما يدعم ما قلناه.

أما هذه الأمثال التي نعنيها هنا، فإن النظر إلى أحد مصادرها الأساسية، وهو كتاب (مجمع الأمثال) للميداني، يقدم لنا طائفة من الأمثال التي بنيت على عرفية المعنى السلوكي الحركي، ومنها:

- لوى عنه ذراعه إذا عصاه ولم يسمع منه (2/ 199)
- هو يقرع سِنَّ نادمٍ (2/ 385).
- إذا قلت له رِنْ، طأطأ رأسه وحزنٌ يضرب للرجل البخيل (1/ 61)
- ثنى على الأمر رجلاً أي قد وثق بأن ذلك له، وأنه قد أحرزه (1/ 153)
- جاء تضبّ لثته على كذا. والضب والضبيب: السيلان، يُضرب في شدة الحرص (1/ 163).
- جاء ناشرًا أذنيه إذا جاء طامعاً (1/ 163).
- جاء يجرر رجليه يضرب لمن يجيء مثقلاً لا يقدر ان يحمل ما حمل (1/ 164)
- جاء يضرب أصدريه أي منكبيه، إذا جاء فارغاً لم يقض طلبته (1/ 163)[184]

ومما يلاحظ هنا أن السلوكيات الحركية التي عولت عليها تلك الأمثال من نوع الهيئة أو الوضع البدني. وتداول تلك الأمثال بين الناس، مما يكشف عن عرفية معانيها السلوكية الحركية واصطلاحيتها. وكانوا يقولون: إذا لم تُسمع فالْمع[185]، أي إذ عجزت عن الإسماع لم تعجز عن الإشارة.

---

(184) وانظر أمثلة أخرى مجمع الأمثال 1163، 171، 175، 177، 237، 308، 361

(185) المرجع السابق 1/ 77

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6- وبالرغم من عرفية معظم السلوكيات الحركية اجتماعياً، فإنها تتفاوت فيما بينها في درجة التداولية والطرافة. وإذا كانت تعبيرات الوجه والعينين من ناحية، والإشارات والحركات الجسمية البسيطة من ناحية أخرى، هي الأكثر تداولاً ومصاحبةً للكلام، فإن منها ما هو أكثر طرافة من غيره؛ كحركة مسح اليدين علامةً على ترك الشيء وإهماله. واليدان أداة العمل والمزاولة. ولعل أهم مقاييس الطرافة - إن لم يكن أهمها إطلاقاً - بعد الحركة نسبياً عن المباشرة والآلية، مما يمنح الخيال فسحة التصور: فمسح اليدين - في الحال السابقة - يجعلنا نتصور إنساناً فرغ لتوّه من طعام أو عملٍ تلبسّه، وأراد أن يخلص يديه مما علق بهما من آثار، بأن يتعهدهما بالمسح، وهي - من ثم - حركة مخيلة. إن مغزى الحركة في مثل ذلك استنباطي موقفي، وهو يختلف - بلا شك - عن مغزاها في مثل قول حاتم الطائي:

وراحوا عجالاً ينفضون أكفّهُمْ يقولون : قد دمّى أناملَنا الحفرُ[186]

فالحركة هنا مباشرة، غير دالة؛ وذلك أنه يعنى المعنى الحرفيّ للحدث، وأنهم ينفضون أكفهم مما علق بها من تراب بسبب الحفر.

7- تعددت وظائف السلوكيات الحركية في اللغة المكتوبة؛ فهي حينًا وظيفة مصاحبة الأحاديث وأشكال الاتصال الشفهي الأخرى، وحينًا آخر وظيفة دلالية تكميلية مهيئة لشكل علاقات الاتصال ومدعّمته، وحينا ثالثاً تشير إلى الموقف والشخص والسلوك الانفعالي لأحدهم تجاه الآخرين أو ضد الآخرين، وحينًا رابعاً - على نحو ما رأينا في الهيئات والأوضاع - مؤشرة على تغير محور الكلام أو الموضوع.

8- من نوعية الإشارات والأوضاع المنقولة إلى اللغة المكتوبة لفظياً، يمكننا - إلى

---

(186) ديوانه ص 49.

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

حد ما – أن نستنتج – بالنظر إلى المسافات التقريبية بين المشاركين في الاتصال – أن الاتصال اللفظي بين العرب كان – بوجه عام – اتصالاً عن قرب وفي احتكاك مباشر غالباً. وما نجده الآن من عادات اتصالية بين المشاركين في الخطاب في البيئات العربية المختلفة عموماً، إنما هو – فيما نحسب – امتدادٌ لعادات اتصالية موروثة.

9- ينبغي أن نبرز هنا أيضاً ما لا حظناه في موضعه من «المواءمة الدلالية» بين المنطوق والسلوك الحركي الذي يصاحبه. وقد تجلى ذلك – على نحو ما رأينا – في النص القرآني، وفي الحديث النبوي، وفي بعض السياقات الشعرية، على اختلافٍ – بالطبع – في المستوى. وكان الجاحظ – فيما رأينا في الفصل السابق – يقول بأن حسن الإشارة من تمام حسن البيان باللسان.

10- تبدو العلاقة بين السلوك الكلامي والسلوك الحركي في أكثر الحالات، علاقة تكافلية؛ فأحدهما يحيا من خلال الآخر. وربما كانت علاقة استبدالية في بعض الحالات، حينما يصبح السلوك الحركي بديلاً اتصالياً – في وقائع بعينها – عن السلوك الكلامي الخالص.

11- ينبه تحليل السلوكيات الحركية بأنواعها الرئيسة الثلاثة إلى ضرورة تأمل علاقتها بالسلوكيات الكلامية في إنتاج الدلالة في النص المكتوب من ناحية، وتأمل آثارها المنفردة القوية في إنتاج الدلالة التصويرية خاصة من ناحية أخرى. وينبغي ألاّ ينتهي تحليل النص عند اكتشاف أنماطه وأبنيته اللغوية المجردة، بل ينبغي أن يأخذ في الحسبان دائماً الأحوال الشاهدة وما تزوّد به بنية النص لفظياً من وصف تلك الأحوال؛ كتعبيرات الوجه، وطبقة النظرة، واتجاه الحركة، والمسافة بين المتخاطبين ونحو ذلك مما يقدّم مفاتيح جديدة للفهم والتفسير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

12- يمكننا القول بأن هناك سلوكيات حركية تختص بجنس دون الآخر. ومما اختصت به المرأة، أو كان غالباً معها -- على الأقل -- صك الوجه، أو صك النحر، او وضع الكف على الكبد. ونلحظ هنا أيضاً أن إشارات الأصابع بخاصة تصدر عن المرأة بخاصة كثيراً جداً، كأنها شفرتها المأمونة التي تجيدها، والتي تفر بها من مثبة المكتوب؛ أي الاتصال اللفظي المكتوب، على نحو ما رأينا في تصريح علية بنت المهدي وعلى نحو ما رأينا من اعتماد الإشارات كثيراً لغةً صامتة عند محبوبات عمر!.

13- تستقبح البيئة العربية هيئات بعينها كوضع اليد في الخاصرة. وتدل هيئات أخرى على تغير محور الخطاب كالجلوس والاعتدال بعد اتكاء أو استرخاء. وهناك هيئات تُرِدُ على سبيل الاستهزاء كثني الصدور استخفافاً، وهناك هيئات أخرى بلاغية، وليست -- فيما يبدو لنا -- من السلوكيات الحركية الطبيعية؛ كجعل اليد مغلولة إلى العنق.

تم بحمد الله

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

قائمة المراجع

(1) المراجع العربية والمترجمة :

1- البخارى (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) . متن البخارى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (1978م).

2- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى) : ديوانه، فسر ألفاظه ووقف على طبعه محى الدين الخياط، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة، د.ت. : ديوان الحماسة، شرح العلامة التبريزى، دار القلم، بيروت، د.ت.

3- ابن جنى (أبو الفتح عثمان) : الخصائص، تحقيق محمد على النجار، دار الكتاب العربى، بيروت، د.ت.

4- حاتم الطائى: ديوانه، دار صادر، بيروت (1401 هـ 1981م).

5- الخنساء : ديوانها، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.

6- ذو الرمة (غيلان بن عقبة العدوى): ديوانه، تحقيق دكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط1 (1402 – 1982م)

7- الراغب الأصفهانى: المفردات فى غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلانى، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

8- الزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله) : البرهان فى علوم القرآن، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (1972)

9- زهير بن أبى سلمى: ديوانه، دار صادر، بيروت، د.ت.

10- ابن زيدون : ديوانه، شرح الدكتور يوسف فرحات، دار الكتاب العربى، ط1 (1411 هـ - 1991م)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

11- السيوطي (جلال الدين): نزهة الجلساء في أشعار النساء، شرحه وعلق عليه سمير حسين حلبي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة (1989م).
12- شبلنر (برند): علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة دكتور محمود جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة (1987م).
13- الصنعاني (محمد بن إسماعيل الأمير): سبل السلام، تحقيق إبراهيم عصر، دار الحديث، القاهرة، د.ت.
14- العباس بن الأحنف: ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر (1406 - 1986م).
15- أبو عبيد (معمر بن المثنى التيمي): مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق عليه دكتور محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بمصر، د.ت.
16- العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر) : فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قام على طبعه وتصحيحه محمد فؤاد عبد الباقي وعبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
17- أبو العلاء المعري: ديوان سقط الزند، المجموعة الكاملة، شرح وتحقيق دكتورن. رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
18- عمر بن أبي ربيعة: ديوانه، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1 (1412هـ 1992م).
19- عنترة: ديوانه، قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ت.د.
20- غيرو (بيار): السيمياء ترجمة أنطوان أبي زيد، منشورات عويدات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيروت – باريس (1984م).

21- الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد): معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط٠ (1401 هـ - 1983م).

22- القزويني (الخطيب): الإيضاح في العلوم البلاغية، شرح وتعليق وتنقيح دكتور محمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتـــاب اللبناني، ط٤ (1395هـ - 1975م).

23- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل): تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت (1403هـ -1983م).

24- كثير عزة: ديوانه، قدم لـه وشرحه مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط (1413هـ - 1993م)

25- كوهين (جان): بناء لغة الشعر، ترجمة دكتور أحمد درويش، مكتبة الزهراء، القاهرة (1985م).

26- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، ت.د.

27- محمد العبد (دكتور): اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث في النظرية، د الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة – باريس، ط1 (1990.

المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، دار مكتبة الآداب، القاهرة، ص٠ (1424 هـ- 2006م)

28- الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري): مجمع الأمثال، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة (1374هـ - 1955م).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

29- الميداني (عبد الرحمن بن عيسى): الألفاظ الكتابية، راجعه وقدم، له دكتور السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط1 (1406 هـ - 1986م).
30- النابغة الذبياني: ديوانه، شرح وتقديم عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت ط1 (1405هـ - 1984م).
31- يحيى الجبوري (دكتور): قصائد جاهلية نادرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2 (1408هـ - 1988م).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(2) المراجع الأجنبية :

1- Austin, J., L. : How to do Things with Words,? Oxford Uni. Press (1992).

2- Bernstein, B. : Social Class, Language and Socialization, in : Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context, Selected Readings, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990).

3- Birdwhistell, Ray, L.: A Kinesic linguistic Exercise: The Cigarette Scence, in: John J. Gumperz and Dell Hymes (eds.): Directions in Sociolinguistics, Basil Blackwell, Oxford (1989).

: Kinesics and Context: Essays on Body Motion Communication, Uni. of Pennsylvania Press, Philadelphia (1970).

4- Breckle, Hebert, T. Semantik, Eine Einfuehrung in die sprachwissenschaftliche Bedeutunslehre, 2., verbesserte Auflage, Wilhelm Fink Verlag – Muenchen (1971).

5- Brown, Gillian and Yule, George: Discourse Analysis, Cambridge Uni. Press (1984).

6- Burton, D. : Towards an Analysis of Casual Conversation, Nottingham linguistic circular, 17,2, (1978).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

7- Chafe, W.L. : The Flow of Thought and the Flow of language, in : T. Givon (ed.): Syntax and Semantics, Vol. 12: Discourse and Syntax, Academic Press, New York (1979).

8- Coseriu, Eugenio: Textlinguistik, Eine Einfuehrung, Guntar Narr Verlag, 2., durchges. Auflage, Tuebingen (1981).

9- Coulthard, Malcolm: An Introduction to Discourse Analysis, Longman Group Ltd. 6 th impression, England (1983).

10-Danesi, Marcel: From fact to artifact, A transformational Model of human Semiosis, in: Marcal Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing Semiotics, Canadian Scholars' Press, Toronto (1992).

11-De Beaugrande, Robert – Alain and Dressler Wolfgang, Ulrich: Introduction to text linguistics, Longman, London – New York (1993).

12-Dolezel, Lumbmir: Zur Statistischen Theorie der Dichtersprache, in: Helmut Kreuzer und Rul Gumzenhaueser (hersg.): Mathematik und Dichtung, 4. Auflage, Nymphenburger Verlagshandlung, Muenchen (1970).

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

13-Ekman, P., and Friesen, W.V.: Hand Movements, in: Journal of Communication, 22 (1972).

14-Enkvist, Nils Erik: Lingusitic Stylistics. Mouton. The Hague – Paris (1973). And Spencer, Michael Gregory: Linguistics and Style. Oxford Uni. Press, London (1964).

15-Firth, J., R. : Personality and Language in Society the Sociological Review, Vol. 42 (1957).

16-Fishman, J., A. : The Sociology of Language In: Pier Paolo Giglioli (ed.): Language and Social Context, Selected Readings, Penguin Books, Clays Ltd. England (1990).

17-Glinz, Hans: Textanalyse und Verstehenstheories, Bd. 1-2,2. Auflage, Akademische Verlagsgesellschaft, Athenaion – Wiesbaden (1977) – (1978).

18-Gosling, John: Kinesics in Discourse, in: Malcolm Coulthard and Martin Montgomery (eds.): Studies in Discourse Analysis, Routledge, London and New Youk (1981).

19-Grice, Paul: Logic and Conversation, in: Cole and Morgan (eds.) (1975).

20-Gumperz, J. : The Speech Community, In Pier Paolo Giglioli (ed.): Language ans Social Context, Selected Readings. Penguin Books, Clays Ltd. England (1990).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

32-Leech, Geoffrey: Semantics, Penguin Books, Printed in Great Britain (1976).

33-Levin, Samuel, R.: Statistische und determinate Abweichung in poetischer Sprache, in: Helmut Kreuzer und Rul Gunzen haueser (hrsg.) Mathematik und Dichtung, 4. Auflage, Nymphenburger Verlagshandlung, Muenchen (1971).

34-Morley, G.D.: An Introduction to Syatemic Grammar, Macmillan, London (1985).

35-Mukarovsky, J.R.: Standard Language and Poetic Language, in: P.L. Garvin (ed. And Tr.): A Prague School Reader on esthetics, Literary Structure and Style, Washington (1964).

36-Pike, Kenneth: Phonetics, A Critical Analysis of phonetic Theory and Technical for the Practical Description of Sound, Ann. Arbor, Uni. Of Michigan Press (1943).

37-Salzman, Zdenek: Language, Culture and Society, An Introduction to linguistic Anthropology, West view press, Oxford (1993).

38-Sebeok, Thomas, A.: Zoosemiotic Components of human Communication, in : Marcel Danesi and Donato Santeramo (eds.): Introducing Semiotics, Canadian Scholars Press –

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

Toronto (1992).

39-Seidler, Herbert: Allgemeine Stilistik, 2., neubearbietete Auflage, Vandenhoeck und Ruprecht – Goettingen (1963).

40-Sinclair, J. Mc. H., and Coulthard, R., M.,: Towards an Analysis of Discourse, Oxford uni. Press, Londons (1975).

41-Slobin, Dan Isaac: Psycholinguistics, Scott, Foresman and Company, 2 nd. Edition (1979).

42-Soell, Ludwig: Gesprochene und geschrieibenes Fanzoesisch, Erich Schmidt Verlag, 2. Auflage, Beriin (1980).

43-Sowinski, Bernhard: Textlinguistik, Eine Einfuehreung, Verlag W. Kohlhammer, Stuttart, Berlin – Koeln – Nainz (1983).

44-Stubbs, Michael: Discourse Analysis, The Sociolinguistic Analysis of Natural Language Basil Blackwell, Oxford (1989).

45-Taylor, Richard: Understanding the elements of literature, Hong Kong (1981).

46-Van Dijk, Teum, A. : Dialogue as Discourse and Interaction, In : Teun A. Van Dijk (ed.): Handbook of Discourse Analysis, Vol. 3: Discourse and Dialogue 3. ed printing,

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

London (1989).

Text and Context. Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse, Longman, London, New York (1980).

47-Watson, O., Michael and Graves, Theodor, D.: Quantitative Research in Proxemics Behaviour, in: Amer. Anthrop., Vol: 68 (1966).

48-Widdowson, H., G.: Stylistics and the teaching of literature. Longman Group Ltd. London (1979).

49-Zangwill, Oliver, L.,: The Relation of Nonverbal Cognitive Functions to Aphasia, in: Eric H. Lenneberg and Elizabeth lenneberg (eds.): Foundations of Language development, 2. Chap., 6, Academic Press, New York (1975).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner